

892.709
Ha377sA

صَفْحَاتُ مَنْ لِلْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ

مِنْ الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ إِلَى النِّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ

تأليف

عبد الحميد حسين

الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

78073

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

Cat. Jan. 52

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى آله وصحبه الذين كانوا دعاة خير وأعلام هدى .

(وبعد) فهذا بحث في الأدب في مصر من عهد الفاطميين إلى النهضة الحديثة ، سطرته في خلال تدريس هذه العصور لطلاب دار العلوم . وقد قصدت فيه إلى عرض الخصائص العامة للحياة الأدبية والعقلية في هذه الفترة الحافلة بعوامل لها شأن في تاريخ مصر وثقافتها .

ولدراسة الأدب وتاريخه طرق متعددة . منها :

١ — الاهتمام بدراسة الآثار الأدبية من شعر ونثر ومحاورات ومناظرات وقصص ومقالات وغير ذلك من فنون الأدب قديمها وحديثها ، ثم التعليق على كل ذلك بما يوضح تاريخ قائله والظروف التي قيل فيها .

٢ — دراسة العصور الأدبية عَصراً عَصراً مع توفية كل منها حقه من البحث في شعره ونثره وثقافته وغير ذلك .

٣ — البحث في كل فن من فنون الأدب بحثاً متماسكاً متصلاً منذ البدء إلى العصر الحاضر لتعرف المراحل التي مر بها والعوامل التي أثرت فيه ونصيبه من الرقي أو الهبوط ، ومن النشاط أو الركود إلى غير ذلك .

٤ — دراسة الاتجاهات العامة للأدب مع بيان أصولها التاريخية والاجتماعية والثقافية وغيرها .

٥ — دراسة الشخصيات الأدبية دراسة وافية مع التعرض لآثار كل أديب بالدرس المفصل والنقد والتمحيص .

٦ — دراسة الأصول الفنية للأدب وللقدر الأدبي على الأسس الحديثة .

* * *

ولكل طريقة من هذه الطرق قيمتها العلمية ومكانتها في مراحل الدراسات الأدبية ، وهي جميعا متماصة يتم بعضها بعضا وتكون منها سلسلة البحث الأدبي في شتى نواحيه .

والموجز الذي أقدمه للقراء يعالج ناحية منها . وإنى أرجو أن يحقق بعض الأغراض المنشودة وأن يكون مرشدا للدارسين ونافعا للباحثين .

القاهرة في يونية سنة ١٩٥٠

عبد الحميد حسن

الدولة الفاطمية

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ

سميت بذلك نسبة إلى فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام وزوج علي بن أبي طالب . وتسمى أيضا العلوية نسبة إلى علي بن أبي طالب ، أو العبديية نسبة إلى مؤسسها عبید الله بن محمد من نسل جعفر الصادق .

وقد ظهرت هذه الدولة على أثر ما نال الشيعة من اضطهاد اضطهرهم إلى الفرار إلى أطراف الدولة العباسية فقاموا بالدعوة لمذهبهم وكان أبو عبد الله الشيعي أحد الدعاة فذهب إلى المغرب سنة ٢٨٠ هـ داعيا لعبید الله بن محمد معلنا أنه الإمام المنتظر وهو خليفة المسلمين . فوجد من المغاربة من شد أزره ولبى الدعوة لعبید الله وهو أول أئمة الفاطميين سنة ٢٩٧ هـ .

وقد أسسوا دولة بسطت سلطانها في المغرب وقضت على حكم الأغالبة^(١) وامتد ملكها إلى كثير من الأقطار الإسلامية ، ووجدت من أنصار التشيع في المشرق على يد بني بويه ما ساعد على انتشار مبادئها ومد نفوذها .

ثم تطلع الفاطميون إلى فتح مصر وحاولوا ذلك فصادفوا النجاح في أيام خليفتهم الرابع المعز لدين الله على يد القائد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ . وقد قام بالأمر منهم أربعة عشر خليفة وانتهت دولتهم بتغلب الدولة الأيوبية .

ومن النواحي التي تهمننا في بحثنا الأدبي موضوعات ثلاثة نجمل القول فيها تاركين التفصيل للمراجع التي أفاضت في الاستقصاء وهي :

التشيع ونشأته — الحضارة الفاطمية في مصر ومظاهرها — الثقافة والحياة العقلية .

(١) قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ أيام الرشيد أنشأها أحد قوادهم العظام « إبراهيم بن الأغلب » وانتهى حكمها سنة ٢٩٦ هـ .

التشيع ونشأته :

يرجع التشيع إلى رأى فريق من المسلمين أن عليا أحق بالخلافة وقد ظل أنصار هذا الرأى فى موقف سلبي لا يجهرون بمذهبهم فى الفترة الأولى من عصر الخلفاء الراشدين . ثم نشطوا فى إعلان آرائهم والاهتمام بإذاعتها بعد مقتل على ابن أبى طالب ، واشتد الخلاف بين أنصاره وأنصار معاوية واشتعال جذوته بعد مقتل الحسين بن على وما اعترى أنصار آل البيت وشيعتهم من جراء هذا من آلام وأحزان وثوران نفسى زادهم تعلقا بآل البيت وتشيعا لعلى وذريته .

وفى أيام الدولة العباسية أخذ خلفاؤها يتعقبون العلويين واشتد المنصور فى تعقب زعمائهم فاضطروا إلى الاختفاء والفرار إلى أطراف المملكة الإسلامية يثبون الدعوة لمذهبهم سرا وجهرا .

وأساس مذهب الشيعة أن على بن أبى طالب هو وصى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الإمام من بعده ، وأن الإمامة محصورة فيه وفى ذريته ولا تصح إلا بالنص الجلى من السابق على اللاحق .

وقد انقسموا إلى فرق : (أ) فمنهم الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين ابن الحسين . (ب) ومنهم الإمامية الذين جعلوا الاعتراف بالإمامة جزءا من الإيمان . وهم فرق : منهم الاثنا عشرية ، والأئمة فى رأيهم اثنا عشر أولهم على وآخرهم محمد المهدي . (ج) ومنهم الإسماعيلية أو الباطنية وهم الذين يقفون بالإمامة عند إسماعيل بن جعفر الصادق . ومن آثار مذهبهم الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر .

وللإسماعيلية عقائد فى الدعوة والداعى وكيفية الدعوة والمستجيب والعهد الذى يؤخذ عليه والوصى والأئمة الذين يقومون من بعده إماما بعد آخر حتى يقوم آخر الأئمة فى آخر الزمان ويملا الأرض نورا وعدلا . وكل ذلك بالنص والتوقيف لا بالشورى أو الانتخاب .

ويرى الإسماعيلية أن الإمام مظهر من نور الله . ونور الله لا يزال ينتقل من
إمام إلى إمام ، والإمام هو سبب وجود المخلوقات ، ويقولون ان الإمام قائم مقام
أمر الله وكلمته ، فجميع صفات الباري جل وعلا واقعة عليه . وهذا هو مصدر ما جرى
على السنة الشعراء والمتشيعين للفاطميين وزعيمهم الشاعر الأندلسي ابن هاني
في قوله له يمدح المعز لدين الله :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وعقائد الشيعة وفرقهم مبسوبة في مراجع شتى من كتب التاريخ والعقائد
والنحل فارجع إليها ^(١)
(حضارة الفاطميين في مصر)

كانت الدولة الفاطمية من أعظم دول الإسلام حضارة وأضخمها ملكا
وأوفرها حظا من مظاهر الأبهة والجلال . وكان فتحها مصر من أقوى العوامل في
بسط نفوذها ووفرة خيرها وعظم ثروتها . وقد خفق علمها الأبيض على ربوعها
فكان رمز الاستقلال وعنوان القوة ودليل المجد الذي لم يشهد الشرق مثله
إلا قليلا .

وقد تفجرت ينابيع الثروة في عهدهم ، وتناثر النصارى الذي جادت به أيديهم
وكثر الهبات والعطايا والهدايا ، يبعون بذلك توطيد ملكهم وتمكين محبتهم
واجتذاب الأئمة إليهم حتى يكثر أنصارهم ويزداد مذهبهم الشيعي قوة وانتشارا .
ولقد أسس الفاطميون حضارتهم على دعائم من النظم الإدارية والجيوش
القوية والأساطيل التي امتلأت بها الثغور . وزادوا دولتهم جلالا وروعة وأبهة
بما عنوا بإنشائه من قصور وبساتين ، وما افتنوا في جمعه من أنواع الذخائر ،
وما حرصوا على اقتنائه من نفيس التحف التي كانت تجمل قصورهم وتزيد مجالسهم

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٣٩١ . الملل والنحل للشهرستاني . فجر الإسلام ص ٣١١

ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٨

ومآدبهم بهجة وروعة ، هذا إلى ما ابتدعوا من مواسم كانت تتجلى فيها صنوف من مظاهر البهجة والسرور ، وألوان من مباحج الحياة وأبهتها والمواكب وفخامتها وروعيتها ، وما أقاموا من مناظر ^(١) كان يجلس فيها الخلفاء للإشراف على ما يقام من باهر الحفلات . ولا يزال أثر ذلك باقيا في أسماء بعض الشوارع والطرق في القاهرة .

وقد وفي المؤرخون هذه المظاهر حقها من الوصف ^(٢) . وإن المطلع عليها يرى صفحة رائعة تدل على ما كان للدولة الفاطمية من عناية بالتأنق وحرص على جلال المظهر واهتمام بما يبعث الروعة والإعجاب مما لم يعرف في الدولة الإسلامية وقد استتبع كل هذا نشاطاً وتقدماً في أنواع من الصناعة العربية كالصياغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة وغير ذلك من الصناعات الزخرفية التي امتازت بها حضارتهم .

الثقافة والنشاط العلمي في عصر الفاطميين : —

سار الفاطميون في ثقافتهم ونشاطهم العلمي على نهج الدولة العباسية في عصورها الزاهية ، فكان العزيز بالله والحاكم بأمر الله يشبهان الرشيد والمأمون في الاهتمام بالعلوم وتنشيط البحث وتشجيع الباحثين ، والعناية بدور العلم ومجالسه وما يدور فيها من نقاش وجدل . ولقد شمل النشاط والتشجيع نواحي ثلاثاً تعتبر من دعائم الثقافة ووسائل نشرها وهي :

(أ) معاهد العلم (ب) ودور الكتب (ح) ومجالس البحث والمحاضرة
(١) أما معاهد العلم فكان في طليعتها الأزهر وهو أقدم مدرسة في مصر . وقد أسسته الدولة الفاطمية وحاطته بالرعاية وجمعت له كثيراً من كبار العلماء ورتبت لهم

(١) جمعة منظرة ، وكانت المناظر يشرف منها الخلفاء على الاحتفال ببعض الأعياد ، وكانت تستعمل أيضاً أما كن لغزتهم . راجع خطط المقرئ (ج ١ ص ٤٦٥) .
(٢) راجع خطط المقرئ ج ١

الأموال . وكانوا يدرسون فقه الشيعة وشيئا من اللغة والنحو والمناظرات والجدل العلمى . وكانت الهبات العلمية وإجزال العطايا للمعلمين حافزا على البحث والدرس

(ب) وأما دور الكتب فقد كانت العناية بها عظيمة ، وكان للعزیز وابنه الحاكم اهتمام بالكتب واقتنائها . وقد تجلّى ذلك فى (دار الحكمة) التى أنشأها الحاكم على نسق (بيت الحكمة) فى بغداد فى عهد المأمون . وإن ما يحدثنا به التاريخ من عدد الكتب التى كانت تحويها دار الحكمة والتى كانت فى قصر الحاكم ، ليدل على عظيم الاهتمام بناحية لها الأثر القوى فى الثقافة والبحث العلمى فى ذلك العصر .

فقد وصف المقرئزى خزانة الكتب فى قصر الخليفة وأشار إلى عدد ماتحويه من كتب فى شتى العلوم وإلى مذهب منها فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم ببعض قيمته ومأجل إلى بلاد المغرب وماذهب بالابتىاع والاغتصاب من الكتب الجليلة المقدار المكدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة سوى ماغرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار ^(١) .

ومابقى منها بيع فى أيام الدولة الأيوبية . قال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : « ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ويقال إنها كانت تحتوى على ألف ألف كتاب . وكان فيها من الخطوط المنسوبة شىء كثير . وحصل للقاضى الفاضل شىء منها كثير حيث شغف بحبها . وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه فى بركة ماء كانت

هناك ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة ثم جمعها بعد ذلك ^(١) .

وكانت الدولة الأيوبية من غلاة السنية ، وكانوا يعملون على طمس معالم الحضارة الفاطمية بجميع مظاهرها . وإن فقدان هذه الكتب من أهم الأسباب في ضياع كثير من المراجع ذات الشأن في تاريخ الفواطم .

(ح) وأما مجالس البحث والمناظرة فإنها تتجلى في بيت الحكمة ، فقد استقدم الحاكم إليها العلماء والأدباء وأباح الدخول فيها . وكانت تكثر فيها المناظرات والمحاضرات ، والخليفة الحاكم يحضرها ويشجعها .

ومن كان لهم شأن في تنشيط العلم والعلماء الوزير يعقوب بن كلس ^(٢) وزير العزيز بالله فقد كان أثره عظيماً في إنهاض العلم وتشجيع الأدب .

من كل هذا نرى أن ميادين الثقافة العربية في العصر الفاطمي كانت حافلة مزدهرة بأنواع البحث . ولقد كانت القاهرة في أواسط القرن الخامس الهجري عاصمة بالنشاط العلمي والفني وكانت تنافس بغداد عاصمة العباسيين وقرطبة عاصمة الأندلسيين في هذا السبيل .

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٠

(٢) كان يهوديا ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم ثم سافر إلى الشام ثم إلى مصر وقربه كافر لما رأى من نجابته وشهامته ونزاهته . وقد أسلم ودرس القرآن والمعلوم الشرعية والعربية واتصل بالفاطميين . وما زال يترقى حتى ولى الوزارة وعظمت منزلته فساس الدولة أحسن سياسة (ابن خلدون ج ٢ ص ٤٤٠) .

الأدب في العصر الفاطمي

الأدب يسير الحياة وتتجلى فيه نزعاتها وألوانها ونظمها ، وحظه من النشاط مرتبط بما ينال من تشجيع وما يصادف من أسباب تحفز على القول وعلى الانتاج الفكري ، وتوقظ في النفوس الميل إلى التعبير ، وتغري الشعراء ، وتفسح المجال للكتاب .

وإن أول ما يتجلى من العوامل في نشاط الأدب في عهد الفاطميين أن هذه الدولة كانت دولة عربية يقدر خلفاؤها وأمراؤها جيد القول ، وكانوا يتشبهون بالعباسيين ويترسمون خطاهم ، وينافسون عاصمتهم في العلم والأدب ، فكانت القاهرة مقر مجدهم العلمي وملاقى طلاب الدرس والبحث ، وكان للغة العربية شأن في دواوينهم ، وكان الأدب زينة مجالسهم وحلية دولتهم ، وللشعر وللكتابة حظ من النشاط ونصيب من عوامل التشجيع .

الشعر :

لقي الشعر رواجاً في عصر الفاطميين ، وصادف من عوامل التشجيع ما أطلق ألسنة الشعراء ، وأيقظ نفوسهم ، وزاد نشاطهم ، وبعث فيهم الميل إلى الإجابة . وأهم هذه العوامل :

- ١ — اهتمام الفاطميين بالشعر واعتزازهم به ، والتجاؤهم إليه لتثبيت ملكهم وتوطيد دولتهم ، وإن للشعر العربي منذ القدم لأثراً قوياً في النفوس ، وله عظيم الشأن في الإشادة بالحماد واجتذاب القلوب
- ٢ — وكان الفاطميون عرباً يفهمون الشعر ويدركون محاسنه ويهتزون لروعته وقوى ديباجته .

- ٣ — فصادف منهم الشعراء التشجيع الأدبي والمادي .

أما الأدبي فكان بتقريبهم وإحلالهم محلاً رفيعاً في قصور الخلفاء ومجالسهم .
وأما المادى فكان بما يمنحون من هبات وما يجرى عليهم من رواتب على حسب
منازلهم التي كانت لهم في بلاط الخليفة .

٤ — وقد نجم عن كل هذا تنافس الشعراء في الظفر بعالي المراتب ، وبأن
ينال كل منهم من الدرجات ما هو أرفع من درجته كي يحظى بالرضا والقبول .
٥ — وهناك عامل له قوى الأثر في تغذية الشعر وإرهاف عقول الشعراء
وشحذ بياضهم وإمدادهم بمادة خصبة للقول ، وذلك هو ما كان في هذه الدولة من
مظاهر الأبهة التي تجلت في مواكب الخلفاء ومجالسهم وموائدهم وحفلاتهم وغير
ذلك من مباحج الحياة وموفور نعيمها .

من كل هذا يتضح ما كان للشعر من مكانة جعلت الشعراء يتسابقون إلى
مدح الخلفاء والوزراء في هذه الدولة ، لما غمروهم به من خيرهم وسنى عطاياهم .
وقد دفع تشجيع الفاطميين للشعراء إلى هجرة كثير منهم أوطانهم والإقامة
في مصر للظفر بهباتهم وبسخائهم . وكان الفاطميون يرحبون بالنابيهين من الشعراء
على اختلاف مذاهبهم .

هذا وما يلاحظ أن غلو بعض الشعراء في مدح الفاطميين قد زهد المؤرخين
في الاهتمام بآثارهم وتدوين كثير من أشعارهم ، فالعماد الأصبهاني ، وكان سنياً ، لم
يذكر في كتابه (خريدة القصر) إلا أمثلة قليلة من القصائد التي نظمها غلاتهم
ومما قاله عن أحدهم وهو ابن الضيف :

« كان من دعاة الأدعياء المغالين لهم في الولاء ، وكان في عهد أمرهم وله
فيه مدائح كثيرة ، لدواعي المنايح مثيرة ، وقع إلى ديوانه بخطه ، وكنت عازماً على
خطه ، لأنه أساء شعراً وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، لسكنتني لم أر أن
أترك كتابي منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر

والفاجر ، يحمل الغناء كما يحمل الدر ، والمركب فيه يجمع العبد والحر ^(١) .
الكتابة :

الكتابة تسير حياة الأمم في حضارتها ونظامها ، وهى صورة للدول ومرآة لميول أفرادها ، تسير من حيث الأغراض في اتجاهين أساسيين أولهما فردى يرتبط بمقاصد الأشخاص وميولهم . والثانى يتصل بالدولة وبالشئون العامة للمجموع .
فأما الفردى فإنه يتجلى فى الرسائل الإخوانية فى شتى الأغراض ، وفى ميل الكتاب إلى إظهار مواهبهم البيانية ومقدرتهم فى مناحى البلاغة والابانة عن خلجات نفوسهم وما تتطلبه حياتهم .

وأما الاجتماعى فإنه يرجع إلى ما تحتاج اليه الدولة فى إدارتها ونظامها وماتتطلبه قيادة الشعوب وتوجيهها من إرشاد الى ما ينهض بالحياة ومرافقتها .

فالكتابة إذن أداة للدولة وعون للأفراد ، وموضوعاتها ترتبط بالفرد وميوله وأغراضه ووجدانه ، وبالمجموع ونظامه وشئونه .

وقد كانت الكتابة فى العصر الأموى وفى صدر العصر العباسى تحمل فى طياتها مظاهر القوة العربية وتتم فى اغراضها ومعانيها وعبارتها على البيان العربى البعيد عن العمل والتصنع وتؤدى من أغراض الدولة الاسلامية ما اقتضته شئونها التى كانت آخذة فى النمو والاتساع ، وكانت العربية السليمة شعارها والطبع العربى مبعثها .

ولكن الدولة العربية قد اتسع ملكها وترامت أطرافها وتشعبت مطالبها وتعلقت من أسباب المدنية ومظاهر الحياة وزخرفها بشقى الألوان . وصحب كل هذا امتزاج العرب بغيرهم من العناصر ولا سيما الفرس الذين كان لهم نفوذ قوى فى الدولة العباسية وكان للغة العربية من أساليبهم وميلهم إلى زخرف القول

(١) راجع كتاب خريدة القصر المخطوط بدار الكتب فى القاهرة .

وعبارات التبجيل نصيب كان في أول الأمر قليلا أو محتملا أو مستورا غير بارز الأثر في طيات العبارات العربية القوية .

وحين استفحل نفوذ الأعاجم وضعفت المقدرة البيانية العربية وفتر فيها الجانب المعنوي والديباجة الرصينة ، لم يجد الدخلاء في اللغة وسيلة من وسائل التجميل البياني إلا فنونا من الصناعة اللفظية غمروا بها كتابتهم .

وكانت هذه الصناعة في أول الأمر يسيرة الخطب منثرة في نواحي الكتابة تزينها في بعض فنونها كما كانت الحال في العصر العباسي الثالث في طريقة ابن العميد ، ثم طغى سيلها وعم طوفانها فغمر فنون الكتابة ، وأغرم الكتاب بالحسنات والافتنان في تكديسها والاسراف في حشدها ، على أن هذا الحسنات لم تكن بالبعيضة ولم تشوه روعة المعاني حين كانت تصدر عن كبار الكتاب الذين امتلكوا زمام اللغة ، واتسع اطلاعهم ، وطاوعتهم العبارة في سلاسة ويسر . وكان لهؤلاء الكتاب فضل على اللغة لا يحدد ، فقد حفظوا لها رونقها وأسلوبها السليم ، وحرصوا على أن تكون مظهرًا رائعًا من مظاهر مجد الدولة العربية ، وجعلوا للكتابة شأنًا في مناصب الدولة ، وذلك بفضل ديوان الإنشاء ورؤسائه والكتاب الكثيرين الذين كانوا يندمجون في وظائفه أو يتطلعون إليها .

ديوان الإنشاء :

نشأ هذا الديوان في أيام الدولة الطولونية ثم استمر في نشاطه أيام الفاطميين ومن بعدهم ، وكان لرجاله شأن فيما ظهر من مؤلفات كثيرة في الإنشاء وأساليب الكتابة وفنونها .

يتضح من هذا أن الكتابة في الدولة الفاطمية تمثل مرحلة من المراحل التي وصل إليها التدرج في العناية بالحسنة البديعية ، وشاعت فيها طريقة القاضي الفاضل

الذى ظهر فى أواخر هذه الدولة ، ودرج الكتاب على أسلوبه فى هذا العصر وفى العصور التى بعده .

وكان لديوان الإنشاء فى هذه المرحلة وفى غيرها كذلك شأن ، فقد كان أشبه بمدرسة أو معهد لتخريج الكتاب ، وله أثر عظيم فى النهوض باللغة العربية وتنشيط الإنتاج الأدبى ، وكان خير حافظ على النبوغ فى الأدب ، وقد تطلعت نفوس الكتاب إليه وإلى مناصبه المختلفة وتنافسوا فى الاستعداد للوصول إليها .

وقد أوضح صاحب «صبح الأعشى» ما يتعلق بديوان الإنشاء فى الدولة الفاطمية من وظائف وهى ثلاث :

الأولى -- صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات . وكان لا يتولاها إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالأجل ويقال له عندهم كاتب الدست ^(١) الشريف وإليه تسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة ويستشير الخليفة فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه .

الثانية : التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم . وهى رتبة جليلة تلى رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات يكون صاحبها جليساً للخليفة فى أكثر أيام الأسبوع فى خلوته إذا كره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين ويقرأ عليه ملح السير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الاخلاق ، ويقوى يده فى تجويد الخط وغير ذلك .

الثالثة : التوقيع بالقلم الجليل لتنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق . فإذا رفعت المظالم حملت إلى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه ثم يحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبط ما أشار

(١) معرب دشت وهى الصحراء . ومن الثياب والورق وصدر البيت . واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والراثة (شفاء الغلل) .

إليه صاحب القلم الدقيق ، ثم تحمل في خريطة ^(١) إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج في خريطةها إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه ^(٢)

ولصاحب الديوان صفات يجب أن يتحلى بها ، من العلم والأخلاق والتجربة السياسية ، وأن يكون من أعلام الأدب وامراء البيان الملمين بكثير من العلوم ، وهو الذى يطلع على ما يكتبه كتاب الديوان فى شئون الدولة ، ويتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها للسلطان ويحيب عنها ويختار من يرسله السلطان إلى الخارج فى أمور المملكة ، وله الإشراف على كتاب الدست وكتاب الدرج ولكل من هؤلاء عمله الخاص فى قراءة الأحوال والقصص على السلطان وكتابة الولايات ونحوها .

وقد شرح الفلقشندى فى الجزء الأول من صبح الأعشى كل ذلك بإسهاب ^(٣) هذا ، والذى شاع من أنواع الرسائل فى هذا العصر هو الرسائل الديوانية التى كانت تصدر عن الدولة فى شئونها ، والرسائل الإخوانية التى يكتبها الأدباء فى مقاصدهم الخاصة طوعاً لميولهم وتلبية لوجدانهم ولبواعثهم النفسية ، أما النوع الاجتماعى المتصل بوجوه الإصلاح والإرشاد فلم تنجبه إليه الأذهان فى ذلك العصر .

وسنذكر نماذج من الشعر والنثر تتجلى فيها خصائص كليهما ونبدأ قبل ذلك بتعريف موجز ببعض الشعراء والكتاب فى هذا العصر .

(تيم بن المعز) توفى سنة ٣٧٤ هـ

هو ابن المعز لدين الله الفاطمى رابع خلفاء الفاطميين كان فاضلاً شاعراً ماهراً

(١) الخريطة شبه كيس من جلد أو خرق .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠

(٣) ص ٦١ ، ١٣٠

ظريفا ولم يكن ولي العهد فقد كانت ولاية العهد لأخيه العزيز .

(عمارة اليمنى) توفى سنة ٥٦٩ هـ

ولد فى اليمنى ثم وفد سنة ٥٥٠ هـ رسولا من قبل صاحب مكة إلى الفائز الخليفة الفاطمى والوزير الصالح بن رزيك وأنشدهما شعره فاستحسنه وأجزلا صلاته فأقام فى أرغد عيش ، وأرحب جانب . ثم رجع إلى بلاده وعاد مرة ثانية برسالة إلى مصر سنة ٥٥١ هـ فاستوطنها ولم يفارقها بعد ذلك .

وكان شافعى المذهب شديد التعصب للسنة وقد أحسن إليه الصالح طلائع ابن رزيك وبنوه وأهله كل الاحسان وصحبه مع اختلاف المذهب لأنهم شيعة .

ولما ملك السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من أهل بيته ، ثم إنه اشترك فى مؤامرة لقلب ملك الأيوبيين والسعى فى إجلال ولد العاضد فى مصر فأحس بذلك صلاح الدين وصلب المتآمرين سنة ٥٦٩ هـ .

ولعمارة اليمنى ديوان مطبوع مع كتاب له يسمى النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية .

(الصالح طلائع بن رزيك) توفى سنة ٥٥٦ هـ

كان واليا بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر فلما قتل الظافر إسماعيل الخليفة الفاطمى أرسل أهل العصر إلى الصالح واستنجدوا به فدخل القاهرة وتولى الوزارة فى أيام الخليفة الفائز واشتغل بالأمور السياسية وتدبير أحوال الدولة . وكان فاضلا سمحاً فى العطاء سهلاً فى اللقاء محباً لأهل الفضائل . ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته وزادت حرمة وتزوج العاضد ابنته ، وكان العاضد تحت قبضته فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة فى قتله .

وهو الذى بنى الجامع الذى على باب زويلة بظاهر القاهرة . وخرجت الخلع لولده العادل ثانى يوم وفاته ولقب العادل الناصر ، وكان الصالح قد دفن بالقاهرة

ثم نقله ولده العادل سنة ٥٥٧ هـ في تابوت وركب خلفه العاضد إلى قبره الذي بالقرافة الكبرى .

وقد أورد له صاحب كتاب الروضتين ^(١) قصائد أرسلها إلى أسامة بن منقذ ^(٢) يجرى فيها نور الدين على قتال المشركين ثم أورد نقلا عن العماد الأصمهباني في الخريدة :

«الصالح أبو الغارات طلائع بن زريك سلطان مصر في زمان الفائز وأول زمان العاضد ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق في زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاضي العطاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام معاني حكمته ، فيقال إن المهذب بن الزبير كان ينظم له والجلس ابن الحباب كان يعينه .

ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بدمية :

انظر إلى ذي الداركم قد حل ساحتها وزير
ولكم تبخر آمنا وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليه من الفناء غداً نصير

القاضي المهذب بن الزبير

هو الحسن بن علي قال فيه صاحب الروضتين : «لم يكن في زمانه أشعر منه وقد أورد له العماد الأصمهباني في كتابه حريدة القصر كثيرا من الأشعار . وقال

(١) ١ ص ١٠٥

(٢) كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (بالقرب من حمه) وعلمائهم وشجعانهم . سكن دمشق ، ثم انتقل إلى مصر فبقى بها أيام الصالح بن زريك ثم عاد إلى الشام وقام حتى ملك صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ ود جاور الثمانين .

ابن خلكان في خلال ترجمة القاضي الرشيد : « كان القاضي الرشيد من أهل الفضل والنباهة والرياسة . وله ديوان شعر . ولأخيه القاضي المذهب ديوان شعر أيضا ، وكانا مجيدين في نظمهما ونثرهما . ومن شعر القاضي المذهب وهو معنى لطيف غريب من جملة قصيدة بدیعة :

وترى الجرة والنجوم كأنما تسقى الرياض بجدول ملآن
ولم تسكن نهرا لما عامت بها أبدا نجوم الحوت والسرطان
وله كل معنى حسن . وهو أشعر من الرشيد والرشيد أعلم منه . وتوفي بالقاهرة سنة ٥٦١ هـ (١) .

(أبو حامد الأنطاكي) توفي سنة ٣٩٩ هـ
هو أبو حامد أحمد بن محمد المشهور بأبي الرقعمق . ذكره الشعالي في كتابه يتيمة الدهر فقال : هو نادرة الزمان ، وجملة الإحسان ، ومن تصرف بالشعر الجزل ، في أنواع الجدوالهزل ، وأحرز قصب الخصل (٢) وهو أحد المدايح المجيدين والفضلاء المحسنين . أقام بمصر زمانا طويلا ومعظم شعره في ملوكها ورؤسائها . ومدح بها المعز لدين الله الفاطمي وابنه العزيز والقائد جوهرأ والوزير ابن كلس وغيرهم .

(ابن الصيرفي) توفي ٥٤٢ هـ
هو أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المصري . وقد اتصل بديوان الرسائل في أيام الأمر بأحكام الله الفاطمي سنة ٤٩٥ وبقى يعمل في هذا الديوان نحواً من أربعين سنة . وله كتاب سماه « الإشارة إلى من نال الوزارة » أتى فيه على تاريخ وزراء الفواطم من عهد أولهم يعقوب ابن كلس إلى وقته ، ذكر ذلك ابن خلكان في ترجمة يعقوب بن كلس . وله كتاب آخر يسمى « قانون ديوان الرسائل » طبع في مصر سنة ١٩٠٥ نقلا عن

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٣

(٣) الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس أى الغرض ويقال أحرز خصله أى غاب .

نسخة خطية في أوروبا وقد عني بنشره والتعليق عليه المرحوم على بهجت بك
وكيل دار الآثار العربية بالقاهرة . وصدره بمقدمة مفيدة أوضح فيها السبب في
إغفال كتب التاريخ والتراجم لابن الصيرفي وأمثاله ، ويروى صاحب كتاب صبح
الأعشى عن ابن الصيرفي كثيرا من الكتب الديوانية .

(على بن خلف)

من كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية وألف في مصطلح الإنشاء كتابه المسمى
« مواد البيان » وكثيراً ما ينقل عنه صاحب صبح الأعشى .

(ابن قادوس)

هو القاضي كافي الكفاة محمود بن القاضي موفق أسعد بن قادوس من رؤساء
كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية في أيام الأمر والحفاظ .

* * *

وهاك بعض المماذج :

قال تميم بن المعز الفاطمي في الفخر :

ألقى النكوى فلا أخاف لقاءه	ويقل إقدامى شبا الحدثان
وأكر في صدر الخميس معانقا	للموت حين يفر كل جبان
ويزيدني كل الخطوب تعظما	وتسلط الأيام عز مكان
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق	ذرها بأيامى وغدر زماني
وكما يمل الدهر من اعطائه	فكذا ملالته من الحرمان
وكما يمر لمعشر بسعادة	فكذا يمر لمعشر بهوان
فإذا رماك بشدة فاصبر لها	فلسوف يأتي بعدها بليان
وسل الليالى عن نفاذ عزيمتى	وسل الحوادث عن ثبات جناني
تخبرك عنى اننى لم ألقها	بين العزائم واهن الأركان
أصبحت لأشتاق إلا للندى	أيضاً ولا أهوى سوى الإحسان

وإذا السيوف قطعن كل ضريبة
وقال يصف فوارة في بستان :

وقاذفة في الماء في وسط بركة
إذا انبعثت بالماء سلمته منصلا
تحاول إدراك النجوم بقذفها
وقال عمارة الينبي في رثاء دولة الفواطم .
وفيها إشارة لكثير من أيامهم وعاداتهم :

رمى يادهر كف الجمد بالشلل
هدمت قاعدة المعروف عن هجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
قدمت مصر فأولتني خلائفها
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
يا عاذلى فى هوى ابنا فاطمة
بالله زرساحة القصرين وابك معى
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما
والخيل تعرض من وشى ومن شية
وللجوامع من أحبابكم نعم
وربما عادت الدنيا لمعقلها

وقال فى كسر الخليج يمدح العاضد سنة ٥٩٩

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر
ووارث علم النمل والنحل والحجر^(٤)

(١) المهل : الفطران أو الزيت أو درديه أو ما ذاب من حديد .

(٢) الوشى النقش والتحصين واخلط لون بلون .

(٣) الأحباس ما يحبس من الثروة لتكون غلته لوجوه الخير .

(٤) الحجر الخيل :

ومنها :

تمل أمير المؤمنين مواسماً^(١)

ركبت إلى كسر الخليج وإنما
ولما رأيت البر بجرأ من الظبا
غدوت بفتح السدق زحف أرعن
يرد ظلام النقع جراً كأنما

ومنها

وكم قدرة يا آل رزيك منكم
ولو لم تكونوا آمرين على الورى
فكيف وقد أضحي امام زمانكم
قدمتم له مادام شعري فانه

وقال يمدح الإمام العاضد :

الشعر يعلم أن قدرك أكبر
لكن مدحك خدمة مفروضة

ومنها :

شرفت أمير المؤمنين مواسم
قسمت كما قسم الزمان فحاضر
وأجلها يوم الخليج فإنه
يوم خلعت عليه ليل عجاجة
وافاك فيه النيل وهو من الحيا
قد جاء معذراً اليك وتائباً

تزورك من صوم شريف ومن فطر
ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
تعجبت من بحر يسير إلى نهر
يسدهبوب الريح بالأسل السم^(٢)
أسنته مطبوعة بسنا الفجر

تعبر بالإحسان عن شرف القدر
لكنتم احق الناس بالنهي والأمر
لكم جامعاً بين الكفالة والصهر
سيبقى إلى أن ينقضى عمر الدهر

مما نقول وأن فضلك أكثر
أمر المقل بفعلها والمكثر

أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر
لم ينصرم ومقدم ومؤخر
من بينها يوم أغر مشر
شهب الأسنة في دجاها تزه
خجل يقدم رجله ويؤخر
من ذنبه الماضي ومثلك يعذر

(١) تمل مواسماً : أى عيش متمتعاً بها .

(٢) الأسل السم : الرماح .

لولا تعثره بأذيال الشرى
لو لم تغبر بالندى في وجهه
ولو انه لاقى ركابك أبيضاً
ولقد عدمناه فنبت نيابة
إن كان من نهر فكفك لجة
شتان بينكما أبحر واحد

ما كان مذكوراً عليه العثر^(١)
ما لاح قط عليه لون أغبر
صرفا لكدره العجاج الأكد
عز الغنى بها وأثرى المعسر
أو كان من مطرفو بلك أغزر
كيد أناملها الكريمة أبحر

وقال من قصيدة يذكر حريق منظره على الخليج لآل رزيك ويذكر دارهم
الأخرى وما فيها من الستور والتصاوير :

لم تحترق دار الخليج وإنما
طلبت يقاع الأرض دون وهادها
أو هل تزور النار ساحة جنه
أنشأت فيها للعيون بدائعاً
ومنها :

لا تعدم الأبصار بين مروجها
أنست نوافر وحشها بسباعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشأ تربك من المها
جملت على الأقعاء من أعجازها
يأيها الملك الذي اعتصمت يدي
اسمع جواهر خاطر لو لم ينقص

ليشاً ولا ظمياً بوجرة أعفرا
فضباؤها لا تنقى أسد الشرى
في الطول ألوية تؤم العسكرا
روقا ومن بزل المهاري مشفرا^(٢)
فتخالها للتيه تمشي القهقرا
منه بحبل غير منفصم العرا
في بحر جودك لم يقل ذا الجوهر

(١) العثر : التراب .

(٢) الروق : القرن والبرز : جمع بازل وهو البعير الذي انشق نابه بدخوله في السنة التاسعة
والمهاري : الابل المهرية المنسوبة الى مهرة .

روى منابت كرمها الكرم الذى
وقال يمدح المظفر فارس المسلمين أخا الملك الصالح :
سرت نفحة كالمسك أزهى وأعطر
وأردية الظلماء تطوى وتنشر

ومنها :

بعيشك هل فى الأرض غيرى عاشق
شهاب أمير المؤمنين الذى غدت
أغر لوانا ماعرفنا حديثه
وهل فارس الإسلام إلا المظفر
بدولته الأيام تسمو وتفتخر
لحدتنا عنه سرير ومنبر

ومنها :

تهلل بشرا واستهل أناملا
أرى الناس جسما آل زريك رأسه
دعوا يابنى الأحياء يحيى وجعفر
ولا تذكروا كهبا وعمر وعنترا
وخلوا حديث البخترى فإنى
وكننت أظن الشعر بعد طلائع
فأحييتم تلك السجايا بمثلها
وقال يمدح الناصر بن الصالح :
فقله بدر مشمس الجو ممطر (١)
وبدر له تاج ورزىك جوهر
فكل بنى زريك يحيى وجعفر
فخادمهم كهب وعمر وعنترا
له بخترى لم تناسبه بختر (٢)
يضيع فينسى أوي موت فيقبر
حياة بها ميت المسكارم ينشر

دانت لأمرك طاعة الأقدار
وسما على الشعرى محلك فى الورى
وتواضعت لك عزة الأقدار
فسمت بذلك همه الأشعار
ومنها :

وامدد يديك أبا الشجاع مشوبة
وعقوبة بالسيف والدينار

(١) استهل المطر : انهل .

(٢) البخترى بن أبى صفرة وكان من أكمل فتيان العرب جمالا وبيانا وشعرا ، وكان بنو المهلب يحسدونه لفضله (الامالى ٢ ص ١٣٦) .

فهما ذريعة عزة وكرامة
 النائبان عن المنية والمنى
 والمصلحان فساد كل طوية
 والقائمان إذا تطاول ناكث
 والحاملان عن الممالك ثقل ما
 والرافعان غداة كل كريمة
 والموقدان لهم بكل ثنية
 ولقد جمعت أبا الشجاع إليهما

ومنها :

وغدت علاك صحيفة عنوانها
 وبنيت بعد أبيك شامخ رتبة
 أعلمتنا لما طلعت ببرجها
 يا خابط العشواء بعد طلائع
 يا ظامئ الآمال إنك نازل
 يا خائف الضارى نصحتك فاتمّد
 واسلم لأيام غدا بك أهلها

وقال أبو حامد الأنطاكي يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير العزيز

الفاطمي :

قد سمعنا مقالَه واعتذاره وأقلناه ذنبه وعشاره
 والمعاني لمن عنيت واكن بك عرضت فاسمعي يا جاره

(١) نقض الحبل حله . والامرار : القتل الشديد . والمراد بالنقض والامرار : الحل والعقد

في الأمور .

ومنها :

سحرتنى ألاحظه وكذا كل مليح ألاحظه سحاره
ماعلى مؤثر التباعد والإءراض لوأثر الرضا والزياره
وعلى أننى وإن كان قد عذب بالهجر مؤثر إشاره
لم أزل لاعدمته من حبيب أشتهى قربه وآبى نفا ره
ومنها :

لم يدع للعزیز فى سائر الأر ض عدوا إلا وأخذ ناره
كل يوم له على نوب الدهر - ر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذوید شأها القرار من البخ - ل وفى حومة الندى كراهه
هى فلت عن العزیز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده ت - سى وتضحى نفاعه ضراره

وقل :

ليلى بتميس^(١) ليلي الخائف العانى
أقول إذ لج ليلي فى تطاوله
لم يكف أنى فى تيس مطرح
حتى بليت بفقدان المنام فما

ومنها :

ليالى النيل لا أنساك ماهتفت
أصبو إلى هنوات فيك قد سلفت
كم بالجزيرة من يوم نعمت به
سقىا ليلتنا بالدير بين ربا
ورق الحمام على دوح وأغصان
قطعتن وعين الدهر ترعاى
على تصاحب نايات وعيدان
باتت تجود عليها سحب نيسان^(٢)

(١) تيس : مدينة قرب دمياط .

(٢) نيسان : شهر من شهور السنة المسيحية .

والطل منحدرو والروض مبتسم
عن أصفر فاقع أوأحمر قان
والنرجس الغض منهل مدامعه
كأن أجفانه أجفان وسمان
والمهذب الحسن بن على بن الزبير من قصيدة فى مدح الصالح طلائع بن
رزيك بمصر:

وتلقى الدهر منه بليث غاب
غدت سمر الرياح له عرينا
تحال سيوفه إما انتضاها
جداول والرياح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن
يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت
سنا يعشى عيون الناظرينا
وإن ضبحت مع الإصباح عدوا
أثارت للعجاج به دجونا
كأن الشمس حين تثير نقعا
تحاذر من سطاء ان تبينا
وما اضطربت رماح الخط إلا
مخافة ان يحطمها مبينا

كتاب من إنشاء ابن الصيرفى

الحمد لله كالىء خلقه فى اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر
الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه
أمير المؤمنين على بن أبى طالب أخلص ولى ، وأشرف وصى ، وأفضل إمام ، وعلى
الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة فى
الغدو والآصال .

وإن من المسرة التى تتهاذى ، والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى ، ما من
الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ،
وابنائهم الأكرمين . يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر
وافتاحه ، وأن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجيهه إلى
ظاهر المعزية القاهرة المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره

وعبيده ، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة ، وملائكة الله مطيفة حافة ، وعوده إلى قصوره الزاهية ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتى الدنيا والآخرة .
أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابعة على اهل الملة وتتلوها على اهل عملك ، وتطالع بكائنك فى ذلك ؛ فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى ^(١)

ولا بن قادوس فى وفاء النيل ^(٢)

النعيم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاهها بشكر تنشر فى الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم إدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك فى النفع بها العباد ، وتبدو مركبتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجز ^(٣) فى أحسن الملابس ، وتظهر حلال الرياض على القيعان والبسابس . ورى السكونز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان ^(٤) ، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات ، وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك وخلع على القاضى فلان أبى الرداد فى يوم كذا وكذا ، وطاف بالخلع والتشريفات ، والمواهب المضاعفات ، بالقاهرة المحروسة ومصر على جارى عادته ، وقديم سيرته ، ونودى على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً ، واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق ، وواصلوا بالشكر مواصلة لاستوقفهم عنها العوائق ، وبدا من مسرات الأمم وابتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد ، وينيلهم المنال السعيد ويقضى لهم بالمال الحميد . وموصل هذا الأمر إليك فلان ، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه ،

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣١٦ . (٢) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨

(٣) الأرض الجز التى قطع نباتها . والقيعان : جمع قاع وهو الأرض المسهلة المطمئنة .

والبسابس : القفار . (٤) العقيان : الذهب الخالص .

وإجمال تلقيه وفضاله إلى ماجرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء، وإكرام واعتناء، ليعود شاكراً، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

ومن السجلات التي أنشأها الموفق بن الخلال ^(١) صاحب ديوان الإنشاء ما كتب به عن العاضد بالوزارة لساور السعدى بعد أن غلبه ضرغام عليها ثم كانت له الكرة عليه ، وقد أوردته صاحب صبح الأعشى ^(٢) نقبس منه مايلي .

وان أمير المؤمنين لما اختصه الله به من المنصب الشريف، وسما به إليه من الحل الشامخ المنيف ، وفوضه إليه من تدبير خلقه ، وأفرده به من اتباع أمره والقيام بحقه ، وناط به من الحمامة عن الملة الخنيفية ، والاجتهاد في أن يشمل أهلها بالحالة السنية ، والعيشة الهنية ، وإعانتة في إظهار شعارها ، وتأيمده في إظهار علوها على الملوك واقتدارها - يبذل جهده في الاستعانة بمن تقوم به حجة عند الله بالاعتماد عليه ، ويتوثق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في اسناد الأمور إليه ، ويحرص على التفويض لمن يكفي في التدبير ، وتحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ، تقر بآ إلى الله بالعمل فيما ولاه بما يرضيه ، وازدلافا باتباع أمره في كل ماينفذه ويمضيه ، وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته، وعظماء مملكته، وأكابر شيعته ، وأنصار دعوته ، فوجدك أيها السيد الأجل أكملهم فضلا ، وأقلمهم مثلا ، وأتمهم في التدبير والسياسية إنصافا وعدلا ، وأحقهم بأن تكون لكل رئاسة وسياسة أهلا ، ففوض إليك من أمور وزارته ، وعول عليك في تدبير مملكته ، وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته، فجرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إشار أمير المؤمنين وإرادته ، واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشمات الميامن والسعود أتم اشتغال على تفصيله وجملته ، وانحسرت

(١) هو أبو يوسف بن محمد الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر أيام الفاطميين (راجع ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ٥٣٩) .

(٢) ج ١٠ ص ٣١٠ .

الأدواء ، وذلت بسطوتك الاعداء ، وزالت في أيامك المظالم والاعتداء ،
وحسنت بأعمالك الأمور ، وظهر بك الصلاح وكان قبل وزارتك قليل الظهور ،
فانبسطت الآمال واتسقت الأعمال ، وأقم الضلال ، وأمنت الأهوال ، وخلصت
من الرأى السقيم ، وحظيت بالملك العقم وغدا حنדהا ورعاياها ببركة رأيك في
النعيم المقيم .

* * *

هذه طائفة من النماذج تصور خصائص الشعر والوانه واتجاهه في أسلوبه
ومعناه وأغراضه ، وتوضح مميزات الشروماغمرة من ظواهر بيانية او صناعة لفظية ،
وإنا نشير إلى هذه الخصائص والمميزات .

(اما الشعر) فالخصائص التي تتجلى فيه هي التي كانت في اواخر العصر العباسي
مما اقتضاه تدرج الحياة ووفرة الترف وامتزاج العرب بغيرهم وما نجم عن ذلك من مبول
وطباع ومظاهر حيوية ظهر أثرها في الأدب العربي وديباجته . وقد تجلى ذلك في
أسلوب الشعر ومعانيه وأغراضه

(١) ففي الأسلوب: مجد الاعتماد عن الغريب من الألفاظ والميل إلى رشيق
العبارة ورائق الديباجة ورقب المعاني وسهل التراكيب ، ونجد كذلك العناية
البديعية وألوان التشبيه وأنواع الاستعارة . ومن الظواهر البارزة ترك البدء بالأطلال
وما يتصل به مما كان يظهر في شعر السابقين وقد حل محله مارسمة الخواطر من
مظاهر الحضارة التي سادت في هذا العصر .

(٢) وفي المعاني :

(أ) مجد ما ينم على ما بلغت الدولة الإسلامية من حضارة كانت لا تزال
إذذاك على شئ من النضارة ، وتدل بقاياها على الحد التالد فكانت المعاني حضرية
لبابها زخرف الحياة ومباهج الرياض ونحو ذلك .

(ب) رفوق هذه الألوان الباقية من الحضارة الإسلامية التي اصطبغت بها

أساليب التفكير وصور المعاني نجد مظاهر حضارة الفاطميين ومباهج حياتهم ونعيمهم ، فقد كان الشعراء يصوغون من مادة هذه الحضارة معاني يحملون بحباتها ولآلئها عقود قصائد لهم .

(ح) وإلى جانب كل هذا نجد أثر البيئة المصرية في بعض العبارات وفي ناحية من المعاني المتصلة بالحياة في مصر إذا ذاك وما كان يجتذب الخواطر ويقود القرائح ويمزج بالتفكير العام .

(٣) وفي الأغراض : نجد أن بعض الأغراض أصبح له الشأن البارز كالمدح ووصف الرياض ومظاهر البهجة ثم وصف الحفلات التي كان قيمها الخلفاء والأمراء في المواسم والأعياد ونلمح مبالغة وإسرافاً في بعض هذه الأغراض كما في المدح .

أما البواعث على القول فهي في الاغلب مناسبات ، وليس للبواعث الفطرية أو الوجدانية نصيب يذكر .

وعلى الجملة نجد أن الشعر ساير حياة البذخ التي كانت في عهد الفوطم وسار في ميادين التمجيد والإطراء ولبس من الديباجة والأسلوب نوبا يزدان بمظاهر الجمال والرشاقة وحسن الرونق ، ويتحلى بحلية من زينة اللفظ والمحسنات وألوان الصناعة البلاغية . ولعلك واحد فيما اقتبسنا أمثله لسلك هذا :

(وأما الكتابة) فإنك تجد فيها :

(١) الصناعة اللفظية . فالكتابة في هذا العصر تعتبر مرحلة متوسطة بين طريقة

ابن العميد وطريقة القاضي الفاضل . ففي مستهل عصر الفواطم كانت طريقة ابن العميد قد ذاعت وبدأ الكتاب يترسمون نهجها ، وفي أواخره ظهر القاضي الفاضل وانتشرت طريقته التي نضجت في العصر الأيوبي وكل هذا إنما هو حلقة من سلسلة

الطريقة التي يسميها بعضهم الطريقة (الكلاسيكية) وهي التي تعتمد على السجع وعلى باقي المحسنات .

(ب) ولعلنا لا نجد من أنواع المحسنات التي ظهرت في الكتابة في هذا العصر إلا نوعاً واحداً وهو السجع . ونلاحظ كذلك أنه ليس من السجع القصير الفقرات الذي كان من مميزات طريقة ابن العميد ، بل انه أقرب إلى الطول في كثير من الأحوال .

(ج) ونجد كذلك شيئاً من مظاهر التضمين والاستشهاد بالآيات القرآنية . هذه هي أهم الخصائص التي نجدها في أدب هذا العصر .

الدولة الأيوبية

(٥٦٧ — ٦٤٨ هـ)

قامت الدولة العباسية وكان الفرس من أقوى دعائمها وقد قطعت مراحل أربعة في الأولى كان نفوذ الخلفاء قويا ، وفي الثانية تغلب الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم ، وفي الثالثة امتلكت الزمام دولة شيعية وهي دولة بني بويه ، وفي الرابعة جاء الأتراك السلجوقيون وتغلبوا على الدولة البويهية واستولوا على العراق وأرمينية والشام ، وكانوا شديدي الغيرة على الإسلام يناصرون مذهب أهل السنة . وقد نشط في زمنهم الروح الديني وظهر كثير من خيرة المحاربين الذين أبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن الإسلام وظهرت أسرة الأتابكة وهي أسرة زنكي ، والأسرة الكردية وهي أسرة صلاح الدين الأيوبي . وكان لهاتين الأسرتين شأن عظيم في الدفاع عن الإسلام وعن الشرق ، وفي صد غارات الصليبيين في حروبهم التي شنوها على الشرق وعلى المسلمين .

وكانت الحروب الصليبية جارفة أقلقّت العالم الإسلامي وهددت عواصمه . ولكن الأبطال من السلاجقة وأسرتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ردوا الصليبيين على الأعقاب وصانوا الإسلام من غارات كانت تبغى محو أثره من الشرق .

والدولة الأيوبية من الأكراد ، وهم جيل من الآريين عاشوا بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى وقد امتازوا بفروسياتهم وأقدامهم وكرمهم ، وكانوا يشبهون العرب في عصبيتهم القومية وفي كثير من صفاتهم في الكرم والشجاعة .

ولد صلاح الدين سنة ٥٣٦ هـ في مدينة تكريت^(١) وكان والده نجم الدين

(١) هي قلعة حصينة على دجلة فوق بغداد في بر الموصل .

أيوب محافظاً بها من قبل بهروز^(١) وحدث في أثناء ولايته أن الأتابك^(٢) عماد الدين زنكي والد محمود نور الدين وصاحب الموصل سار بجيش لمعاونة السلطان مسعود على الخليفة المسترشد فانهزم عماد الدين ورجع إلى الموصل ، ولجأ إلى تكريت طالباً النجاة فأعانه نجم الدين وآواه فحفظ له عماد الدين هذه المنة . ولما أخرج بهروز نجم الدين وأخاه أسد الدين شيركوه رحلاً إلى عماد الدين فأكرم وفادتهما وظلا يعملان في جيشه وأظهرا من المقدرة والشجاعة ما أعلى نجمهما . ولما سقطت بعلبك في يد زنكي سنة ٥٣٤ هـ عين نجم الدين محافظاً عليها . وبعد موت عماد الدين ظل نجم الدين وأخوه أسد الدين يعملان في دولة ابنه محمود نور الدين . نشأ صلاح الدين في بلاط نور الدين وفي ظل دولته بين الأمراء والعظماء وتعلم الفروسية وتلقى ثقافته العربية والإسلامية على النهج الذي كان في عصره . ولما ضعفت الدولة الفاطمية بمصر اتجهت إليها إنظار نور الدين فأرسل إلى مصر حملات متعاقبة بقيادة شيركوه وقد انتهت بنصره فدخل البلاد وأقام ابن أخيه صلاح الدين حاكماً على الإسكندرية فأحسن الدفاع عنها .

ثم إن الخليفة العاضد آخر خلفاء الفواطم استدعى أسد الدين شيركوه وولاه الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش . وبعد موت شيركوه اختار الخليفة صلاح الدين للوزارة ولقب بالملك الناصر أبي المظفر .

وقد أبدى صلاح الدين في قيادة البلاد المصرية من الحكمة والحزم ولطف المعاملة ما حببه إلى المصريين فالتفوا حوله وشدوا أزره وحاربوا تحت لوائه ، على

(١) هو أبو الحسن مجاهد الدين خادم السلطان مسعود الساجوق . ولى إمرة المراق نيفساً وثلاثين سنة وله بها مآثر . وكلمة بهروز بكسر الباء معناها باللغة الفارسية يوم جيد .

(٢) « أتابك » لفظة تنارية مركبة من « أتا » ومعناها الأب ، « بك » ومعناها الأمير أو السيد وكانت تطلق في الأصل على مربى أولاد الملوك ثم استعملت لقباً لمن يتولى قيادة الجنود أو الصدارة بممالك العراق وإيران . وأول من تلقب بهذا اللقب عماد الدين زنكي (راجع كتاب حقائق الأخيار ج ٢ ص ١٥٨ في الهامش .)

ما هنا لك من اختلاف في المذهب فقد كان صلاح الدين سنياً تابعاً لخليفة بغداد
والمصريون ظلوا نحو قرنين تحت حكم الفاطميين . ثم أقام له بمصر دولة مستقلة
ومنع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة ودعا للخليفة العباسي .

وقد أبلى صلاح الدين في حرب الصليبيين أحسن البلاء وعنى بتحصين
القطر المصري وتنظيم شؤنه . وقد امتد ملكه وفتوحه إلى الشام وفلسطين ،
وكان انتصاره على الصليبيين باعثاً على رفع مكانته في العالم الإسلامي فاتجهت
إليه الأنظار وتعلقت به القلوب في سائر الأقطار . واقد كان له من نبيل الصفات
وعالي الهمة وعظيم المروءة ما بعث على الإعجاب به وجعله مثالا للشهامة والعدل
وكرم الخلق . وقد وصفه ابن شداد في سيرته فقال ^(١) .

« كان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على
الدليل بالبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وفهم من ذلك ما يحتاج إلى
تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن
بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق منهم
النظر إلى التعطيل والتزويج ، جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر
الصحيح مرضية عند أكابر العلماء . وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري ^(٢)
عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها
الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم » ثم قال : « وكان رحمه الله خاشع
القلب رقيقه غزير الدمع إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته .
وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي رواية

(١) راجع كتاب سيرة صلاح الدين المسمى النوادر السلطانية ص ٥ .

(٢) هو أبو المعالي مسعود بن محمد الفقيه الشافعي تفقه بنيسابور ومرو على أئمتها وقدم
بغداد ودشق ووعظ بهما ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس بها ثم إلى همدان (ابن خلكان
ج ٢ ص ١٢٠) .

عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه . تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة .

وقد تولى الملك بعد صلاح الدين من خلفه من أولاده فنهجوا نهجه إلى حد ما وكانوا عدة في الدفاع عن الشرق ورد غارات الصليبيين . وانتهت دولتهم باستيلاء المماليك سنة ٦٤٨ هـ .

الثقافة في عصر الأيوبيين

لم تكن الحروب الصليبية شاغلا للأيوبيين عن العناية بالعلوم والمعارف ، فقد اهتم صلاح الدين بالإكثار من المدارس لنشر المذهب السني ، قال ابن خلكان ^(١) :

لما ملك السلطان صلاح الدين الدولة المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فإن الديار المصرية كان مذهبها مذهب الامامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء . فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وبني مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما وجعل عليها وقفا كبيرا وجعل دار سعيد السعداء ^(٢) خادما للمصريين خانقاه ^(٣)

(١) ج ٢ ص ٥٣٢

(٢) سعيد السعداء هو خادم الخليفة المستنصر الفاطمي وله جامع باسمه في شارع الجمالية وهو أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر . والمحنون هم الذين يديرون عمامهم على أحناكهم كما جاء في صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨١ .

(٣) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خونتقا ، أو الموضع الذي يأكل فيه الملك . وقد أنشئت الخوانق ليقوم الصوفية فيها بعبادة الله (المقرئى ج ٢ ص ٤١٤) .

ووقف عليها وقفا طويلا وجعل في دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية^(١) وعليها وقف كبير أيضاً والمدرسة المعروفة بزين التجار^(٢) وقفا على الشافعية وقفها جيد أيضاً. وبني بالقاهرة داخل القصر مارستانا^(٣) وله وقف جيد وله مدرسة بالقدس أيضاً وقفها كبير وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية ثم قال: «ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب اليه في الظاهر، فان المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضاً إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً لا يقولون إلا مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة. وهذه النعم من ألطف الله تعالى به. وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداورة وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن اليهم وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه».

وقد أنشأ الأيوبيون مدارس أخرى منها المدرسة السكلمية^(٤) بين القصرين

(١) قال المقرئ في الكلام على المدرسة السيوفية: هذه المدرسة وقفها السلطان صلاح الدين على الحنفية. وهي التي تعرف اليوم بجامع الشيخ مطهر بالسكة الجديدة، وسميت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كانت في ذلك الوقت على بابها.

(٢) قال المقرئ لأن هذه المدرسة عرفت أولاً باسم المدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين التجار وهو أبو العباس أحمد بن المظفر أحد أعيان الشافعية ثم عرفت بالمدرسة الشريفة (ج ٢ ص ٣٦٣).

(٣) المارستان أو اليمارستان كلمة أعجمية معناها بيت المرضى وهو المستشفى. وقد أشار إلى هذا المارستان المقرئ (ج ١ ص ٤٧).

(٤) المقرئ ج ٢ ص ٣٧٥

أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب سنة ٦٢٢ ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى . وتعرف الآن باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل بجوار جامع برقوق من الجبهة البحرية ، والمدارس الصالحية ^(١) أنشأها الصالح أيوب بين القصرين في القاهرة وغير هذا مدارس كثيرة ^(٢) .

وبعد أن ورث صلاح الدين قصور الفاطميين ودخائهم وخزائنهم عهد في أمر الكتب التي كانت لهم إلى القاضي الفاضل وأمره بالاحتفاظ بما هو صالح . أما الكتب التي كانت تبحث في عقائد الشيعة ومذاهبهم فقد أتى على أكثرها الفناء والضياع والإبادة كما أشرنا إلى ذلك في عصر الفواطم .

هذا وما يجدر بنا الإشارة إليه بصدد الثقافة في عصر الأيوبيين ما كان لاختلاط الصليبيين بالشرق من أثر في النواحي العقلية والاجتماعية ، فقد كان الامتزاج ينشط بين العنصرين في أوقات المهادنات بين الطرفين المتحاربين ، وأكثر آثار هذا الاختلاط كانت في بلاد الشام وما جاورها حيث كان للصليبيين التغلب في بعض الأحيان . ولعل لهذه الظاهرة بعض الأثر في الصبغة الثقافية في هذه الأقاليم وفي الفرق بين نزعاتها ونزعات الأقطار التي لم تصل إليها أقدام الصليبيين .

الأدب في عصر الأيوبيين

كان للأدب في عصر الأيوبيين دولة ، وكان للغة العربية وآدابها شأن . فإن الأيوبيين وإن لم يكونوا عربا بنفسهم كانوا عربا بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم . فقد نشئوا في أحضان العربية وامتزجوا بعناصر عربية وإسلامية فكان لهم ميل إلى العربية واستعداد لتذوقها وتشجيع آدابها وتقريب شعرائها وكتابها ، وكانت هباتهم جزيلة ، وعطاياهم حافلة مغرية ، فنشط الشعراء والأدباء في عهدهم ، وحفلت المجالس بهم ، وكثرت مطارحاتهم وتراسلهم .

(١) المقرئى ج ٢ ص ٣٧٤

(٢) راجع المقرئى وغيره .

الشعر :

لعل الشعر هو الظاهرة الأدبية التي توضح طابع العصر وتصور نزعاته النفسية واتجاهاته الوجدانية . ولقد كان الطابع الذي طبع به عصر الأيوبيين هو الجهاد في الدفاع عن الإسلام وعن الأقطار الشرقية ، وكان ذلك مكملا بالنصر ، فعمت نشوة الظفر ، وتطلع الشعراء في جميع الأمصار الإسلامية إلى أبطال الحروب والمدافعين عن حمى الإسلام والتفوا حولهم وغمروهم بمدائحهم ومظاهر إعجابهم ، وتجلت في أقوالهم ألوان من التنويه بالبطولة والطرب للفتح والانتصار .

وقد هزت هذه الانتصارات قلوب الشعراء في جميع الأمصار العربية في مصر والشام والعراق وغيرها، وانطلقت ألسنتهم مرددة ما طرقت أسماعهم من أخبار الظفر وأحاديث الانتصار مترنمة بالبطولة التي ذاع أمرها ولعلت بروقها فأضاءت القلوب وأحيت الآمال بعد أن كادت هجمات المغيرين تفرق شملهم وتذهب بهم وبمجدهم .

وقد كثر الشعراء في هذا العصر وكانت لهم مجالس وحلقات يستعرضون فيها آثارهم وما تجود به قرائنهم ، ويتبادلون القول، ويتجاذبون أطراف الأدب . ومما ساعد على نشاط الشعر ورواجه أن صلاح الدين كان ذا مقدرة على وزن القول وتمييز جيده ، وكان إلى جانب ذلك سخيا يجود بالمال ويجزيل الهبات ، فرغب الشعراء في خيره كما أعجبوا ببطولته ، وقد كان كثير من شعراء الأقطار الإسلامية يبعثون بقصائدهم إلى بطل الإسلام وأنصاره ، إذا لم تيسر لهم السبل للرحيل بأنفسهم .

الكتابة في عصر الأيوبيين :

أصبحت الكتابة في هذا العصر وفي العصور التي اكتنفته من شعائر الدولة ومن أوضح مظاهرها ، وكانت العربية الصحيحة من أبرز صفاتها ، وكان

لكتاب الإنشاء مكانة في الدولة بين وزرائها وأمرائها وصلة بالخليفة وجميع شئون الدولة . وكان صاحب الإنشاء في منزلة رفيعة .

قال صاحب صبح الأعشى في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ^(١) ما يأتي :
« أما رفعة محله وشرف قدره فأرفع محل وأشرف قدر ، يكاد ألا يكون عند الملك أخص منه ولا ألزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك في كل زمن مقدما لديهم على ماعداه ، يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ، وناهيك برتبة هذا محلها . قال صاحب ^(٢) مواد البیان : ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ولاغنى له عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهمات وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه ، ومحله منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محل قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يفتتح ويراجعه في مهم تديره حتى يتضح ، ولسانه الذي يقرر بترغيبه أوليائه على الطاعة والموافقة ، ويقر بأوامره ونواهيه أمور سلطانه ، وينزلها منازلها في متمد مجالسها ويتمكن من سياسة أجناده وعمارة بلاده ومصلحة رعيته واجتلاب مودتهم واستخلاص نياتهم ، وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه ، ويرعيها مهمات شأنه ، وأذنه التي يثق بما وعته ، ولا يرتاب بما سمعته ، ويده التي يبسطها بالإيعام ، ويبطش بها في النقص والإيرام »
وقال في حالات ديوان الإنشاء في الديار المصرية ^(٣) :

« الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بني أيوب إلى آخر انقراضها :

(١) ج ١ ص ١٠١

(٢) هو علي بن خلف من كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية كما تقدم .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

قد تقدم أن القاضى الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدى الموفق ابن الخلال فى وزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبنى العباس فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيها جميعاً ، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر ثم مات . وكتب للكمال بن العادل القاضى أمين الدين سليمان المعروف بكتاب الدرج إلى أن توفى . فكتب بعده للكمال الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة ، وتوالت كتاب الإنشاء فى الولاية إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب فولى ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه وولى بعده صاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان فبقى إلى انقراض الدولة الايوبية .

والطابع الذى طبعت به الكتابة الإنشائية فى هذا العصر هو أسلوب القاضى الفاضل . وسنذكر أصول طريقته وموجز سيرته .

(القاضى الفاضل) سنة ٥٣٩ - ٥٦٩

هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين العسقلانى المولد المصرى الدار المعروف بالقاضى الفاضل . كان وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد برع فى صناعة الإنشاء . قال العماد الأصفهاني عنه فى كتاب الخريدة :

« رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ماسمع فى الأوائل ممن لو عاشوا فى زمانه لتعلق بغبارة ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية ، التى نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يبتدع الأفكار ويطلع الأنوار ويمدع الأزهار ، وهو ضابط الملك بأرائه ورباط السلك بلائله ، إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة مالدون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قس من فصاحته وأين قيس فى مقام حصافته ومن حاتم وعمرو فى سماحته وحماسته . »

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان^(١) فلما هذا نسبوه إليها . وقدم مصر وهو شاب في أواخر الدولة الفاطمية .

قال ابن خلدكان في ترجمة ابن الخلال^(٢) نقلا عن كتاب الوشى المرقوم لابن الأثير الجزرى : « حدثني القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهاساني رحمه الله بدمشق في سنة ٥٨٨ وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية فقال : كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غصاً طرياً . وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقوم لسلطانة بقلمه سلطاناً ، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع أشياء من علم الأدب . فأرسلني والدي ، وكان إذ ذاك قاضياً بنجر عسقلان ، إلى الديار المصرية في أيام الحافظ وهو أحد خلفائها ، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذي ترأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبني رحب بي وسهل ، ثم قال لي ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ ثم أمرني بملازمته فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فخللته من أوله إلى آخره ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فخللته » .

وبعد وفاة والده توجه إلى نجر الإسكندرية وذكر عند ابن حديد قاضي المدينة فعرفه بوالده فعرفه بالسمعة واستكتبه ، وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطه وهي غاية في البلاغة فحسده كتاب الإنشاء على فضله ، وخافوا تقدمه عليهم فسمعوا إلى الخليفة به ، وقالوا انه قصر في المكاتبة ، وكان صاحب

(١) مدينة بالاردن .

(٢) ج ٢ ص ٥٣٩ .

ديوان الإنشاء القاضي ابن الزبير^(١) فقال يامولاي : هذا الرجل ما منه تقصير وإنما حسده هؤلاء الكتاب ، وسعوا به ليؤذيه مولانا ، فقال الخليفة : فنكتب إلى ابن حديد ليرسله إلينا ويكتب لنا ، قال ابن نباته وكنت بعد ذلك في مجلس الخليفة فرأيت القاضي الفاضل قد حضر وهو قائم بين يديه ثم استخدمه .

وقد اتصل القاضي الفاضل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وترقى في منزلته عنده . وبعد وفاته استمر على ما كان عند ولده العزيز في المسكنة والرفعة ونفاذ الأمر . ولما توفي العزيز قام ولده المنصور بالملك بتدبير عمه الملك الأفضل نور الدين وكان أيضاً على حاله ولم يزل كذلك إلى أن وصل الملك العادل وأخذ الديار المصرية . وعند دخوله إلى القاهرة توفي القاضي الفاضل سنة ٥٩٦ هـ بالقاهرة فجأة ودفن بسفح المقطم^(٢) .

طريقته في الكتابة :

للقاضي الفاضل طريقة تنسب إليه وقد بناها على طريقة ابن العميد وحليته ولكنها تمتاز بالإكثار من أنواع البديع والاستعارات والتأنيق البياني والميل إلى الإطناب والترادف والمغالاة في الجناس والتورية ، وقد مر بك في أدوار الكتابة أنها بعد المراحل التي قطعتها أصبحت صناعة وأصبح الزخرف والجمال الخيالي شعارها ، وإن المرحلة التي وصلت إليها في عهد القاضي الفاضل هي تدرج في الأساليب المبنية على التأنيق والمغالاة في ألوان الزخرف اللفظي . وقد خلبت هذه الطريقة ألباب الكتاب فأغرموا بها وذاعت في مصر ثم انتقلت منها إلى بعض الأقطار الأخرى .

وقد شملت الصناعة اللفظية الرسائل بأنواعها واصطبغت بها كذلك المؤلفات العلمية كما في كتاب الفتح القسي للعماد الاصبهاني .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٤

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٧

وظلت أساليب الكتابة تجرى على غرار الطريقة الفاضلية حقبة من الزمن وأغرم بها الكتاب وأسرفوا في الإعجاب بها والتعلق بأذيالها ، حتى صارت الكتابة ظواهر براقه ونسجا واهياً ، وألفاظا مرصوفة تتعثر فيها المعاني الجوفاء ، فيبدو الاسلوب متكلفا مملواً بألوان الصناعة والطلاء الظاهري .

(مصطلحات الكتابة وأساليب المكاتبات)

كان للمكاتبات الديوانية في الدولة الأيوبية أساليب خاصة في ديباجتها وأوائلها وقد أشار صبح الأعشى إلى شيء من ذلك^(١) نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أحد كتاب الدولة الأيوبية في أواخرها فقال :

(إن الناس كانوا لا يكتبون « المجلس » إلا للسلطان خاصة ، ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم « الحضرة » ، ثم أفردوا السلطان بالمقام والمقر ، وصاروا يكتبون المجلس لمن دونه ، وإذا كتب السلطان لمن هو دونه من ذوي الأقدار عبر بالمجلس السامي ولا يزداد على ذلك . ثم يفرد عن النسب بعد السامي فيقال الأمير الأجل من غير ياء النسب . ولا يقال العالی مكان السامي في الكتابة عن السلطان ، وقد يجمع بينهما لذوى الأقدار ، ويضاف في نعت كل أمير « عمدة الملوك والسلاطين عز الإسلام أو نصرة الإسلام أو فارس المسلمين » أو ما شابه ذلك . ويقال عمدة الملوك أو السلطين وعمدة الملوك والسلطين وذخر الملوك . ودونها « اختيار الملوك » . وللاقارب فخر الملوك وجمال الملوك وعز الملوك وزين الملوك وللأماثل معين الملوك ونصرة الملوك ، ويكتب للأمرء الأعيان حسام أمير المؤمنين وصنيعة أمير المؤمنين . . . إلى غير ذلك من مختلف الألقاب) .

ثم أشار صاحب صبح الأعشى إلى مشهور مكاتباتهم وقال إنها أربعة أساليب : أن تفتح المكاتبة بالدعاء للمجلس أو الجنب ، وأن تفتح بلفظ الاصدار ، وأن تفتح بلفظ « هذه المكاتبة إلى المجلس » ، وأن تفتح بلفظ « كتابنا » .

وقد تكلم صاحب الأعرشي^(١) كذلك عن مكاتبات الملوك إلى خلفاء
بنى العباس في أواخر دولتهم وأشار إلى أساليب ستة لهذه المكاتبات واستشهد
بطائفة مما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الأيوبي ، وتجد فيها أنواعا مختلفة
من أساليب الرسائل في هذا العصر .

وهذه المصطلحات وأشباهاها مما لازم المكاتبات الديوانية في عصور مختلفة
وقد فصلها ككتاب ديوان الإنشاء فيما أثر عنهم من مؤلفات .

* * *

وإنا نذكر نماذج من الشعر والنثر تمثل ما أوظفناه بعد أن نسوق تعريفا موجزا
بأشهر الأدباء .

(العماد الأصبهاني^(٢)) ٥١٩ — ٥٩٧

هو ابن عبد الله محمد بن صفى الدين ، كان فقيها شافعي المذهب ، نشأ بأصبهان
وقدم بغداد في حداثة وتفقه بالمدرسة النظامية وأتقن فنون الأدب . ولما تخرج
ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد^(٣) فولاه النظر بالبصرة ثم
بواسط . ولما توفى ابن هبيرة انتقل العماد إلى دمشق سنة ٥٦٢ وسلاطنها الملك العادل
نور الدين محمود بن زنكي ، ومتولى أمورها وتدير دولتها القاضي كمال الدين
محمد بن الشهر زورى^(٤) . فتعرف به وحضر مجالسه وعرف الأمير نجم الدين أيوب
والد صلاح الدين وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريت فأحسن إليه
وأكرمه وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده .

ثم إن القاضي كمال الدين نوه بذكره عند السلطان نور الدين وعددله فضائله

(١) ج ٦ ص ٤٩٥

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٩٧

(٣) راجع ترجمته في ابن خلكان ج ٣ ص ٣٢٦

(٤) راجع ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٥٩٧

واستعداده لكتابة الإنشاء ، وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام ، وعلت منزلته عند نور الدين وصار صاحب سره ، وسيره إلى بغداد رسولا في أيام الخليفة المستنجد ، ولما عاد فوض إليه التدريس بدمشق . وبعد وفاة نور الدين اتصل بصلاح الدين وقصد خدمته ، ثم استمر يغشى مجالسه وينشده المدائح حتى نظمته في سلك حاشيته واستكتبه واعتمد عليه وقر به فصار من جملة الصدور المعدودين يضاهى الوزراء ويجرى في مضمارهم . وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويقوفر على مصالح الديار المصرية . والعماد ملازم للباب بالشام وغيره .

وله مؤلفات كثيرة منها : خريدة القصر وجريدة العصر ، والبرق الشامي ، والفيح القسي في الفتح القدسي وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات (البهاء زهير) ٥٨١ - ٦٥٦

هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد من فضلاء عصره وأحسنهم نظما ونثرا وخطا ، ومن أكبرهم مروءة . كان قد اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ورافقه إلى الشام والجزيرة ، وظل ممتعيا إليه حتى ملك الديار المصرية فقدم إليها في خدمته سنة ٦٢٧ .

قال ابن خلدان : وكنت يومئذ مقما بالقاهرة وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه . فلما وصل اجتمعت به ورأيت به فوق ماسمعت عنه من مكارم الأخلاق ودمائه السجايا . وكان متمكنا من صاحبه كبير القدر عنده لا يطلع على سره الخفي غيره . ومع هذا كله كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقا كثيرا بحسن وساطته وأنشدني كثيرا من شعره (١) .

أما شعره فيتجلى فيه الميل إلى الوضوح والسهولة واطراح التكلف وهو ينزع إلى مطاوعة فطرته وتلمية سجيته ، ويسير في غزله معبرا عما يختلج بين الجواشع ،

ولا يسلك ذلك المسلك الصناعى الذى درج عليه بعض الشعراء . ونرى فى أسلوبه مرونة وبعدا عن الجمود واجتناباً لمظاهر الصناعة البديعية . وهو فوق هذا صورة صادقة لما كان عليه الطبع المصرى فى عصره .

(ابن مطروح) ٥٩٢ — ٦٤٩

هو أبو الحسن يحيى بن عيسى بن مطروح من أهل صعيد مصر ، نشأ بقوص وتنقلت به الأحوال ثم اتصل بخدمة الملك الصالح أيوب ، وكان إذ ذاك نائباً عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية .

وكانت له خلال حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق المرضية . قال ابن خلكان : ^(١) وكان بينى وبينه مودة أكيدة ومكاتبات تجرى فيها مذاكرات أدبية لطيفة . وكان بينه وبين البهاء زهير صحبة قديمة ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وبينهما مكاتبات بالأشعار .

(ابن النديم) توفى سنة ٦١٩

هو كمال الدين على بن محمد . مدح بنى أيوب واتصل بالملك موسى ^(٢) بن الملك العادل بن أيوب ، وكتب له الإنشاء . وشعره مملوء بألوان البديع وأنواع الصناعة اللفظية . ولكن رائق الديباجة قوى النسج عذب رقيق .

(علم الدين ايدمر)

قال عنه صاحب نوات الوفيات ^(٣) نقلاً عن ابن سعيد : « نشأ فى الدوحة السعيدية فنمت أزاهره ، وطلع بالسماء البيانية فتمت زواهره ، جمعت لأفئانه أنواع الفنون والفهوم ، حتى خرج آية فى كل فن وبرع فى المنثور والمنظوم ، مع الطبع الفاضل الذى عضده ، وبلغه من رياسة هذا الشأن ما قصده ، لاسيما حين سمعت قوله الذى أتى فيه بالاغراب ، وترك مهيار معلقاً منه بالأهداب »

(١) ج ٢ ص ٣١١

(٢) راجع ترجمته فى ابن خلكان ج ٢ ص ١٨١

(٣) ج ١ ص ٧٦

وقد نشأ في عصر الدولة الأيوبية في أوائل القرن السابع^(١) وعاصر بهاء الدين زهيراً وجمال الدين بن مطروح وغيرها من أدباء الدولة الأيوبية . وقد طبع مختار ديوانه بدار الكتب المصرية .

(ابن الساعاتي) توفي سنة ٦٠٤

هو أبو الحسن علي بن رستم شاعر مبرز في حلبة المتأخرين . ولد بدمشق ، وتوفي بالقاهرة .

(ابن سناء الملك) توفي سنة ٦٠٨

هو القاضي السعيد هبة الله الشاعر المصري . كان وافر السعادة محظوظاً في الدنيا ، واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء الجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاهات ومحاورات يروق سماعها وكان هو واسطة عقدها^(٢)

(ابن الفارض) ٥٧٦ - ٦٣٢ هـ

هو عمر بن الفارض المصري الموند والدار والمثوى . كان صالحاً ورعاً إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، وإذا حضر مجلساً استولى السكون على من فيه ، ويمتاز شعره بأنواع البديع ، وهو ينحرف فيه منحنى الصوفية ، وكان يكثر من نعت الخمر ومن الغزل يريد بذلك الذات الإلهية على طريقة الصوفية . ومن شعره تائيتان كبيرى وصغرى تبلغ الأولى ستمائة بيت ، والثانية تناهر المائة ، وفيها من أغراض الصوفية وطرقهم شيء كثير .

(ابن التعاويذي) ٥١٩ - ٥٨٤

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله كان أبوه مولى لبنى المظفر ، والتعاويذي نسبة إلى التعاويذ جمع تعويذة وهي الحرز اشتهر بها جده لأمه ، وقد نسب إليه لأنه كفله صغيراً . قال عنه ابن خلكان : « كان شاعر وقته لم يكن فيه مثله ،

(١) راجع مختار ديوانه .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٩

جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها، ورقة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحسن والخلوة، وفيما أعتقده لم يكن قبله بماتى سنة من يضاھيه ^(١) « وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد وعمل في أواخر عمره سنة ٥٧٩ وله في عماء أشعار يرثى بها عينييه ويندب شبابه . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل عماء وعمل خطبة ظريفة قدمه بها . وقد مدح من خلفاء بني العباس المستضيء والناصر ومدح صلاح الدين الأيوبي والقاضي الفاضل . وقد ذكر العماد الأصفهاني في خريدته أن ابن التعاويذي كان صاحبه لما كان بالعراق فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بخدمة صلاح الدين كتب إليه ابن التعاويذي يطلب فروة وأرسل إليه رسالة ظريفة وقصيدة ^(٢) وقد كتب إليه العماد جواب القصيدة ثم قال في حقه : « هو شاب فيه فضل وآداب ورياسة وكياسة ومروءة وفتوة . جمعني وإياه صدق العقيدة في عقد الصداقة وقد كملت فيه أسباب الظرف واللفظ واللباقة » .

وشعراء هذا العصر وأدباؤه كثير تجد أخبارهم في كتب الأدب والتاريخ .

وهاك بعض النماذج :

قال العماد الأصفهاني ^(٣) : أول ما أهديت للقاضي الفاضل مدحة حين

لقيته بمحمص :

عائنت طود سكيننة ورأيت شم	س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحباً	ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قسا في الفصاحة والسماء	حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه	طامى العباب وماله من ساحل
وجميع ما في الأرض سبعة أبجر	وبحسوره تسعى بهشر أنامل

(١) ج ٢ ص ٢٥

(٢) تجدد الرسالة في ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨ والقصيدة في ديوانه ص ٤٥٣

(٣) راجع كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥١

في كفة قلم يعجل جريه
 يجرى ولا جرى الحسام إذا جرى
 نابت كتابته مناب كتيبة
 فعدوه في عدوه وولييه
 ريان من ماء التقى صاد إلى
 يا واحد العصر الذي بذ الوري
 مالى وجاه الجاهلين فأغنى
 أرجوك معنياً لدى السلطان بي
 قرر لي الشغل المبجل مخليا
 قال: فدخل إلى السلطان وعرفه أنه في راغب وقال أنا لا يمكنني الملازمة
 الدائمة في كل سفرة ، وغداً تكتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى في الملك عن
 عقد اللطفات وحل التراجم ، والعماد يفي بذلك ولك اختاره ، وقد عرف في
 الدولة النورية مقداره ، وأخذ لي خط السلطان بما قرر لي من شغلي وقد عرف
 أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي .

وقال يهنىء السلطان صلاح الدين بفتح القدس :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
 وأسأل عنكم عافيات دوارس
 أرى حدثان الدهر ينسى حديثه
 تزول الجبال الراسيات وثابت
 فلا تحبسوا غنى الجميل فإنني
 رأيت صلاح الدين أفضل من غدا

وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
 وقيل لنا في الارض سبعة أبحر
 ولسنا نرى إلا أنامله الخمسة

سجيته الحسنی وشيمته الرضا وبطشته الكبرى وعزمته القعسا
 فلا عدمت أيا منسا منه مشرقا ينير بما يولى ليالينا الدمسا
 جنودك أملاك السماء وظنهم عداتك جن الأرض في الفتك لا الإنسا
 فلا يستحق القدس غيرك في الورى فأنت الذى من دونهم فتح القدس
 وقال في رجوع السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى مصر (١) :

لما استقمت للسلطان بالشام أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره ومسالكه
 أزمع إلى مصر الإياب ، وقد أحلت من بعده من جود جود (٢) السحاب ،
 وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلى فما نزلت منزلا إلا نظمت أبياتا ، فنظمت في
 طريقى إلى مصر القصيدة الآتية :

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر ولكن لمقدور أتيح من الأمر
 وأعلم أنى مخطئ فى فراقكم وعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى
 أرى نوباً للدهر تحصى ولا أرى أشد من الهجران فى نوب الدهر
 بعينى إلى لقياس سواكم غشاوة وسمعى من نجوى سواكم لذو وقر
 وقلبي وصبرى فارقانى لبعدمكم فلا صبر فى قلبى ولا قلب فى صبرى
 وإنى على العهد الذى تعهدونه

وسرى لكم سرى وجهرى لكم جهرى
 تجرعت كأس الهم من كأس شوقكم
 وها أنا فى صحوى تريف من السكر (٣)

وإن زمانا ليس يعمّر موطنى بسكنناكم فيه فليس من العمر
 أسير إلى مصر وقلبنى أسيركم ومن عجب أسرى وقلبنى فى أسر

...

(٢) الجود المطر الغزير .

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) تريف : منعم ومترف .

وقال : وكان الدخول إلى مصر بالزى الأجمل والعز الأكمل ، وتلقى
السلطان أخوه ونائبه الملك العادل وتلقانا خير مصر ووصلت إلينا ثمراتها وجلية
عليها زهراتها فظهر بنا نشاطها وزاد اغتباطها ، ودخل السلطان داره ووفق الله في
جميع الأمور بإرادته وإصداره .

ثم قال : وتوفرنّا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني ، والتنزه في الجزيرة
والجزيرة والأماكن العريضة ، ومنازل العز والروضة ودار الملك ، والنيل والمقياس
ومراحي السفن ومجاري الفلك ، ورواية الأحاديث النبوية والمباحثة في المسائل
الفقهية والمغاني الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضي ضياء الدين أن يفرجنا في
الأهرام فقد شغفنا بأخبارها في الشام ، فخرج بنا إليها ودار بنا حوالها ودرنا في
تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري ، وهالنا أبو الهول ، وضاق في وصفه
مجال القول ، ورأينا العجائب وروينا الغرائب ، واستصغرنا في جنب الهرمين
كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه ، فكل يأتي في وصفها بما
نقله لا بما عقله ، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله^(١) ، وحارت
العقول في عقوده ، وطارَت الأمسكار عن توهم حدوده ، فياله من مولود للدهر قبل
الطوفان انقضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمار الأخبار تذكر حديث
أحداث عاده وثموده ، ويدل إحكامه وعلوه على همه بانيه في بأسه وجوده ،
وإن في الأرض الهرمين ، كما أن في السماء الفرقدين وهما كاطودين الراسخين
وكالجبلين الشائخين ، وقد فنيت الدهور وهما باقيان ، وتقاصرت العصور وهما
واقيان ، وكأنهما لأم الأرض ثديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، ولسلطان العالم
علمان وإلى مراقي الأملاك سلطان وهما ليل والنهار رقيبان ، ولرضوى ولشمام^(٢) ،
نسيبان ، ومن زحل والمريخ قريبان ولعوادي الخطوب خطيبان ، ولشور الفلك روقان

(١) توقل في الجبل : صعد فيه .

(٢) رضوى وشمام جبلان .

ولشخص الكرة الترابية ساقان .

وكان بين العماد الأصبهاني وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف^(١) .
فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوما وهو راكب على فرس فقال له : سر فلا
كبابك الفرس . فقال له الفاضل : دام علا العماد . وهذا مما يقرأ طرداً وعكساً .
واجتمعوا يوما في موكب السلطان وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد
الفضاء ، فأنشد العماد في الحال :

أما الغبار فإنه مما أثارته السنابك
والجو منه مظلم لكن أثارته السنابك
يا دهر لى عبد الرحيم لم فليست أخشى من نابك^(٢)

وقال يرثى السلطان صلاح الدين في قصيدة طويلة منها :

شمل الهدى والملك عم شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا مبدولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى لله خالصة صفت نياته
أين الذى ما زال سلطانا لنا يرجى نداءه وتتقى سطواته
أين الذى شرق الزمان بفضلته وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى غنت الفرنج لبأسه ذلا ومنها أدركت ثاراته

ومنها :

فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان رب العرش بل صلواته
اضريحه سقيا السحاب فان يغب تحضر لرحمة ربه سقياته

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٩٩

(٢) السنابك في البيت الأول : جم سنبك وهو طرف الحافر . والسنابك في البيت الثاني :

السنابك هو البرق . وبك جار ومجرور .

من للشغور وقد عداها حفظه من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوامر والصواهل إذ خلت من سبلها وركوبها غزواته
وقال البهاء زهير يمدح السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب :
وعد الزيارة طرفه المتملق وتلاف قلبي من جفون تنطق
إني لأهوى الحسن حيث وجدته وأهيم بالقدر الرقيق وأعشق
وبليتي كفل عليه ذؤابة مثل السكيب^(١) عليه صل مطرق
يا عاذلي أنا من سمعت حديثه فعساك تحنو أو لعلك ترفق
لو كنت منا حيث تسمع أو ترى لرأيت ثوب الصبر كيف يمزق
ورأيت ألطف عاشقين تشاكيا وعجبت ممن لا يحب وبعشق
أيسومني العذال عنه تصبرا وحياته قلبي أرق وأشقق
إن عنفوا إن خوفوا إن سوفوا لا أنثى لا أنتهى لا أفرق
أبدأ أزيد مع الوصال تلهفا كالعقد في جيد المليحة يعلق
ويزيدني تلفاً فأشكر فعلاه كالمسك تسحقه الأكف فيعبق
يا قاتلي إني عليك لمشفق يا هاجري إني إليك لشيق
وأذاع أني قد سلوتك معشر يا رب لا عاشوا لذاك ولا بقوا
ما أطمع العذال إلا أني خوفا عليك إليهم أتملق
وإذا وعدت الطرف فيك بهجة فاشهد على بأنني لا أصدق
فعلام قلبك ليس بالقلب الذي قد كان لي منه الحب المشفق
ولقد سمعت إلى العلاء بهمة تقضى بسعي أنه لا يخفق
وسريت في ليل كأن نجومه من فرط غيبتها إلى تحرق
حتى وصلت سراق الملك الذي تقف الملوك ببابه تسترزق
ووقفت من ملك الزمان بموقف ألفت قلب الدهر فيه يخفق

(١) السكيب : التل من الرمل . والصل بالكسر : الحية .

فإليك يا نجم السماء فإني
الصالح الملك الذى لزمانه
ملك يحدث عن أبيه وجده
سجدت له حتى العيون مهابة
رحب الجناح خصيبة أكنافه
ومنها :

قيدت فى مصر إليك ركائبي
وحلات عندك إذ حلت بمعقل
وتيقن الأقوام أنى بعدها
فرزقت ما لم يرزقوا ونطق ما
وقال فى المشيب :

فقد انجلى ليل الشبا
ورأيت فى أنواره
وقال :

أنا فى الحب صاحب المعجزات
كان أهل الغرام قبلى أمية
فأنا اليوم صاحب الوقت حقاً
ضربت فيهم طبولى وصارت
خلب السامعين سحر كلامى
أين أهل الغرام أتلو عليهم
ختم الحب من حديثي بمسك

جئت للعاشقين بالآيات
ين حتى تلقنوا كلماتى
والحجون شيعتى ودعائى
خافقات عليهم راياتى
وسرت فى عقولهم نفشائى
باقيات من الهوى صالحات
رب خير يحىء فى الخاتمات

خذوا حذرکم من طرفها فهو ساحر
فإن العيون السود وهى فواتر
ولا تتخذوا من رقة فى كلامها
منفعة لو صادف الورد خدها
من القاصرات الطرف غارت لحسنها
فلو فى السكرى مر النسيم بطيفها
قلائدها تشكو الظما ووشاحها
بعيدة ما بين الخلد والطلی
إذا ما انتهى الخلد أخبار قرطها
ويا عاذلى بالله ما أنت عاذر
أعن قدها ثنى یدى وهو أهيف

ولیس بناج من دهته الحاجر
تقد السيوف البيض وهى بواتر
فإن الحميا للعقول تخامر
بكت وجرت من مقلتيها بوادر
ضرائرها والنيرات الضرائر
سرى رائدا من طيبها وهو عاطر
وإن شرقت من معصمها الأساور
ترى الطرف عنها ينثنى وهو حاسر^(١)
فياطيب ما تملى عليه الضفائر
أعن مثل هذا الحسن تنثى النواظر
وعن فمها تحمى فى وهو عاطر

* * *

ولما أراد الفرنسيس^(٢) العود إلى دمياط قال فى ذلك ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ریح
فساقت الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح

(١) الطلى : الاعناق .

(٢) يريد ملك الفرنج لويس التاسع الذى أسره توران شاه بعد انتصاره على الصليبيين فى واقعة دمياط وحبسه فى دار ابن لقمان يحفظه الطواشى جمال الدين صبيح المظفى وهى دار الحكومة التى كان ينزل بها القاضي نقر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الانشاء كلما جاء المنصورة فى عمل يتعلق بوظيفته .

(النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٦) (المقرئى ج ١ ص ٢٢٢) .

وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بظن الضريح
 خمسون ألفا لا ترى منهم إلا قتيلا أو أسيرا جريح
 وفقك الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريح
 إن كان باباكم بهذا راضيا فرب غش قد أتى من نصيح
 وقل لهم إن أظهروا عودة لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
 دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

* * *

وقال كمال الدين بن النبيه يمدح الملك الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب :
 يا نار أشواق لا تخمدى لعل ضيف الطيف أن يهتدى
 حسبه ماء فصادفته لمع مراب ليس يروى الصدى
 تكلفت عيني له هجعة كنفية الطائر في المورد
 صور في مرآتها صورة تجل عن لمس فم أويد
 إن نعمت في الليل روحى به فسوف يسقى جسدى في غد
 الصد والهجران قد جمعا بالله قل لى فبمن أقتدى
 أشكو إلى الله ملولا إذا قلت انتهى في هجره يبتدى
 ومنها :

يا ملك الأرض وإن كان في حصونه يا ملك الفر قد
 ملأتها بالخيول والرجل وبالبيض المواضى والقنا الأملد^(١)
 تكاد أن تزحف يوم الوغى إلى العدا من أفقها الأبعد
 لبست منها تاج ملك على كسرى أنو شروان لم يعقد
 وقال يمدحه ويستعطفه :

✓ أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

(١) الضمير في ملأتها وفي تكاد في البيت بعده يعود على الحصون .

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ✓
 يأيها الوجه الجميل تدارك الصـ ✓
 هل في فؤادك رحمة لمقيم ✓
 هل من سبيل أن أبت صمابتي ✓
 إني لأستحي كما عودتني ✓
 يا عين عذرك في جبينك واضح
 الله أبدى البدر من أزراره
 الأشرف الملك الذي ساد الورى
 ردت به شمس السماح على الورى
 سهل إذا لمس الصفا سال الندى
 ومنها :

أضييق بى حرم اصطناعك بعد ما
 هذا وقد طرزت باسمك مدحة
 وعلى كلا الحالين إني شاكر
 قد كان منفرجا على موسعا
 لا ترتضى شنف الثريا مسمعا
 داع لأن الله يسمع من دعا

* * *

وقال علم الدين أيدير يمدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب ويصف الأبنية

(١) الظلم بالعم الجور وبالفتح الربق .
 (٢) يشير الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام . فقد كان يوشع يحارب الجبارين
 يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل أن يفرغ من قتالهم ويدخل السبت
 فلا يحل له قتالهم فيه فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم ، راجع سفر يشوع في العهد
 القديم الاصحاح العاشر . الآية ١٢ — وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية لابن جرير
 الطبري ص ٣١٠ ، وقد أشار شوقي الى هذه القصة في مطلع قصيدته :

فتي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

التي أنشأها بجزيرة مصر والبرج المجدد على المقياس ويذكر يوم التخليق^(١) :

الروض مقتبل الشبية مونق خضل يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده فالزهر منه متوج ومنطق^(٢)
وارتاع من مر النسيم به ضحى فغدت كأم زهره تنفتق
وسرى شعاع الشمس فيه فالنقى منها ومنه سنا شمس تشرق
والغصن مياس القوام كأنه نشوان يصبح بالنعيم ويغبق^(٣)
والطير ينطق معرباً عن شجوه فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غردا يغنى للغصون فتعشنى طرباً جيوب الظل منه تشفق
والنهر لما راح وهو مسلسل لا يستطيع الرقص ظل يصفق
ومنها :

لله يوم كان فضلك باهرا فيه ومنك جماله والرونق
يوم تجلى الدهر فيه بزينة لما غدا المقياس وهو خلق^(٤)
هو ثالث العيدين إلا أنه للهو ليس على العبادة يطلق

والقصيدة طويلة فراجعها في مختار ديوانه وهو مطبوع في مطبعة دار الكتب
المصرية .

وقال أبو الحسن على بن الساعاتي في فتح طبرية^(٥) :

جلت عزماتك الفتح الميمنا فقد قرت عيون المؤمنين

(١) هو يوم فتح الحليج . وكانوا يذهبون إلى المقياس ويخلقون عموده بأنواع الطيب
أى يدهنونه .

(٢) منطق : محوط بنطاق .

(٣) يصبح : يشرب الصبح وهو ما يشرب غدوة . ويغبق : أى يشرب الغبوق وهو
ما يشرب بالعشى .

(٤) مدهون بالخلق وهو نوع من الطيب فيه صفرة .

(٥) راجع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ٨٤ .

رددت أخيدة الإسلام لما
 وهان بك الصليب وكان قدما
 يقاتل كل ذى ملك رياء
 غدت فى وجنة الأيام خلا
 فيما لله كم سرت قلوبا
 وما طبرية إلا هدى^(١)
 لقد جردت عزما ناصريا
 فكنت كيوسف الصديق حقا
 وإن تك آخرا وخلاك ذم
 غدا صرف القضاء بها ضميما
 يعز على العوالى أن يهونا
 وأنت تقاتل الأعداء دينا
 وفى جيد العلا عقدا ثمينا
 ويا لله كم أبكت عيوننا
 ترفع عن أكف اللامسينا
 يحدث عن سناه طورسينا
 له هوت الكواكب ساجديننا
 فإن محمدا فى الآخرينا

* * *

وللقاضى السعيد بن سناء الملك فى مدح السلطان صلاح الدين عند إرادة
 فتح حلب :

بدولة الترك عزت دولة العرب
 إن العواصم كانت أى عاصمة
 تطوى البلاد وأهليها كتائبه
 أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها
 حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت
 وقد حواها وأعطى بعضها هبة
 ومذرات صده عن ربعا حلب
 غارت عليه ومدت كف مفتقر
 واستعطفته فوافتها عواطفه
 وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
 لنفسها بتعاليمها عن الرتب
 طيا كما طوت الكتاب للكتب
 بمالك فظن أو سائس درب
 من الفساد كما صحت من الوصب
 فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب
 ووصلها لبلاد الغير بالحلب
 منها إليه وأبدت وجهه مكتئب
 وأكشب الصلح إذ نادته عن كشب

(٢) الهدى على وزن فعيل العروس .

وحل منها بأفق غير منخفض للصاعدين و برج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه ملك الملوك ومولاها بلا كذب

* * *

وقال سبط بن التعاويذى يمدح السلطان صلاح الدين الأيوبي وأنفذها من بغداد على يد رسوله إلى دمشق :

حتم أَرْضِي فِي هَوَاكَ وَتَغْضَبُ وَإِلَى مَتَى تَجْنَى عَلَى وَتَعْتَبُ
مَا كَانَ لِي لَوْلَا مَلَامُكَ زَلَّةُ لَمَا مَلَّتْ زَعَمْتُ أَنِّي مَذْنَبُ
أَتَظَنِّي أَضْمَرْتُ بَعْدَكَ سَلَاةُ هِيَهَاتَ عَظْفُكَ مِنْ سَلَاةِ
لِي فِيكَ نَارُ جَوْي مَا تَنْظُفِي حَرَقًا وَمَاءَ مَدَامَعٍ مَا يَنْضَبُ
أَنْسَيْتُ أَيَّامًا لَنَا وَلِيَالِيَا لَلْهُوَ فِيهَا وَالْبَطَالَةُ مَلْعَبُ
قَدْ كُنْتُ تَنْصَفُنِي الْمَوْدَةَ رَاكِبَا فِي الْحُبِّ مِنْ أَخْطَارِهِ مَا أُرْكَبُ
فَالْيَوْمَ أَقْنَعُ أَنْ يَمُرَ بِمَضْجَعِي فِي النَّوْمِ طَيْفُ خِيَالِكَ الْمُتَأَوَّبُ ^(١)
مَآخَلْتُ أَوْرَاقَ الصَّبَا تَذْوِي نَضَا رَتَهَا وَلَا ثَوْبَ الشَّمِيئَةِ يَسْلَبُ
حَتَّى انْجَلَى لَيْلُ الْغَوَايَةِ وَاهْتَدَى سَارَى الدَّجَى وَانْجَابَ ذَاكَ الْغَيْهَبُ
وَمِنْهَا :

بَكَ يَا صَلاَحَ الدِّينِ يَوْسُفُ أَكْشَبَ النَّهْرُ سَأَى وَرَقَ الْمُقَشَّعِ الْمَجْدُ
ذَلَّتْ أَخْلَاقُ الزَّمَانِ لِأَهْلِهِ فَأَطَاعَ وَهُوَ الْخَالِعُ الْمَتَعَصِبُ
وَنَهَضَتْ لِلْإِسْلَامِ نَهْضَةُ صَادِقِ الدِّينِ مَزَّ مَاتَ تَرَابٌ مِنْ ثَأْنِهِ وَتَشَعَّبَ ^(٢)
وَعُضِبَتْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَلَمْ تَزَلْ فِي اللَّهِ تَرْضَى مِنْذُ كُنْتُ وَتَغْضَبُ

(١) تَأَوَّبُ : رَجَعَ .

(٢) ثَأْنُهُ : خَرَمُهُ وَفَتْقُهُ . وَشَعَبَ الشَّيْءُ أَصْلَحَهُ وَجَمَعَهُ .

ولما وصل السلطان صلاح الدين إلى حمص وخيم بالعاصى جاءه الفقيه مهذب
الدين الموصلى وأنشده :

أما وجفونك المرضى الصبحاح وسكرة مقتلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا كما أصبحت فردا في الملاح
ومنها :

وما سألوك عقد الصلح ودا ولكن خوف معلمة رداح^(١)
ملأت بلادهم سهلا وحزنا أسودا تحت غابات الرماح
وقال عمر بن الفارض :

أدر ذكر من أهوى ولو بلام فان أحاديث الحبيب مداى
ليشهد سمعى من أحب وإن نأى بطيف ملام لا بطيف منام
فلى ذكرها يحلو على كل صيغة وإن مزجوه عذلى بخصام
ومنها :

وقال اسل عفاها لأئمتى وهو مغرم بلوى فيها قلت فاسل ملاى
بمن اهتدى فى الحب لورمت سلوة وبى يقتدى بالحب كل إمام
ولما تلاقينا عشاء وضمها سواء سبيلي دارها وخيامى
وملنا كذا شيئا عن الحى حيث لا رقيب ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدى وطاء على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثامى
فما سمحت نفسى بذلك غيره على صوتها منى لعر مراى
وقال :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق السكرم

(١) السكتية الثقيلة الحرارة .

ومنها :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا
محاسن تهدي المادحين لوصفها
وعندي منها نشوة قبل نشأتي
عليك بها صرفا وإن شئت مزجها
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا
على نفسه فليبك من ضاع عمره
ومن تائبته الصغرى

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتني
سرت فأسرت للفؤاد غدية
تذكرني العهد القديم لأنها
ومن تائبته الكبرى

سقتني حميا الحب راحة مقلتي
وبالحدق استغنيت عن قدحي ومن
ففي حان سكري حان شكري لغتية
وكتب القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد
في البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة^(٤) :

صلوات الله التي أعدها لأولياته وذخرها ، وتحياته التي قذف بشبهها شياطين
أعدائه ودحرها ، وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمام الغم

(١) الظلم بالفتح : الربق .

(٢) غديه : بفتح الغين بمعنى الغداه وبضمها تصغير غدوة ، والعديب : اسم موضع .

(٣) الحميا : الخمر . والحميا الوجه .

(٤) صبح الأعشى ج ٦ ص ٥١١ .

وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب ، وزكاته التي هي للمؤمنين سكن ، وسلامه الذي لا يعترى الموقنين في ترديده حصر ولا لسن — على مولانا عاقد ألوية الإيمان وصاحب دور الزمان ، وساحب ذيل الإحسان ، وغالب حزب الشيطان ، الذي زلزلت أمامه قدم الباطل ، وحملت خلافته ترائب الدهر العاقل ، واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ما طل ، وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول واطلعت غارب نجم كل هدى آفل .

المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرايع الجدد ومعاقله ، ومجالس الجود ومحال السجود ومختلف أنباء الرحمة المنزلة ، ومرسى أطواد البسيطة المتزلزلة ، ومقتر مباسم الإمامة ومجر مساحب الكرامة .

ولما علم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه ، والأمل الخدوع قد صفر وطابه ^(١) ، راسل ورأى سل السيوف يغمده ، وما كر وما كرّ لعلمه أن الختف يعمده ^(٢) واندفع هارباً هائباً ، وخضع كائناً كاذباً ، ففضى المملوك قدماً ، وحمله ظلمه وقد خاب من حمل ظلمه ، وأجابه بأنه إن وطىء البساط برجله وإلا وطئه برأسه ، وإن قدم على المملوك بأمله وإلا أقدمه بياسه ، وإن لم يظهر أثر التوبة وإلا أقام عليه الحد بسكرة الموت من كأسه .

وكتب عن السلطان صلاح الدين إلى الناصر لدين الله الخليفة ببغداد بفتح بيت المقدس .

أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد ، غنى التوفيق عن رأى كل رائد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلوما صدر عنه مما كان يجبر مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فإنها بحر للأقلام

(١) الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفر وطابه أى ذهب أو مات .

(٢) يضنيه ويفدحه .

فيه سبوح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقیل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ، والله في إعادة شكره رضا وللمعنة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى . وقد صارت بنور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرهما ، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه ، (والكتب طويل في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٩٦) .

ومن إنشاء القاضي الفاضل ما كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى صاحب مكة جوابا عن كتاب منه عليه في معنى وصول غلال بعث بها إلى مكة^(١) .

وصل كتابك أيها الشريف معربا عن المشايعة الشائعة أنباؤها ، والخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ، وحسان الخلال التي اقتسم طرفي الحمد اعادتها وابدائها ، ومكرمات الآل التي تساوى في اقتناء المجد أنباؤها وآباؤها ، وفضائل الأفضال التي لا تخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعباؤها . ونشر كتابك من محاسنك ما انطوى ، ووردنا منه منهلا أروى وارده وارتوى ، ووقفنا منه على أثر فضل اشتمل على عين الكرم واحتوى ، ووقفنا وإياه من الحمد ما لا نخلفه نحن ولا هو مكانا سوى ، فاقضانا مزيدا من رفع قدره ، واختصاصه من الانعام بكل غريب الموقع ندره ، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الورد وصدوره ، وكيف لا يكون ذلك وقد اشمخرت لبيته الأنساب ، وخرب الأنصاب ، وسجدت الرقاب ، وردت له بعد ما توارت بالحجاب ، وشهدت بفضل توقيعهم الحرب ، وبفضل ليلهم الحراب .

وللعباد الأصهباني في فتح عكاء^(٢)

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على التثليث ، مديلا للطيب مزيلا

(١) صبح الأعشى ج ٢ ص ١٠٩

(٢) الفتح القصص ص ٢٩

للغنيث ، وسار عسكره ، وثار عثيره ^(١) . وظهرت راياته ، وبهرت آياته ، ونعرت
كوساته ^(٢) وصاحت بوقاته ، وجالت خيوله ، وسالت سيوله ، وطلعت في سماء
العجاج نجوم خرصانه ^(٣) وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه ، وحفرت
حوافر الصلادم ^(٤) ، أصلاب الصلاد الصلاب ، وفصحت بإغراب المحام
صواهل الجياد العراب ، والأمنة مشرعة ، والأعنة مسرعة ، وبحور السوايح
متموجة ، وغدران السوايح ^(٥) مترجرجة ، وبوارق البياريق متموجة ^(٦)
وأوضح ^(٧) الجرد ^(٨) وغررها كأوضح النصر وغررة متبلجة ... وأصبح يوم الخميس
وركب في خميسه ووقف كالأسد في عريسه ، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان ،
و يبذلون الإذعان ، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ، ووهب لهم عصمة
الأنفس والأموال ، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم ويسبي ذريتهم ونساءهم ،
وأملهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة ، واغتمموا تلك المهلة وأقام
السلطان بباب عكاء على التل نخيما ، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما ،
ولم يملكها متمما .

وقال في فتح بيت المقدس :

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا ، وبالعزيز غالبا ، ولانصر مصاحبا ، ولذيل
العزيز ساحبا ، قد اصحب ^(٩) ريض مناه ، وأخصب روض غناه ، وأصبح رائج

(١) العثير : التراب .

(٢) الطبول .

(٣) الرماح .

(٤) الشديدة الحافر .

(٥) السوايح : الدروع التامة الطويلة .

(٦) لامة .

(٧) جمع وضع وهو الفرة في الجهة والتعجيل في القوائم .

(٨) جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر الرقيقه .

(٩) انقاد . والريض الدابة أول ما تنقاد .

الرجاء ، أرج الأرجاء ، سيب العُرف ، طيب العرف ، ظاهر اليد ، فاهر الأيد ،
سنا عسكره قدفاض بالفضاء فضاء ، وملاً الملاً فأفاض الآلاء ، وقد بسط عثير فيلقه
ملاوته على الفلق ، وكأنا أعاد العجاج رَأد الضحى ^(١) جنح الغسق ، فالأرض
شاكية من إجحاف الحجاغل والسماء حاضية بأقساط القساطل ^(٢) وسار ساراً
بالأحوال الحوالى ، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى ، مطوية مدارج
مناجحه على ماتنشر الآمال من الأمالى ، وقد حلت وعلت من مغارس النصر
ومطالعه المجانى والمجالى ، والإسلام يخطب من القدس عروسا ، ويمذل لها فى المهر
نفوسا ، ويحمل إليها نعى ليحمل عنها بوسى ، ويهدى بشراً ليذهب عبوسا ،
ويسمع صرخه الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها ^(٣) ، على أعدائها ، وإجابة
دعائها وتلبية نداءها .

* * *

هذه طائفة من النماذج لأدباء العصر توضح ما كان للأدب من أساليب
ومميزات ، وأن الدراسة التفصيلية لكل أديب تتطلب إفاضة . وحسبنا أن نشير فى
إيجاز إلى الخصائص العامة للشعر والنثر .

(أما الشعر) فملك واجد فيه بعض التفاوت فى الديباجة وقوة النسج ،
وتباين الشعراء فى المقدرة البيانية وقوة التصوير ، فمنهم من تجدد فى أسلوبه رقة
وروعة وديباجة حسنة وخيالاً صافياً ، ومنهم من تلمح فى شعره بعض الفتور فى
الأسلوب ومسحة من الضعف فى الصوغ . ولـكنك تجد للشعر فى جملة خطا من
المظاهر الآتية :

١ — فى أسلوبه : ترى الميل إلى الرقة والعناية بالصناعة اللفظية وهى ظاهرة

(١) رَأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس فى أول النهار .

(٢) القسطل : الغبار .

(٣) أعداء على عدوه : نصره عليه وقواه .

تسيطر على أدب هذا العصر وتقناده أدباءه ، فهم يرون الجمال الفني للأدب رشاقة
وألوانا خلاصة من الصناعة ويقيسون البلاغة بمقياس من الحسنات والتشبيه والاستعارة .
وتجد أيضا نزوعا إلى السهولة وإيثاراً لبعض العبارات المألوفة .

٢ — وفي معانيه : ترى اهتماما بالبحث عن جديد الصور والأخيلة ، وتجد
بعض المعاني المنترزة من مظاهر الحياة .

٣ — وفي الألفاظ : تجد السهل المألوف ولا تلمح للغرابة كبير أثر .

٤ — وفي الموضوعات : لا ترى من فنون الشعر جديداً ، ولكن بعض
الفنون كان أوفر من غيره حظا كالمدح والتعني بالبطولة والتمدح بالفتح والانتصار .
وتجد جانبا من الغزل الصناعي في مفتتح القصائد جريا على ما كان مألوفاً في
العصور السابقة .

وعلى الجملة تجد شعراً أقرب إلى الرقة منه إلى الجزالة وتجد ديباجة تتجلى فيها
الصناعة وتقدين من أثر البيئة والحياة مسحة في بعض النواحي .
(وأما الكتابة) فالظاهرة العامة فيها هي محاكاة طريقة القاضي الفاضل التي
أوضحنا لك خصائصها وما ينزع إليه أتباعها .

عصر المماليك

سالت مصر من إغارة التتار وحفظها الله ملجأ للعلماء والأدباء فكانت كتبهم ومعقد آمالهم . ولعل من العوامل التي عوضت العالم الإسلامي مما أصابه بإغارة المغول من إبادة الذخائر العلمية وتشريد العلماء وتقتيلهم وطمس ما ترك الأوائل من مجد ، أن الله قد وقى كتمانته من سوء فكانت مشرقاً للعرفان ، ومثابة للعلماء وأمناء .

ولقد كان السلاطين المماليك من خير الأعوان على إحياء الثقافة بما أسسوا من مدارس ومساجد ، وبما أحسنوا من صنيع في تشجيع العلماء وتعظيم رجال الدين ، وذلك لتثبيت ملكهم ، واجتذاب قلوب الرعية إليهم ، حتى أصبحت القاهرة موئل الحضارة الإسلامية ، وموطن الدرس والتحصيل ، وصارت المدارس تزخر بالطلاب وبالعلماء والمعلمين . وهالك أشهر المدارس التي كانت مقر الثقافة : —

(١) الأزهر : وقد أنشئ في أيام الدولة الفاطمية مع القاهرة سنة ٣٦١ هـ ، وكان في أيام المماليك مزدهراً يقصده الطلاب من جميع الأقطار للتعلم في الدين ودراسة اللغة وعلومها ، وكانت الأرزاق والخيرات تفيض عليهم ، والسلاطين والحكام يغفرونهم بمبراتهم وما يسدون من إحسان .

(٢) المدرسة الظاهرية : أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ ، بين القصرين وكانت بها خزانة كتب حافلة بالمؤلفات في شتى العلوم .

(٣) المدرسة المنصورية : أنشأها المنصور قلاوون وبني بجانبها بيمارستانا (وهو المعروف الآن بمستشفى قلاوون بالنحاسين) . وكانت تدرس بهذه المدرسة دروس الفقه على المذاهب الأربعة ، ودروس أخرى في التفسير والحديث .

(٤) المدرسة الناصرية : أتمها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ ، وكانت بها دروس للفقه على المذاهب الأربعة .

(٥) مدرسة السلطان حسن : أنشئت سنة ٧٥٨ هـ ، وهي المعروفة الآن
بجامع السلطان حسن بجوار القلعة . وكان بها أربع مدارس للمذاهب الأربعة .
(٦) المدرسة الظاهرية : أنشأها الملك الظاهر سيف الدين برقوق ، وهي
المشهورة الآن بجامع برقوق بالنحاسين ، وكان بها دروس للفقه والتفسير والحديث
والقراءات .

(٧) المدرسة المؤيدية : أنشأها الملك المؤيد سنة ٨١٩ هـ ، وتعرف الآن
بجامع المؤيد بجانب باب زويلة .
وكان بهذه المدارس خزائن كتب تحوى كثيراً من المؤلفات الثمينة في شتى
العلوم والفنون .

التأليف وأشهر المؤلفين

إن ما أبيد من المؤلفات بسبب كارثة الإغارة المغولية قد أنضب معين
الكتب فلم يبق منها إلا شمالة . وأصبحت خزائن الكتب مجدبة بعد الخصب
والازدهار . ولقد شعر العلماء بذلك فحزهم شعورهم الديني إلى الاهتمام بتجديد
ذلك التراث الذي عبثت به الحوادث ، فشحذوا الهمة وأبدوا من النشاط ما أنتج
القدر الوافر من الكتب في شتى العلوم .

وإن حكام مصر من المماليك وإن فاتهم أو أكثرهم ، الإلمام باللغة العربية
وعلموها ، والعناية بتفهمها والتفقه في شعبها المختلفة ، لم يفتهم أن يبذلوا المجهودات
والمبرات تشجيعاً للعلم والعلماء والمتعلمين . ولقد قيس الله كذلك للغة القرآن
الكريم أن تكون هي لغة العلم والدين والسياسة ، وذلك لأن المماليك تركوا
زمام الإدارة والكتابة والقضاء وغـيرها من المناصب للعلماء ، واقتصروا على
المناصب العسكرية ، وإدارة الجند ، فكان ذلك من أعظم العوامل في حفظ
اللغة وتشجيع المشتغلين بها وبعلموها .

وإننا نذكر أهم العلوم التي شملها النشاط في التأليف .

اللغة : والمؤلفات فيها لا تزال مراجع للعلماء والباحثين : ومن أشهر المؤلفين

فيها :

(١) محمد بن عبد الله بن مالك : (٦٠٠ — ٦٧٢) نشأ بالأندلس ثم رحل إلى دمشق وتصدر للتعليم في حلب ، ومن أشهر مؤلفاته : الألفية ، والكافية الشافية التي نلخص منها الألفية ، ولامية الأفعال .

(٢) جمال الدين عبد الله بن هشام المصري . (٧٠٨ — ٧٦١ هـ) . وأشهر مؤلفاته : مغنى اللبيب ، وقطر الندى ، وشذور الذهب .

(٣) جلال الدين السيوطي (٨٤٩ — ٩١١) . وأشهر مؤلفاته : الإيتقان في علوم القرآن ، والمزهر ، والأشباه والنظائر في النحو ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة في التاريخ ؛ وبعية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وجمع الجوامع في النحو . وله غير ذلك كتب أخرى كثيرة في اللغة والدين والأدب والتاريخ تدل على سعة علمه ، وعظيم أثره .

(٤) جمال الدين بن مكرم المعروف بابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) ، ولد بإفريقية وتوفي بالقاهرة ، ومن أشهر مؤلفاته : لسان العرب

(٥) أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (٧٢٩ — ٨١٧ هـ) ولد بالقرب من شيراز بفارس ، وأشهر مؤلفاته : القاموس المحيط وهو مختصر كتاب ألفه سماه اللامع المعلم العجائب الجامع بين المحكم والعياب ، جمع فيه ما تفرق في كتاب المحكم لابن سيده والعياب للصغاني وقد ضاع .

الدين وعلوم القرآن : وأشهر المؤلفين :

١ — تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) نشأ بدمشق وأشهر مؤلفاته : فتاوى ابن تیمیة ، ومنتهى الأخبار ، والواسطة بين الحق والخلق ،

ومجموع الرسائل الكبرى .

٢ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الدمشقي الحنبلي (٦٩١ - ٧٥١ هـ) . وأشهر مؤلفاته : زاد المعاد ، ومفتاح دار السعادة ، وأخبار النساء ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية .

٣ - مظفر الدين بن الساعاتي البغدادى (٦٩٦ هـ) . وله كتاب مجمع البحرين وملتقى النهرين في فقه الحنفية .

٤ - خليل بن إسحاق بن موسى الجندي المصري (٧٢٧ هـ) . وله كتاب المختصر في الفقه المالكي .

٥ - أبو زكريا محيي الدين النووي (٦٣١ - ٦٧٦ هـ) . ولد قرب دمشق وتعلم بها وأشهر كتبه : منهاج الطالبين في فقه الشافعية .

٦ - عبد الله بن عمر البيضاوى (٦٨٥ هـ) تولى قضاء شيراز ثم تبريز . وأشهر مؤلفاته أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير .

٧ - شمس الدين بن الجزري الدمشقي (٨٢٣ هـ) وله كتاب النشر في القراءات العشر ، وكتاب المقدمة الجزرية في التجويد .

٨ - حافظ الدين النسفي (٧١٠ هـ) وله كتاب كنز الدقائق في فقه الحنفية .

٩ - فخر الدين الزيلعي (٧٤٣ هـ) وله كتاب تبين الحقائق على كنز الدقائق في فقه الحنفية .

١٠ - ملا خسرو (٨٥٥ هـ) وله كتاب درر الحكام في شرح غرر الأحكام في فقه الحنفية .

١١ - ابن همام (٨٦١ هـ) وله كتاب فتح التقدير شرح على الهداية في فقه الحنفية .

١٢ - تاج الدين السبكي (٧٢٧ هـ) وله كتاب جمع الجوامع في فقه الشافعية .

التاريخ من العلوم التي نالت حظاً وافراً من التأليف في عصر المماليك فقد ظهر من كتبه في شتى النواحي عدداً يحصى ، وكثر التأليف في المعاجم التاريخية التي تحوى تراجم الأشخاص وسير الملوك والأمراء ، وظهرت أيضاً كتب التواريخ للبلاد والدول .

ومن الظواهر التي تلاحظ على المؤلفات التاريخية في هذا العصر خلوها من السند الذي كان يلتزمه مؤلفو التاريخ في العصور السابقة مجارة لما اتبع في رواية الأحاديث النبوية . ولم يكن المؤلفون في التاريخ قبل ذلك يعنون بالنقد فقد كان همهم سرد الحوادث سرداً ، وذلك لأن الهمم كانت منصرفة إلى النقد الأدبي ، ولكن بعض المؤلفين في هذا العصر قد بدءوا يزنون الحقائق ويتقربونها وينظرون فيها نظر تمحيص ، وبذلك وضعوا أسساً للنقد التاريخي . ومن أشهر هؤلاء ابن طباطبا (٧٠١هـ) في كتابه الفخرى في الآداب السلطانية ، وابن خلدون (٨٠٨هـ) في مقدمته التي تعتبر أول كتاب في فلسفة التاريخ .

ومن أشهر المؤرخين في هذا العصر :

- ١ — أحمد بن محمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عربشاه (٧٩١ — ٨٥٤هـ) ولد بدمشق ونشأ بها ورحل إلى تركستان ثم إلى آسيا الصغرى ، ومن كتبه : عجائب المقدور في نوائب تيمور ، في أخبار تيمورلنك .
- ٢ — شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المصري شارح البخارى (٩٢٣هـ) ومن كتبه المواهب اللدنية في المنح الحمدية في السيرة النبوية .
- ٣ — موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ) ولد بدمشق وانتظم في خدمة الدولة الأيوبية . وله كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء .
- ٤ — شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن خلسكان العراقي (٦٠٨ — ٦٨١هـ) تولى قضاء الشام ورحل إلى مصر . وله كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

٥ - محمد بن شاكر الكتبي (٥٧٦٤ هـ) تعلم في حلب ودمشق . وله كتاب فوات الوفيات جعله ذيلًا لكتاب وفيات الأعيان .

٦ - إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقاق (٥٨٠٩ هـ) مؤرخ الديار المصرية . وله كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار .

٧ - تقي الدين المقرئ (٧٦٦-٥٨٤٥ هـ) ولد بمصر وتعلم وعلم بالقاهرة واتصل بالظاهر برقوق ، وله كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار ، وله أيضاً كتاب نبذة العقود في أمور النقود يشتمل على تواريخ النقود العربية .

٨ - السلطان المؤيد صاحب حماء إسماعيل بن علي أبو الفداء (٥٧٣٢ هـ) كان أميراً على دمشق في أيام الملك الناصر ، ثم جعله سلطاناً على حماء ، وله كتاب المختصر في أخبار البشر .

الأدب وأشهر المؤلفين :

١ - أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري (٥٧٣٢ هـ) أحد رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون . وله كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب .

٢ - أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٠٠-٥٧٤٨ هـ) ولد في دمشق وتعلم فيها وفي القاهرة ، وتولى القضاء وغيره في القاهرة ، وله كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وله أيضاً كتاب التعريف بالمصطلح الشريف .

٣ - محمد جمال الدين الوطواط (٥٧١٨ هـ) وله كتاب غرر الخصائص الواضحة .

٤ - شهاب الدين محمد بن سليمان بن فهد (٥٧٢٥ هـ) صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان الظاهر بيبرس ، ومن كتبه حسن التوسل في صناعة التوسل .

٥ — علاء الدين البهائى الدمشقى (٨١٥ هـ) وله كتاب مطالع البدور فى منازل السرور .

٦ — شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى المصرى (٨٢١ هـ) ينسب إلى قرية بجوار قليوب ، وتولى كتابة الإنشاء فى دولة المماليك بمصر . ومن أشهر كتبه صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء .

٧ — محمد بن أحمد الأبشيهى (عاش فى النصف الأول من القرن التاسع) وله كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف .

٨ — محمد بن حسن شمس الدين النواجى نسة إلى نواج قرية فى مديرية الغربية . وقد ولد فى القاهرة . ومن كتبه حلبة الكميت .
كتب فى فنون أخرى :

١ — حياة الحيوان : لجمال الدين محمد بن عيسى الدميرى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٨ هـ .

٢ — آثار الأول فى تدبير الدول : ألفه حسن بن عبد الله العباسى للسلطان بيمبرس المنصورى صاحب مصر سنة ٧٠٨ هـ
وهناك كتب كثيرة مما ألف فى هذا العصر فى شتى العلوم والفنون منثرة فى المكتبات فى مختلف الممالك .

وقد اكتملنا بسرد أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها دون تعريف بمضمونها تاركين ذلك للقارى ، ليطلع بنفسه ويلم بمناحيها ويصل إلى رأى شخصى فيها .



وخلاصة مايقال عن التأليف فى هذا العصر أنه قد شغل جانبا عظيما من جهود العلماء والباحثين ، وشمل كثيرا من العلوم والفنون ، وذلك راجع إلى تشجيع السلاطين المماليك وعنايتهم باقتناء الكتب ، ولما كان هناك من تنافس عظم بين علماء مصر والشام .

ومن بين مؤلفات هذا العصر طائفة من الكتب يتجلى فيها الابتكار
مثل كتب ابن خلدون وابن خلكان وابن هشام وابن منظور، ولكن إلى
جانب هذه كتب أخرى ليس فيها للابتكار أثر، وليست إلا جمعا لأشتات مما
في الكتب الأخرى.

ومما جد في هذا العصر في طريقة التأليف ولا سيما في العلوم الشرعية
والعربية تأليف المتون الموجزة ثم شرحها. والأمثلة لذلك كثيرة مثل ألفية ابن مالك،
ومتن الكنتز في فقه الحنفية.

ولسنا هنا بصدد إبداء الرأي في هذه الطريقة وأثرها التعليمي، فلهذا البحث
موضعه الخاص في طرق التربية والتعليم.

الشعر

نسوق تعريفا موجزا لأشهر الشعراء، ثم نذكر طائفة من المختارات الشعرية
لتكون نماذج لفنون الشعر ومعانيه وأساليبه:

١ - جمال الدين محمد بن نباتة المصري (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ) ولد بمصر
ونشأ بالقاهرة وتلقى العلم والأدب على كبار شيوخها، وعكف على قراءة شعر
القاضي الفاضل ورسائله، وأغرم بطريقته في العناية بأنواع البديع والولوع بها
وكانت أيامه الأولى أيام نعيم ولهو في أسرة تتمتع بشيء من نعيم الحياة وتعنى
بالعلم والأدب، ثم درس علوم الدين واللغة والأدب، وكان العصر الذي نشأ فيه كثير
الاضطراب والفتن والانقسام بين الأمراء وأنصارهم، انتشرت الدسائس بين
المماليك، فشب مستكيننا، محبا للسلام بعيداً عن النقد أو الاعتزاز بالرأي، وكان
من معاصريه صفى الدين الحلى، وصلاح الدين الصفدى وابن الوردي، وابن
دانيال الموصلي وغيرهم. وقد اتصل بكثير من كبار الكتاب مثل ابن فضل الله
العمري وولده شهاب الدين وأخيه علاء الدين.

وقد هجر مصر طلبا للرزق فالتحق بالملك المؤيد اسماعيل صاحب حماء وصار شاعره . ثم اتصل بابنه الأفضل ثم بالمنصور بن الأفضل ، ثم عينه القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري بديوان الإنشاء بدمشق .

٢ — صفى الدين الحلى عبد العزيز بن على (٢٧٧ — ٧٥٠ هـ) . ولد بالحلة من مدن الفرات بالعراق . وكان شاعر الدولة الأرتقية بماردين وديار بكر ورحل الى القاهرة زمن السلطان الملك الناصر ومدحه ، وقد نظم في معظم فنون الشعر ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالعديعيات .

٣ — صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى (٦٩٦ — ٨٢٤ هـ) ولد في صفد وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباته المصرى ، وتولى ديوان الإنشاء في صفد والقاهرة وحلب .

٤ — الشاب الظريف محمد بن غفيف الدين القلمسانى (٦٦١ — ٦٨٨) ولد بمصر ، ومات في عنقوان شمابه ، وقد وصفه شهاب الدين بن فضل الله وصفا أدبيا فراجع في الجزء الثانى من كتاب فوات الوفيات ص ٢٦٣ .

٥ — ابن الوردى زين الدين عمر (٦٨٩ — ٧٤٩ هـ) ولد بالمعرة ومات بحلب . وكان شاعرا أدبيا نحويا فقيها مؤرخا . وله في التاريخ كتاب تنمة المختصر في أخبار البشر ، وهو تذييل لتاريخ أبى الفداء . ومن شعره لاميته المشهورة ، ومطلعها :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

٦ — التلعفرى شهاب الدين محمد بن يوسف (٥٩٣ — ٧٦٥ هـ) ولد بالموصل واشتغل بالأدب ومدح الملوك والأعيان ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي ، وكان التلعفرى خليعا وكلما أعطاه الملك الأشرف شيئا قامر به فطرده إلى

حلب ، فمدح العزيز فأحسن إنيه ولكنه سلك سبيل المقامرة أيضا ، ثم جاء إلى دمشق مستجديا .

٧ - البوصيري محمد بن سعيد (٦٠٨ - ٦٩٥ هـ) نشأ ببوصير إحدى قرى بني سويف ثم انتقل إلى القاهرة ، واتخذ كتابة الدواوين صناعة له ، وتقلب في مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ومديرية الشرقية في بلبس مدة . وتوفي بالاسكندرية وقبره مشهور بها .

٨ - تقي الدين بن حجة الحموي (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) ولد في حماه ورحل في طلب العلم إلى الموصل ودمشق والقاهرة وعاد إلى بلده ، ثم قصد القاهرة في زمن الملك المؤيد شيخ ، وهو صاحب كتاب خزانة الأدب وهي بديعية نظمها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد شرحها في هذا الكتاب شرحا وافيا .

٩ - سراج الدين الوراق (٦٥٥ هـ) كان كاتباً للأمير يوسف سيف الدين وإلى مصر وهو ممن يهتمون بالتورية وفنون البديع .

نماذج من شعر هذا العصر

قال ابن نباته يمدح الملك المؤيد :

سرى طيفها حيث العواذل جمع	فتم علينا نشره المتضوع
وبات يعاطيني الأحاديث في دجى	كان الثريا فيه كأس مرصع
أجيراننا حيا الربيع دياركم	وإن لم يكن فيها لطرفي مربع
شكوت إلى منفع النقا طول نايكم	وسفح النقا بالنأي مثلي مروع ^(١)
ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة	يواسيك أو يسليك أو يتوجع
فديت حبيباً قد خلا عنه ناظري	ولم يخل منسه في فؤادي موضع
مقيم بأكناف الفضا وهي مهجة	وإلا بوادي المنحنى وهي أضلع ^(٢)

(١) النقا : القطعة من الرمل محدودة .

(٢) الفضا : شجر قوى الاشتغال ، ووادي الفضا ووادي المنحنى مكانان في جزيرة العرب . وفي البيت شبه استخدام .

أطال حجاز الصد بيني وبينه
لئن عرضت من دون رؤيته الفلا
محـل ترى فيه مجامع لذة
قرأنا به نـحو الهنا فـمـلابس
وقد أمنتنا دولة شاذوية
مدائحها تمحو الأثام ورردها
ومنها :

قصديك ظمأنا فجدت بزاهر
وفي بعض ما أسديت قنع وإنما
لك الله ما أزكى وأشرف همة
مديحك فرض لازم لى دينه
وقال يمدح السلطان الأفضل ويعزیه بوالده المؤيد صاحب حماء :

هنا محاذك العزاء المقدما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع
تفيض مجارى الدمع والبشر واضح
سقى الغيث عنا تربة الملك الذى
ودامت يد النعمى على الملك الذى
مليكان هذا قد هوى لضريحه
ودوحة ملك شاذوى تكافأت
فقدنا لأعناق البرية مالمسكا
فما عبس الحزون حتى تبسما
شبهان لا يمتاز ذو السبق منهما
كوابل غيث فى ضحى الشمس قد همى
عهدنا سجاياه أبر وأكرما
تدانت له الدنيا وعزبه الحمى
برغى وهذا للأسرة قد سما
فغنص ذوى منها وآخر قد نما
وشمنا لأنواع الجميل متما

(١) الحورا وينبع مكانان . وفى البيت مراعاة نظير .

(٢) شاذوية نسبة إلى شاذى جد ملوك حماء .

(٣) قنع : قناعة .

ومنها :

وأستوضح العلياء فيك فراسة
فغش للورى واسلم سعيداً منها
وسر في أمان الله قدماً بفضل
أعدت زمان البشر والجود والثنا
وقال يمدح علاء الدين بن فضل الله :

عظفت كأمثال القسى حواجبا
بلواحن يرفعن جفنا كاسرا
ومعافظ كالماء تحت ذوائب
سود الغدائر قد تعقرب بعضها
من كل ماردة الهوى مصرية
لم يكف أن شرعت رماح قدودها
يا أخت أقمار المماء محاسنا
إن كابدت كبدي عليك مهالك

ومنها :

أها لمصر وأين مصر وكيف لى
حيث الشيمية والحبيبة والوفا
والطرف يركع في مشاهد أوجه
والدهر سلم كيفما حاولته
هيهات يقربنى الزمان أذى وقد
أعلى الورى همما وأعدل سيرة

بملكك لا أعطى عليها منجما
فخط الورى في أن تعيش وتسلم
أسر الورى مسرى وإيمن مقدما
إلى أن ملأت العين والأنف والظما

فرمت غداة البين قلباً واجبا^(١)
فتشير في الأحشاء هما ناصبا
فأعجب لمن جوامداً وذوائبا
ومن الأقارب ما يكون عقاربا
لم تخش من شهب الدموع ثواقبا
حتى عقدن على الرماح عصائبها
والشمس نوراً والنجوم مناسبا
فلقد فتحت من الدموع مطالبها

بديار مصر مراتعاً وملاعباً
في الأقربين مشارباً وأصحاباً
عقدت بها طرر الشعور محارباً
لامثل دهري في دمشق محارباً
بلغت شكايقي العلاء الصاحباً
وأعز منتصراً وأمنع جانباً

(١) وجب القلب : خفق .

تخذ المكارم مذهبا لما رأى للناس فيما يعشقون مذاهبا
وقال صفي الدين الحلي يمدح السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند قدومه
من الحجاز . وقد اقترح عليه أرباب الدولة معارضة قصيدة المتني التي مطالعها :
بأبي الشموس الجانحات غواربا

أسبلن من فوق النهود ذوائبا	فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة	غادرن فود الليل منها شائبا
يبض دعاهن الغي كواعبا	ولو استبان الرشد قال كواكبا
وربائب فإذا رأيت نفاها	من بسط أنسك خلتهن رباربا ^(١)
سفن رأى المانوية عندما	أسبلن من ظلم الشعور غياها ^(٢)
وسفرن لى فرأين شخصا حاضراً	شدهت بصيرته وقلبا غائبا ^(٣)
أشرقن فى حلال كأن وميضها	شفق تدرعه السموش جلابا
وغربن فى كلل فقلت لصاحبي	بأبي الشموش الجانحات غواربا

ومنها .

ترجى مواهبه ويرهب بطشه	مثل الزمان مسالما ومحاربا
فاذا سطا ملاً القلوب مهابة	وإذا سخا ملاً العيون مواهباً
كالليث يحمى غانه بزئيره	طوراً وينشرب فى التقيص مخالبا
كالسيف يبدى للنواظر منظراً	طلقاً ويمضى فى الهياج مضارباً
كالسمل يحمد منه عذبا واصلا	ويعدده قوم عذابا واصبا ^(٤)
كالبحر يهدى المنفوس نفائسا	منه ويبدى للعيون عجائبا

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٢) المانوية طائفة تقول : الشر من الليل والخير من النهار .

(٣) شده : دهش .

(٤) الواصب : الدائم .

فاذا نظرت ندى يديه ورأيه
أبقى قلاوون الفخار لولده
ومنها :

صافى الفرند حكي صباحا جامداً
وكتيبة تذر الصهيل رواعدا
إن يحرس الناس النصار بحاجب
أوليتني قبل المديح عناية
أبدى النجيع به شعاعاً ذائباً^(١)
والبيض برقاً والعجاج سحائباً
كان السماح لعين مالك حاجباً
وملأت عيني هيبة ومواهباً

* * *

وقال يمدحه عند كسر الخليج :

خلع الربيع على غصون البان
ونمت فروع الدوح حتى صاغت
وتنوجت هام الغصون وضرجت
وتنوعت بسط الرياض فزهرها
من أبيض يقق وأصفر فاقع
والظل يسرق في الخماثل خطوه
وكأنما الأغصان سوق رواقص
والشمس تنظر من خلال فروعها
والطلع في خلل الكمام كأنه
والأرض تعجب كيف تضحك والحياء
حتى إذا افترت مباسم ثغرها
حللا فواضلها على الكشبان
كفل الكشيب ذوائب الأغصان^(٢)
خد الرياض شقائق النعمان
متباين الأشكال والألوان
أو أزرق صاف وأحمر قاني^(٣)
والغصن يخطر خطرة النشوان
قد قيدت بسلاسل الريحان
نحو الحدايق نظرة الغيران
حلل تفتق عن محور غواني
يبكي بدمع دائم الهملان
وبكى السحاب بدمع هتان

(١) النجيع : الدم .

(٢) الكفل : الردف والعجز .

(٣) يقق : شديد البياض .

ظلت حدائقه تعاقب جونه
فأجاب معذراً بغير لسان
ومنها :

حتى إذا استعر الورى وتبعته
فعلت دروعك عندها بسيوفهم
وبرزت تلفظك الصفوف إليهم
بأقب يعصى الكف ثم يطيعه
قد أ كسبته رياضة سواسه
كالصقرفى الطيران والطاووس فى
لو قبلى عجب نحو السماء مبادرا
أو قيل جزفوق الصراط مسارعا
وفلت حد جموعهم بصوارم
ضلت فظنت فى مقارعة العدا
صيرت هامات الكماة صوامعا
يا ذا الذى خطب المديح سماحه

ومنها :

أقصيتنى بالجود ثم دعوتنى
ضاعفت برك لى ولو لم توانى
فنايت عنك ولست أول حازم
فلئن رحلت فقد تركت بدائعا
وخريدة هى فى الجمال فريدة
فنداك أبعدنى وإن أدنانى
إلا القبول عطية لكفانى
خاف النزول بمهبط الطوفان
غصبت فصول الحكم من لقمان
فهى الغريبة وهى فى الأوطان

(١) الصفاح : السيوف .

(٢) أقب : ضامر البطن .

(٣) الركض : الدفع والاستحثاث .

(٤) الدبران : منزل للقمر .

لا عيب فيها وهو شاهد حسنها
قلت وإن جلت صنائع لفظها
جَمِيل صنعكم أَجَل صنائِها
وبديع فضلكم أدق معان

ومن بديعته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم
أبيت والدمع هام هامل سرب
والجسم في إضم لحم على وضم

ومنها :

وكم بذلت طريفي والتلبد لـكم
من كان يعلم أن الشهد راحته
خلت الفضائل بين الناس ترفعي
طوعا وأرضيت عنكم كل مختصم

وله قصائد تسمى الأرتقيات في مدح الملك المنصور أبي الفتح بن أرتق
ماردين وعددها تسع وعشرون قصيدة على أحرف الهجاء ، التزم في كل قصيدة
حرفا في أول البيت وفي آخره . ومنها :

أبت الوصال مخافة الرقباء
أصفتك من بعد الصدود مودة
أحيت بزورتها النفوس وطالما
وأنتك تحت مدارع الظلماء
وكذا الدواء يكون بعد الداء
ضنت بها فقضت على الأحياء

وقال الشاب الظريف .

صندوقك هل له أمل قريب
قضاة الحسن ما صنعى بطرف
رمى فأصاب قلبي باجتهاد
ووصلك هل يكون ولا رقيب
تمنى مثله الرشأ الريب
صدقتكم كل مجتهد مصيب

(١) سلع : جبل في المدينة .

بأى حشاشة وبأى طرف
وهذى فيك ليس لها نصير
وفى تلك الهوارج ظاعنات
إذا أسفرن فانكسرت عيون
فيا تلك الذوائب هل صباح
ويا تلك اللاحاظ أرى عجيبا
ويا تلك المعاطف خبرينا
وقال :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق
فعسى يعينيك من شكوت له الهوى
لا تجزعن فلست أول مغرم
واصبر على هجر الحبيب فرما
كم ليلة أسهرت أحداق بها
يا رب قد بعد الذين أحبهم
واسود حظى عندهم لما سرى
عرب رأيت أصبح ميثاق لهم



أحاول فى الهوى عيشاً يطيب^(١)
وهذا منك ليس له نصيب
سرين وكل ذى وجه حبيب
لهن فتكن فانكسرت قلوب
فلى فى ليلكن أسمى مذيّب
سها ما كلما انكسرت تصيب
متى يتعطف الغصن الرطيب

واشرح هواك فكلنا مشتاق
فى حملة فالعاشقون رفاق
فتكت به الوجنات والأحداق
عاد الوصال وللهموى اخلاق
وجدا وللأفكار بى إحداق
عنى وقد ألف الفراق رفاق
فيه بنار صمابتي إحراق
ألا يصح لديهم ميثاق

وقال من قصيدة يمدح بها ابن عبد الظاهر من رؤساء ديوان الإنشاء فى
دولة المماليك :

ومعشر لم تزل للحرب يبيضهم^(٢)
إذا انتضوها بروقا صيرت سحبا^(٣)
حمر الحدود وما من شأنها الخجل
يسيل من عارضها عارض هطل

(٢) البيض : السيوف .

(١) الحشاشة : بقية الروح .

(٣) العارض : السحاب ويريد الدماء .

يثنى حديث الوغى أعطافهم طرباً
اضحت يدها لعقد الجود واسطة
يجود حتى تمل الناس أنعمه
سادت وسارت بها الأفواه معلنة
كأن ذكر المنايا بينهم غزل
فليس يدرى لجود بعدها عطل
وليس يدرى من بذلها ملل
فقد غدت مثلها يغدو بها المثل

وقال البوصيري يمدح النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدته المسماة بالبردة :
أمن تذكر جيران بذي سلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
فما لعينيك إن قلت اكفاهمتا
أيحسب الصب أن الحكم منكتم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى
ومنها :

أكرم بخيرنى زانه خلق
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف
لأنه وهو فرد من جلالته
ومنها فى وصف القرآن :
أكرم بالحسن مشتمل بالبشر متمسم
والبهر فى كرم والذهب فى همم
فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
آيات حق من الرحمن محدثة
قديمة صفة الموصوف بالقدم

- (١) ذو سلم : موضع بين مكة والمدينة .
(٢) كاظمة : اسم طريق إلى مكة ، واضم : واد يبتدى من غربى المدينة .
(٣) منسجم هائل منحد .
(٤) البان : شجر . والعلم : اسم جبل والمراد بهما هنا موضعان بالحجاز .
(٥) البهار : ورد أصفر . والغنم : ورد أحمر .
(٦) الترف : النظارة .

لم تقترن بزمان وهي تجربنا
 دامت لدينا ففاقت كل معجزة
 ردت بلاغتها دعوى معارضها
 لها معان كوج البحر في مدد
 فما تعد ولا تحصى عجائبها
 عن المعاد وعن عاد وعن إرم
 من النبیین إذ جاءت ولم تدم
 رد الغيور يد الجاني عن الحرم
 وفوق جوهره في الحسن والقيم
 ولا تسام على إلا كثار بالسأم^(١)

وقال من قصيدته الحمزية في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 كيف ترقى رقيق الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء
 لم يساووك في علاك وقد حا ل سني منك دونهم وسناء
 إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء
 أنت مصباح كل فضل فما تصدرا إلا عن ضوئك الأضواء
 ومنها :

سيدضحكه التبسم والمشى الهوينى ونومه الإغفاء
 ماسوى خلقه الذيم ولا غيـر محياه الروضة الغناء
 رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
 لا تحل البأساء منه عرا الصبر ولا تستخفه السراء
 كرمته نفسه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء
 عظمت نعمة الإله عليه فاستقلت لذكره العظام^(٢)
 جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
 وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

(١) تسام : توصف .

(٢) استقلت : أى عدوه قليلا . والضمير في لذكره يعود على المفعول به المحذوف أى استقلت جميع ما أنعم الله به عليهم .

شمس فضل تحقق الظن فيه إنه الشمس رفعة والضياء

✽ ✽ ✽

وقال صلاح الدين الصفدى من قصيدة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم
يعارض بها لامية كعب بن زهير :

سلموا الدموع فان الصب مشغول ولا تملوا ففى إملائها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى

هل فى الغرام الذى تبديه تبديل
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكم
أحبتى لاوعيش مرلى بكم
ما كان لى مذعرفت الوجد قط ولا
وقال التلعفرى :

حتام أرفل فى هواك وتغفل
يامضرما فى مهجتى بصدوده
القلب دل عليك إنك فى الدجى
هب أن خذك قد أصيب بعارض
قسما بحاجبك الذى لم ينفقد
وبماء ففرك من سلافة ريقه
حزنى وحسنك إن لغا من لا منى
لوكنت فى شرح الحبة عادلا
الحى عليك ولودرى بصبابتى
وعلام أهزل فى هواك وتهزل (١)
حرقا يكادهن يذبل يذبل (٢)
قمر السماء لأنه لك منزل
مابال صدغك راح وهو مسلسل
إلا أرانى السبى وهو محمل
عذبت فقيلى هى الرقيق السلسل
ونجوت منه مجمل ومفصل (٣)
ياظالمى ماكنت عنى تعدل
لأراخنى من لومه من يعذل (٤)

(١) أهزل : أضعف . وتهزل من الهزل وهو تقيض الجذ .

(٢) يذبل : يذبل الأولى فعل مضارع والثانية اسم جبل .

(٣) لغا : تكلم .

(٤) الحى : ألام .

عن سر ما أخفيه وهو المهمل
إن السلوكما تقول الأجل
تركته أيدي الهجر وهو مبطل
من جسمه في كل عضو مقتل

أو مادريت بأن دمعي معرب
يا آمري بساوه ليغري
لكن بغير خلاص قلب متيم
هيات كلا لا حياة لمن غدا
وقال :

لبعثتم قبل الخيال المناما
كلما سبجت أهيج غراما
واله القلب مغرما مستهاما
فسقاني نوح الحمام الحماما
عنكم عاذل يطيل الملاما
لاشفي الله منهم لي سقاما
لي على نانة الكشيب السلاما
لمشوق أبي الهوى أن يناما
فض عن ذلك الحديث ختاما
ثملا قد شربت منه مداما
قد بقي إن سمعت هذا الكلاما
مل فيه من طيب نشر الخزاما

لو رعيتهم للعاشقين ذماما
بنتم فأنثيت إلها لورق
ورثيتهم لمن غدا في هواكم
كان ظني أن الجمائم تشفي
لا وأيام قربكم مانهاي
كلما قال دعهم قلت دعني
يانسيم الصبا لعلك تقرى
خبذا أنت من رسول كريم
هات بالله لاعدمت رسولا
وأعده مكرراً لتراني
أنت لاشك ناصح لي ولكن
وإذا عدت قل لبردك أن يحـ

✱ ✱ ✱

وقال ابن الوردي :

وجوى يخلو وقلب يرجف
حكمه زاد الأسى والأسف
حر قلبي وهي لا تنصرف
حق لي أني عليه أقف

مربع يخلو ودمع يكف
وغرام كلما قلت انقضى
وصبايات مضافات إلى
ياحدة العيس هذا منزل

كم بدا لي فيه بدر طالع
مر لي فيه الزمان أهلاً
هل خليل بالبكا لي مسعد
ومنها :

رب عين تمنى رؤيتي
أنا في حلق حسودي غصة
أسفى والله من قولي أنا
لكن الحاسد قد كلفني
وذكي بحماتي يحلف
وبه مني أذى لا يوصف
كلمة ذو العقل منها يأنف
ذكر شيء تركه لي الشرف

* * *

وقال سراج الدين الوراق :

شمت برقاً من ثغرها الوضاح
فماری شکی به ویقینی
فأجابت متى تبسم صبح
سل رحيق المسكوب تسأل خميراً
قلت مالي وللسكاري فقالت
حجة من مليحة قطعني
لا ولحظ كفترة النرجس الغ
ماتيقنت بل ظننت وما في الظ
وكثيراً شبهت بالبدر والشمه
والدجى سيره مهيمض الجناح
هل نجلى الصباح قبل الصباح
عن حباب أولؤلؤ أو أقاح^(١)
باغتباق من خمرة واصطباح^(٢)
أنت أيضاً من الهوى غير صاح
هكذا كل حجة للملاح
ض وخذ كحمره التفاح^(٣)
ن ياهذه كبير جناح
س وساحت فارجعي بسماح

(١) الحباب : الفقايع . الأفحوان : نبات له زهر أبيض .

(٢) الاغتباق : الشرب ليلاً ، والاصطباح : الشرب صباحاً .

(٣) الفترة : الانكسار والضعف .

وقال ابن حجة الحموى فى بديعته .

لى فى ابتداء مدحك يا عرب ذى سلم
بالله سربى فسر بى طلقوا وطنى
ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدى
وذيل الهم همل الدمع لى فجرى

ومنها

واستخدموا العين منى وهى جارية
والطى والنشر والتغيير مع قصر
ومن غدا قسمه التشبيب فى غزل
محمد بن الذبيحىن الأمين أبوال
أبدى البديع له الوصف البديع وفى
ومذهبى فى كلامى أن بعثته
فعله وافر والزهر ناسبه
آدابه تمت لانقص يدخلها

وقد سمحت بها أيام عسرهم
للظهر والعظم والأحوال والهمم
حسن التخلص بالختار من قسمى^(١)
بمقول خير نبى فى اطراهم
نظم البديع حلا ترديده بغمى
لو لم تكن ماتمىزنا عن الأمم
وحلمه ظاهر عن كل مجترم
والوجه تكميله فى غاية العظم

* * *

هذه طائفة من المأثور فى هذا العصر ، ولعلها تمثل أ كثر ما كان للشعر من
خصائص فى أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه . وانك لتلمح فى بعض الشعراء نزوعا
إلى الغزل وفى بعضهم صبغة فقهية أو علمية أحيانا ، وفى بعضهم ميلا إلى التلاعب
بالألفاظ . ولعلك لانجد من المعانى المبتكرة كثيرا . وترى مساحة عامة هى سهولة
اللفظ ، وتبين ظاهرة شاملة وهى الصناعة اللفظية .

وإننا نوجز القول فى هذه الخصائص ضار بين لها أمثلة غير ما مر بك .
ولكى تتصل أطراف البحث وترتبط الأسباب بالنتائج نذكر لك قبل ذلك

(١) القسم بالسكون : الخلق والعادة .

ما أحاط بالشعراء من عوامل اجتماعية كان لها أثر في شعرهم وفي حظهم من الحياة .
منزلة الشعر وحظ الشعراء :

لم يكن للشعر ولا للشعراء في هذا العصر حظ من التشجيع ، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين ، أحدهما خاص بسلاطين المماليك ، والثاني متصل بالشعراء وحياتهم وبيئتهم .
أما سلاطين المماليك :

١ — فلم يكن لأكثرهم إلمام باللغة العربية ، وكان حظهم من فهمها وإدراك أسرارها كاسدا ، ولم يكن لهم الذوق الأدبي الذي يتجه بهم إلى الإعجاب بالشعر واستحسان جيده . فلم يجد الشعراء من إقبال السلاطين ما يشحذ مواهبهم ولم تصادف بضاعتهم رواجاً في مجالس الحكام وذوى الشأن في البلاد .

٢ — قل من هؤلاء السلاطين من اختص بشاعر كما كانت الحال في العصر العباسي ، ولم يكن منهم من يقدر الشعر ، إلا ما كان من آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد والغوري .

٣ — لم يظفر الشعراء بالهبات والعطايا التي تطلق ألسنتهم وتفتح أفواههم وتوقظ قلوبهم ، وإن سلاطين المماليك وإن شجعوا المؤلفين كما أشرنا من قبل لم يكن للشعر ولا للشعراء حظ من إغداقهم ، وذلك لبعدهم عن إدراك محاسنه .
وأما الشعراء :

١ — فلم يكن حظهم من خلو البال موفوراً ، لأنهم لم يجدوا في الشعر غناء أو مرتزقاً يقيم أودهم ، فشغلوا بتكاليف الحياة ومطالبها ، وانصرفوا إلى حرف يكسبون منها قوتهم ، حتى كان منهم الكحال والدهان والجزار إلى غير ذلك . وإن ابن نباته على عظيم شهرته في عصره لم يكن يجد الكفاف إلا بشق النفس .

٢ — كانت الحياة خالية من أسباب اللهو والمرح ، مما يبعث نشاط النفس وانتعاشها ، ويحفز إلى الترنم بحميد القول والتغريد في أفنان البيان .

٣ — كان سلاطين الممالك أقرب إلى الجدي في حياتهم وأبعد عن دواعي الترف ، وكان عصرهم في جملة عصر شدة وكفاح .

ومن هذا يتضح أن البواعث على قول الشعر لم تكن متوافرة . على أن هذا لم يعقد الألسنة ولم يثني همم الشعراء عن التحليق في ميدان الفن . فان فطرتهم كانت تدفعهم إلى أن يهيموا في أودية القول ، وأن يترنموا بعذب الألفاظ ، وأن يتنافسوا في قرض الشعر جريا على ما رسخ في نفوسهم من تقليد شعري تترنح به أعطافهم وتجري به ألسنتهم .

أغراض الشعر :

إن فتور الهمم وكساد الحياة الأدبية ، والانصراف عن تشجيع الشعراء وتقدير الجيد من القول ، قد صرف القرائح عن نبيل الأغراض الشعرية ، فلم يكن للشعراء في حلبة الإلهام الرصين جولات ، ولم يخلقوا في سماء المقاصد الفطرية الرفيعة ، واتجهوا في ناحية من أشعارهم إلى الخلاعة والمجانة ، وفي ناحية أخرى إلى الغزل الصناعي الذي لا ينبعث عن وحي من عاطفة صادقة ، حتى كان هذا الغزل يصدر أحيانا عن العلماء ومشايخ الصوفية ممن لم يتعلق وجدانهم بحب شعري أو هوى عذري ، واتجه بعضهم إلى وصف الأشياء التافهة وإلى الألفاظ والأجاجة كقول النواجي يصف الخددة :

في نفع ولذة للنفوس وحياة وراحة للجلوس
كم نديم أرحته باتسكاء وتواضعت عند رفع الرؤوس
وقول ابن نباته يصف البساط :

بساط يملأ الأحداق حسنا ويهدي للقلوب بها سرورا
ويشرح حين يبسط كل صدر وخير البسط ما يرضى الصدورا
وقول ابن الوردي في وصف رقعته المصلى :

سجادة أذ كرتني منك التي كنت أعلم

أهديتها لحب صلى عليها وسلم
وقول النابلسي في سراج :

ما اسم تراه في النها
وإن طرحت الربع منه
ر كاسدا إذ لا احتياج
ه في الدجى تلقاه راج

وشاع في هذا العصر نظم المقطعات والأبيات القليلة ، لأن الشعراء قصدوا
منها إلى إبراز نكتة أو سرد طرفة . وقد شاع كذلك من فنون الشعر نوعان :
أولهما : مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وأول من بدأ بذلك البوصيري في
قصيدة البردة ، ثم نهج نهجه شعراء آخرون .

ثانيهما : البديعيات ، وهي قصائد من بحر البسيط يشتمل كل بيت منها على
نوع من البديع وقد يشير الشاعر في البيت إلى اسم النوع مثل بديعية ابن حجة
والذي أوحى بهذا النوع هو قصيدة البردة للبوصيري ولذا نرى البديعيات على
وزنها ورويتها .

معانيه :

الثقافة من الأسباب التي تنهض بمعاني الشعر وتوحى بالابتكار وتوجه الأذهان
إلى الطريف الجديد . والأدباء والشعراء في هذا العصر لم يكن لهم نصيب يذكر
من دراسة العلوم الكونية ، لهذا أجذبت حقول الفكر ، وقل الاختراع ، ولم تكن
الجولات الشعرية إلا في ميدان محدود الأطراف تسيطر عليه الحاكاة وتكرار
المعاني التي طرقها السابقون . وقد تجلّى لك فيما سقناه من نماذج ما يبين هذا .

ألفاظه وأساليبه :

قد غلب على ألفاظ الشعر السهولة والتراكيب اللينة البعيدة عن الجزالة
وتسرّبت إليها العامية والعبارات الركيكة . وإن أظهرها ما يلاحظ على أساليب
الشعر هو التغالى في الصناعة اللفظية ، والحرص على زخرف القول من فنون

البديع كالتورية والاستخدام والتضمين ومراعاة النظير، وحسن التعليل والجناس
واللعب بالحروف . وهاك بعض الأمثلة :

قال القيراطي :

أسدى ثم اللحم تحت طاق له والدمع يجري كل وقفه
فيكم يوماً عبرت له زقاقا أحاول غفلة وأروم عطفه
وقال نصير الدين الحمامي :

جودوا لنسـ جمع بالمديح على علام سرمدا
فالطير أحسن ما يغـر عند ما يقع الندى (١)

وقال :

أبيات شعرك كالقصو ر ولا قصور بها يعوق (٢)
ومن العجائب لفظها حرر ومعناها رقيق (٣)
وقال ابن نباتة :

بروحى حيرة أبقوا دموعى وقد رحلوا بقلبي واصطبارى
كأننا للمجاورة اقتسمنا فقلبي جارهم والدمع جارى
وقال :

تاملت من بعد الصبا خال وجنة لغيداء لم أطمع بعود وصالها
وكننت أخا سعدى فأصبحت عمها فهيئات لى جد بتقميل خالها (٤)

(١) الندى : الجود وأيضا البلل والمطر .

(٢) القصور جمع قصر . ولا قصور : أى لا عيب .

(٣) الرقيق : ضد الحر وأيضا من الرقة واللاطفة . وكلة حر معناها : ضد العبد وأيضا
الجيد المختار من اللفظ .

(٤) الحال : شامة في البدن . ويريد بقوله فأصبحت عما أنه قد أصبح كبير السن وأن
الفوانى يدعونه عمهن كما قال الشاعر :

دعاني الفوانى عمهن وختنى لى اسم فلا أدعى به وهو أول

وقال :

أتانى على البانياسى منشدا
مكر مفر مقبل مدبر معاً
فيالك من شعر ثقيل مطول
كجامود صخر حطه السيل من عل (ى)

وقال :

وضعت سلاح الصبر عنه فماله
وسال عذار حول خديه جائر
يقاتل بالأحياظ من لا يقاتله
على مهجتي فليتيق الله سائله

وقال :

وما سمى الغيث الهتون سحابة
سوى أنه من خجله يتسحب

وقال :

شكراً لأقلامك الالآتى جرت لمدى
حلت وأطربت المصغى وحزت بها
فى الفضل أبقي لباغى شأوه التعبا
فضل السباق فسماها الورى قصبا

وقال :

وافر المسكرات منسرح اللف
سظ طويل الشنا مديد الشواب

وقال :

آه لشرخ شباب كان لى ومضى
واعترضت شرخا ولكن ماله خاء

وقال :

وزير التقي هل أنت فى العشر عاطف
وما العشر إلا العسر فى كل حالة
على فاقتى بين الورى وخضوعى^(١)
ولسكننى نقته بدم ———وعى

وقال ناصر الدين بن النقيب :

أقول وقد شنو إلى الحرب غارة
دعونى فإنى آ كل العيش بالجين

(١) يريد بالعشر : طائر المحرم وهو يوم توسعة .

وقال صلاح الدين الصفدى :

لما زها زهر الربيع بروضه
قام الحمام له خطيبا بالهنا
وغدا له فضل ينير لديه
وجرى الغدير فخر بين يديه
وقال ابن وردى :

لحيبي شامة فى خـده
رب عين دهشت منه فقد
لا علا قدر حسود شأنها
نسيت فى خده إنسانها
وقال :

تجنب أصدقاءك أو تفاقل
وإن يتكذبوا يوما فعذرا
لهم تظفر بودهم المتين
فان القوم من ماء وطنين
وقال :

لما رأى الزهر الشقيق انثى
قلنا على رسلك قال اسكتوا
منهزما لم يستطع لمحـه
جاء شقيق عارضا رحمه
وكان الناظر على عمارة المدرسة المؤيدية بهاء الدين بن البرجى ، وحدث بعد
بنائها بسنة أن مالت المئذنة التى على البرج الشمالى لباب زويلة ، فقال تقي الدين
ابن حجة :

على البرج من بابى زويلة أنشئت
فأخنى بها البرج اللعين أمالها
منارة بيت الله للعمل المنجى
ألا صرحوا ياقوم باللعن للبرج (ى)
وقال الحافظ بن حجر يهجو قاضى القضاة بدر الدين العيني :

لجامع مولانا المؤيد رونق
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا
منارته بالحسن تزهو وبالزين
فليس على جسمى أضر من العين (ى)
فقال العيني :

منارة كعروس الحسن إذا جلـيت
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط
وهدمها بقضاء الله والقـدر
ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

(الأزجال):

إن بعد الممالك والأمراء عن تذوق الشعر جعلهم يقبلون على اللغة العامية
ويشجعون النظم بها، ولذلك شاعت الأزجال العامية والمواليا والقوما وكان وكان^(١)
ونبغ فيها فريق ممن تصدوا لقول الشعر. ومن أشهر الزجالين الشيخ خلف
الغبارى زجال آل قلاوون.
وهاك أمثلة للزجل:

قال الشيخ خلف الغبارى حين تولى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق ونودى
به فى القاهرة^(٢):

أشرقت شمس دولة المسلمين	وزها نجم سعدها الزاهر
وصبح يوم العدل نور وظهر	واختفى ليل الظالم بالظاهر
مصر صارت روضة بهذا الملك	زاهيا طيب عبيرها منشوق
وبالأحمر تفاحها فى البياض	قد تخضب لسلطنة برقوق
ورأينا الشمس بلا زعفران	صار مخلق بحملة المخلوق
حمل البان سناجقو الزاهرة	قابلتها شطقات من التامر ^(٣)
زقق الطير شاويش وغنى الحمام	رقص الغصن والنسيم الزامر

(١) هي أنواع من الزجل، فالمواليا أول من اخترعته مولاة للبرامكة كانت تراثهم وتصبح
بعد كل قطعة منه (وامواليه) فسمى بذلك ووزنه فى الغالب من بحر البسيط مع ثلاث أعاريض
يشبهها ضربها وهى (فاعلن فعلن وفعلان). والقوما: كان يوقظ به الناس فى رمضان،
يقول بعضهم لبعض (قوما لفسحر) وقد اخترعه البغداديون. ووزنه (مستفعلن فعلان).
وكان وكان اخترعه البغداديون أيضا وسمى بذلك لأنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات،
فكان قائله يحكى ما كان. ووزنه أربعة أقسام الأول: (مستفعلن فاعلاتن) والثانى (مستفعلن
مستعلن) أو (مستفعلن مستفعلن) والثالث مثل الأول، والرابع (مستفعلن فعلان).

(٢) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٢٥٩

(٣) الشطفة: القطعة أو علامة خضراء على عمام الأشراف وهى عامية.

وقال في الملك الأشرف شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون^(١)

حب قلبي شعبان موفق رشيد وجمالو أشرق ومالو حدود
وأبوه الحسن وعمه الحسن وارث الملك من حدود الجدود
سل لخطك صارم لقتل العدا وأنت منصور طول المدى والسنين
زعم السعد بين يديك شاوئش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسي على المملكة وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت

خفقت في الركوب عليك البنود^(٢)

فاحكم احكم في مصرنا سلطان

فجميع للملاح لحسنك جنود

وفي تاريخ ابن إياس وكتاب فوات الوفيات أمثلة كثيرة للزجل .

ومن المواليا قول بعضهم

يا عبد ابكى على فعل المعاصي ونوح هم فین جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجي لك في صفة مركب ترمي حمولها على شط البحور وتروح

ومن القوما قول ابن أبي نقطة

يا سيد السادات لك في الكرم عادات

أنا ابن أبو نقطة تعيش أبويا مات

ومن كان وكان قول بعضهم

تحضر والكن قلبك غايب وذهنك مشغل

فكيف يا متخلف تحسب مع الحضار

(١) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٢١٣

(٢) العصايب : جمع عصابة وهي ما تعصب به الرأس أو العمامة .

الكتابة في عصر المهاليك

نذكر بعض النماذج للكتابة في هذا العصر توضح خصائصها ومميزاتها :
للقلقشمدى صاحب كتاب صبح الأعشى من رسالة في المفارقة بين العلوم^(١)
الحمد لله الذى جعل العلم جلالاته تود جلال الفضائل أن تكون له أتباعا ،
وأطلق السنة الأقلام من جميل ثنائه بما انطق به السنة العالم ليكون الحكم بما
ثبت من مأمور فضله إجماعا ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم
الزكية فنعش قلوبا ونزه أبصارا وشنف أسماعا .
ومنها : علم اللغة . قال :

لقد علمتم معشر العلوم أنى أعمكم نفعا ، وأوسعكم مجالا ، وأكثركم جمعا ، على
قطب فلسفى تدور الدوائر ، وبواسطى تترك المقاصد ويستعلم ما فى الضمائر ،
وبدلالاتى تعلم المعانى المفردات ، ويتميز ما يدل على الأدوات ، وتبين دلالات
العام والخاص ، ويتعرف ما يرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالأشخاص
على أن كلكم كلُّ على ، ومحتاج فى ترجمة مقصوده إلى ، فلفطى « المحكم »^(٢)
والفاظى « الصحاح » وكلامى « الجامع » وسيف لسانى « الجرد » ناهيك من
سلاح ، وفضلى « الجمل » لا يحتاج إلى بيان ، استأثر الله بتعليمى لآدم عليه
السلام وآثره بى معرفة على الملائكة فكان خصيصى له على الملائكة الكرام .
فلما انقضى قيله ، وبانت للمستنير سبيله ، ثاب إليه علم التصريف مبتدرا
ولنفسه ولسائر العلوم منتصرا ، فقال : رويدك أيها المساجل وعلى رسلك ياذا

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٠٤

(٢) المحكم : اسم معجم وكذا الألفاظ بعده .

المناضل فقد ذل من ليس له ناصر ، وحط من ترفع على أبناء جنسه ولو عقدت عليه الخناصر ، وما يجدى البازى بغير جناح ، أو يغنى الساعى إلى الحرب بغير سلاح ، وأنى يطعن رشح بغير سنان ، أو يقطع سيف لم يؤيد بقائم ولم تقبض عليه بنان ، إنك وإن حويت فضلا ، وأعرت أصلا ، وكنت للكلام نظاما ، وإلى بيان المقاصد إماما ، فأنت غير مستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ، بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ، بى تعرف أصول أبنية الكلمة فى جميع أحوالها ، وكيفية التصرف فى أسمائها وأفعالها الخ .

فقال علم الشعر . أراكم قد نسيتم فضلى الذى به فضلتم ، وصرتم حبلى الذى من أجله وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، على تردون ، وعني تصدرون وإلى تنسبون ، وبى تشتهرون ، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم رفع وضعا ، وجلب نفعا ، ووصل قطعا ، وجبر صدعا ، والهجو الذى حط قدراً وأخذ ذكراً . وجعل بين الرفيع والوضيع فى حظيطة القدر نسباً وصهراً ، إلى غير ذلك من أنواعى الشعرية التى شاع ذكرها ، وأضواعى العظمية التى فاح نشرها ، بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب ، وعديلي فى لسان العرب ، لم يزل أهله يتطفلون على فى بيت يحلونه ، ويقفون من بديع محاسنى عند حل لا يتعدونه

فقال علم التاريخ : اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتهم ، وقرؤا عينا فالى القصد الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل — والله الحمد — حصلتم ، فقد بلوت الأوائل والأواخر ، وخبرت حال المتقدم والمعاصر ، فلم أرفيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره واشتهر ، من ذوى المراتب العلمية ، والمناصب السنية ، من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ، (يريد علم الأخلاق) أو يدانيه فى المعروف قولاً وفعلًا ، قد لبس شرفاً لا تطمع الأيام فى خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى نزعہ ، وانتهى إليه المجد

فوقف ، وعرف الكرم مكانه فاحاز إليه وعطف ، وحلت الرياسة بفنائه
فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفئاته فألقت عصاها واستقر بها النوى ،
فقصرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من يناويه ، واجتمعت الألسن
على تقريره ^(١) فمدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل
قلب مكان .

ولم يخل من إحسانه لفظ مخبر ولم يخل من تقريره بطن دفتر
فهو الحرى بأن يكتب بأقلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات
الأيام حميد مطالبه ، فلا يذهب على ممر الأيام ذكرها ، ولا يزول على توالى
الدهور فخرها .

وله من رسالة أخرى فى المفاخرة بين السيف والقلم ^(٢)

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا فى الجد وتقاربا ، وأخذا بطرفى الشرف
وتجاذبا ، إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر السكال ، وسعدين يجتمعان فى دائرة
الاعتدال ، ونجمين يهريان إلى المعالى ، ومصاحبين يستضاء بهما فى حنادس
الليالى ، وقاعدتين تبنى الدول على أركانها ، وشجرتين يجتنى العز من أغصانها
جر كل منهما ثوب الخيلاء فخرأ فشى وتبختر ، وأسبل رداء العجب فيها فما
تخيل ولا تعثر ، واتسع له المجال فى الدعوى فجال ، وطاوعته يد المقال فقال وطال ،
وتطرقت إليهما عقارب الشحناء ودبت ، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت ،
وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى ، وباح بما يكنه صدره والمؤمن
لا يكون حبل ، وبدأ القلم فتكلم ، ومضى فى الكلام بصدق وعزم فما توقف
ولا تلغم ، فقال :

(١) التقرير : المدح .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٣٢

باسم الله تعالى أستفتح ، وبحمده أتضمن وأستنجح ، إذ من شأنى الكتابة ،
ومن فى الخطابة ، وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجزم ؛ وكل
كلام لا يفتح بحمده فأساسه غير محكم ، ودواؤه غير معلم ، والعاقل من أتى الأمر
من فصره ^(١) وأخذ الحديث بنصه ، والحق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن
يترك فلا يصغى إليه ولا يستمع ، إني لأول مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة
والمستحق لقصب السبق من غير منازعة ، أقسم الله تعالى بى فى كتابه ، وشرفنى
بالذكر فى كلامه لرسوله وخطابه ، فقال جل من قائل : (ن والقلم وما يسطرون
ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . وقال جلت قدرته : (اقرأ وربك الأكرم ،
الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فكان لى من الفضل وافر القسمة ،
وخصصت بكمال المعرفة ، فجمعت شوارد العلوم ، وكنت قيم الحكمة .

وقال السيف . باسم الله والله أكبر . « نصر من الله وفتح قريب » لسل
باغ مصرع ، وللصائل بالعدوان مهلك لا ينجو منه ولا ينجع ، وفتح باب الشر
يغلق به ، وقادح زند الحرب يحرق بلهيه ، أقول بموجب استدلالك ، وأوجب
الاعتراض عليك من مقالك .

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المعنى بما
هناك ، إن ذلك لمعنى يكل فهمك عن إدراكه ، ويضل نجمك أن يسرى فى
أفلاكه ، وأنت وإن ذكرت فى التنزيل ؛ وتمسكت من الامتنان بك فى قوله تعالى
(علم بالقلم) بشبهة التفضيل ، فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرملك
من مس أنامله الشريفة ما يؤسى على فوته ويسر محصوله ، لىكنى قد نلت من
هذه المرتبة أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد ، وحلانى من
كفه شرفاً لا يزول حليمه أبداً ، وقمت بنصره فى كل معترك ، وسل حمينا ،

(١) أى من أصله وحقيقته .

وسل بداراً وسل أحداً^(١) ذكر الله تعالى في القرآن الكريم جنسى الذى أنا
نوعه الأكبر ونبه على ما فيه من المنافع التى هى من نفعك أعم وأشهر ، وما اجتمع
فيه من عظيمى الشدة والبأس ، فقال تقدست عظمته : « وأنزلنا الحديد فيه بأس
شديد ومنافع للناس » . على أنك لو اعتبرت جنسى القصب والحديد ، وعرفت
الكليل منهما والجليد ، لتحققت تسلط الحديد عليك قطا وبريا ، وتحكمه فيك
أمراً ونهياً .

فقال القلم : فررت من الشريعة وعدلها ، وعولت على الطبيعة وجهلها ،
فافتخرت بحيفك وعدوانك ، واعتمدت فى الفضل على تعديك وطغيانك ،
فلمت إلى الظلم الذى هو إليك أقرب ، وغلب عليك طبعك فى الجور والطبع
أغلب ، فلا فتنة إلا وأنت أساسها ، ولا غارة إلا وأنت رأسها ، ولا شر إلا
وأنت فاتح بابه ، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه ، تؤكد مواقع الجفاء ،
وتكدر أوقات الصفاء ، وتؤثر القساوة . وتؤثر العداوة ، أما أنا فالحق مذهبي
والصدق مركبي والعدل شيمتي ، وحلية الفضل زينتي ، إن حكمت أقسست ،
وإن استحفظت حفظت وما فرطت ، لا أفشى سرا يريد صاحبه كتمه ، ولا
أكتم علماً ينبغى متعلمه علمه ، مع عموم الحاجة إلى ، والافتقار إلى علمي ،
والاكتساب بما لدى ، أدير فى القرطاس كسات خمرى فأزرى بالمزامير وأهزأ
بالمزاهر ، وأنفث فيه سحر بياني فألعب بالألباب وأستجلب الخواطر ، وأنفذ
جيوش سطورى على بعد فأهزم العساكر .

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم والبيض ما سلت من الأغناد
فقال السيف . أطلت الغيبة ، وجئت بالخيبة ، وسكت ألفا ، ونطقت خلفاً^(٢)
السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

(١) حنين ، بدر ، أحد : غزوات معروفة فى التاريخ الاسلامى .

(٢) الخلف : الردىء من القول وهذا مثل يضرب لمن كف زمانا طويلاً ثم جاء بالردىء

إن نجادى حليلة للعواقب ، ومصاحبتى أمنة من البوائق ، ما تقلدنى عاتق
 الآبات عزيزاً . ولا توسدنى ساعد إلا كنت له حرزاً حريزاً ، أمرى المطاع ؛
 وقولى المستمع ، ورأى المصوب وحكى المنبع ، لم أزل للنصر مفتاحاً ، وللظلام
 مصباحاً ، وللعز قائداً ، وللعداة ذاذاً ، فأنى لك بمساجلتى ، ومقاومتى فى الفخر
 ومنافرتى ؟ مع عرى جسمك ونخافة بدنك واسراع تلافك وقصر زمنك وبخس
 أمانك على بعد وطنك . وما أنت عليه من جرى دمك وضيق ذرعك . وتفرق
 جمعك . وقصر باعك . وقلة أتباعك .

فقال القلم : مهلاً أيها المساجل ، وعلى رجلك أيها المغالب والمناضل ، لقد
 أخشت مقالا ، ونمت محالا ، فغادرتك سبل الإصابة ، وخرجت عن جادة
 الإنابة ، وسوت سمعاً فأسأت إجابة ، إني لمبارك الطلعة وسيمها ، شريف النفس كريمها ،
 آخذ بالفضائل من جميع جهاتها ، مستوف للمدائح بسائر صفاتها ، فطائرى ميمون
 وغولى مأمون ، وعطائى غير ممنون ، أصل وتقطع ، وأعطى وتمنع ، وتفرق وأجمع
 وإن ازدراءك بى من الكبر المنهى عنه ، وغضبك عنى من العجب المستعاذ منه
 ومن حقر شيئاً قتله ، ومن استهان بفاضل فضلة ، وإنى وإن صغر جرمى لكبير
 الفعال ، وإن نحف بدنى فإنى لشديد البأس عند النزال ، وإن عرى جسمى فكم
 كسوت عارياً ، وإن جرى دمى فكم أرويت ظامياً ، وإن ضاق ذرعى فإنى
 بسعة المجال مشهور ، وإن قصر باعى فكم أطلقت أسيراً وأنافى سجن الدواة مأسور ،
 إذا امتطيت طرسى ، وتدرعت نقسى ^(١) وتقلدت خمسى ، وجاشت على
 الأعداء نفسى .

رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضنى ^(٢) وسمينا خطبه وهو ناحل

(١) النفس بالكسر المداد .

(٢) الضنى : المرض .

أنسيت إذ أنت في المعدن تراب تداس بالأقدام ؟ وتنسفك الرياح وتزرى
بك الأيام ؟ ثم صرت إلى القين تقعد لك السنادين ^(١) بالمرصد ، وتدمغك
المقامع ^(٢) وتسطو بك المبارد ، ثم لولا صقالك لذهبك الجرب وأكلك الصدا
مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنسرت البغاث ، فعد
العصفور نفسه من طير الواجب ^(٣) ، وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن
آوى على الأسد يشرده ، فلوعرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء
جنسك ، ووقفت عندما حد لك ، وذكرت عجزك وكسلك ، لكان أجدر بك
وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدني لمهماتهما ، وتستنجدني في ملهماتهما ، وتتعالى في نسبي ، وتتغالى
في حسبي ، وتتنافس في قنيني وتمتحاسد ، وتجعلني عرضة لأيمانها فتتعاهد بالحلف
على وتتعاهد ، وتدخرني في خزائنها ادخار الأعلاق ، وتعدني أنفس ذخائرها على
الإطلاق ، فتكلمني بالجواهر وتحليني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ، أبرز للشجعان
خدي الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوالف ^(٤) وأزهو بقدي فأسلمهم هيف
القدود مع لين المعاطف ، وأوهم الظمان من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيل
للمقرور من بعد أنى جذوة نار فيطلبني على المدى الطويل ، ويخالني متوقع الغيث
برقاً لامعاً ، ويظنني الجائز في الشرق نجماً طالعا ، فالشمس من شعاعى في خجل ،
والليل من ضوئى في وجل ، وما أسرعت في طلب ثأر الإقيل « فات ماذبح »
و « سبق السيف العذل » ... الخ .

(١) السنادين : جمع سندان للحداد .

(٢) المقامع : جمع مقمعة وهى عمود أو خشبة يضرب بها .

(٣) الواجب عند أهل الرمي : طيور مخصوصة (شفاء الغليل) .

(٤) السوالف : جمع سالفة وهى مقدم العنق من لدن معلق القرط .

وقال القاصي محي الدين بن عبد الظاهر من كتاب إلى صاحب اليمن عن
السلطان الملك المنصور قلاوون مبشرا بفتح أحد الحصون :

فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ
بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزيون ، وغدا جاذبا بضبع^(١) الشام ،
وأخذا بمخائق بلاد الإسلام ، وشللا في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد ، تنقض
من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ،
وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام ، وتفوق من قسيه سهام تصمى مفوقات
السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفى كرام أموالهم وهم
صابرون لامصابرون^(٢) ، كم شكت منه حماة قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة
وما من معرة خاف ، مازالت أبدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من
جور جواره تلك الحصون والصياصي^(٣) ، وتبكي بدمع نهر من تأثير آثاره مع
عصيانها وناهيك بدمع العاصي^(٤) ، حتى نبه الله الحافظ سيوف الإسلام من
جفونها ، ووفى النصر ماوجب من ديونها ، وذاك بأنا قصدنا فسيح ربه ،
ونزلنا ونازلنا محمي صقعه ، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس
هو كالراحة وهي كالأنامل ، وتكاد بوجهه ترى كالمطايا المقطرة^(٥) وهي منها
بمنزلة الزوامل^(٦) ماخيمينابه حتى استبحنا محمي تلك المدائن المسكنى عنها بالأرباض ،
وأسحنا بساحتها بحرا من الحديد ما اندفع حتى فاض ، وأخذنا الثقوب في أسوار
لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص ، ولانقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من

(١) الضبع : العضد أو وسطها أو الإبط .

(٢) مصابرون : مغالبون في الصبر على الشدائد .

(٣) الصياصي : الحصون الرفيعة .

(٤) العاصي : نهر عليه مدينة حماة .

(٥) المقطرة : التي يقرب بعضها من بعض .

(٦) الزوامل : جمع زاملة وهي الدابة التي يحمل عليها كالإبل وغيرها .

نقوش الفصوص ، ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهد الجبال ، على رؤوس
الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وأن منامنها
إلا له من الأيدى والرؤوس مقام معلوم ، وصار يرمى بها كل كى مختلس وأروع
منهس^(١) وكل ليث غابة يحميها وتحميها ، فشكراً للأسود حتى غاباتها تفترس
إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب
فصارت تميل من العجب ، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب . . .

ومن رسالة في صيد السلطان الملك الناصر بن السلطان المنصور قلاوون من
إنشاء القاضي تاح الدين^(٢)

الحمد لله الذي نسم النفوس الشريفة بادراك الظفر ، وأنعم على هذه الأمة
بمحمد الذي أنار كوكب نصره وسفر ، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه
وسلم الغنيمة في السفر ، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حفت
أيامه بالعز والتأييد والظفر .

وبعد فإن في ابتغاء النصر ملاذ تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجيا
التي تعارفت بالفخار واثقلت ، وتناولها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه
صرفت ، ومنشئوها من حالتين : إما في موقف عز عندما تلمع بروق الصفاح ،
وتشيب من هول الحرب رؤوس الرماح ، وتسرح جوارح النبال لتحل في الجوارح
وتصيد في الأرواح ، وإما في موطن سلم عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات
الجياد في الأمن والدعة ، وتنسرح الصدور إلى معاطاة الصيود والمسرات مجتمعة ،
وتطلق البزاة فتصيد ، وتتصرف بأمر الملوك الصيد وترسل الحوامي^(٣) الممسكة ،

(١) منهس : النهس النهس .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٦٥ .

(٣) الحوامي : الكلاب . والممسكة التي في قوائمها بياض .

وتلقى على ماسنح من الوحش فلا ترى إلا مدركة ، وتفاض حينئذ النعم السلطانية
وتجزل مواهبها ، وتلوح العصاة الشريفة وتنبعث مواكبها .
وكان الله تعالى قد جمع للمواقف الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، الملكية ؛
الناصرية — خلد الله سلطانها — سعادة الخالقين حربا وسلاما ، وآتاه فيهما النصر
الأرفع والعز الأسمى ، ووسم بصداقاته وعزماته الأمرين وسما ، ونصره نعمتا وعظمه
سمعة وشرفه اسما ، فأيام حروبه كلها رفعة وانتصار ، واستيلاء واستظهار ^(١) وقوة
يحييها المؤمنون وتفتي الكفار ، وأيام سلامه كلها عدل وهبة ، وصداقات منجية
ومحفوظ الحوزة الإسلامية من كل بأس ووقايتها من كل شدة ، وفي خلال كل
عام تصرف عزائم الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير : لما في ذلك من تمرين
النفوس على اكتساب التأييد ، وحصول المسرة بكل ظفر جديد ، فيرسم — خلد
الله سلطانها — في الوقت الذي يرسم به من مشتى كل عام باخراج الدهليز المنصور
فينصب في بر الجزيرة بسفح الهرم ، في كل ساعة مباركة آخذة في إقبال الجود
والكرم ، فتدب بالتأييد أطنا به ، وترفع على عمد النصر قبابه ، ويحاط بحراس
الملائك الكرام رحابه ، وتضرب خيام الأمراء حوله وطا ^(٢) ، وتحف به مثل
النجوم بالبدر إشراقا ، ويستقل الركاب الشريف — شرفه الله — بعد ذلك
بقصد عبور النيل المبارك فيظهر من القلعة المحروسة والسلامة تحمية من الخافة ،
والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى من المسافة ، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية
وشافه ، ومما ليكه الأمراء قد حفوا به أطلابا ^(٣) ، وسنى موكبه قد بعث أمامه
من الاضاءة نجابا ^(٤) ، ولم يزل حتى يأتي النيل المبارك ويستوى على الكرسي

(١) غلب .

(٢) الوطاق : الحيمة . تركية .

(٣) جماعات .

(٤) النجاء كشداد اسم للبريد ، وقد قالوا القمر نجاب الشمس (شفاء الليل)

في الفلك المشحون ، محوطا بالنصر الميمون والجيش المأمون ، وقد استبشر
 باعتلائه البحر والنون ، وأضحى لظهر الفلك من الفخار بحضرة المكرمة ،
 بالصهوات أجياده العتاق المسومة ، فلهذا نشر أعلام بشرها وقال : « اركبوا
 فيها باسم الله مجريها ومرساها » فسارت به في اليم ونصر الله قد تم ، وصعد من
 فلكه ، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزة ملكه ، واستقر على
 جواد شرفت صهوته ، وقرنت بالأناة والسكون خطوته ، عربى النجار ، يختال
 في سيره كما انتشى من العقار ، وسار في زروع مخضرة ، وثغور نبات مفترة ، وقد
 طلعت للظفر شموسه وبدوره ، وأعدت للصيد بزاته وصقوره ؛ من كل متوقد
 اللحظ في الشهامة ، محمول على الراحة من فرط الكرامة ، يتوسم فيه النجاح
 قبل خفق الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب
 يحى بالظفر ويذهب ، يصدر مفضض وناظر مذهب ، له منسر أقنى ، طالما أغنى ،
 كأنما هو شبا السنان وقد حباه الحكمة طعنا ، قد راش النجح جناحه ، وقرن الله
 باليمن غدوه ورواحه ، ونصره في حره حيث جعل منسره رحمة ومخلبه سلاحة ،
 في قواده السعد قادم ، وفي خوافيه النصر ظاهر المعالم ، كأنما ألهم قوله صلى الله
 عليه وسلم ، (بورك لأمتى في بكورها) فيسرح والطير جاثمة في وكورها ، ويخرج
 في أغباش السحر وعليه سواد ، فيهابه الصادح في الجو والباعم في الواد ، ويأمر
 — خلد الله سلطانه — أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهى لاهية في التقاط
 حبها ، غافلة عما يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ، ومولانا السلطان
 — لنافرها مترقب ، ولطائرها بالجراح معقب ، فما يدنو الكركى مقروراً ، حتى
 يؤوب مقهوراً ، ساقطاً من سمائه إلى أرضه ، ومن سعته إلى قبضه ، فسبحان من
 خلق كل جنس وقهر بعضه ببعض ، هذا والجراح قد أشب فيه مخالبه ، وسد
 عليه سبله في جو السماء ومذاهبه ، ولم يزل — خلد الله تعالى سلطانه — عامة
 يومه متوغلًا بالتمتع بلذات صيوده ، وأوقات سعوده ، وحصول أربه ومقصوده

وجنود الملائكة حافون به وبجنوده ، حتى ينسخ النهار الليل بظلماته ، ويطلع الطارق بأضوائه . فيعود عند ذلك الركاب الشريف إلى الخيم المنصور والجوارح كاسبة ، والأقدار واهبة ، والجوارح مسرورة ، والطيور مأسورة ، والنفوس ممتعة والمواهب منوعة ، والأرجاء مضوعة ، والله تعالى مع سلطانه . « ومن كان مع الله كان الله معه » . . . الخ



ولابن حبيب الحلبي من كتاب نسيم الصبا في البحر والنهر ^(١) :
هزتني رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثبج ^(٢) البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسفر مئواها ، وركبت فيها باسم الله مجراها ومرساها ، موقنا بأن المقدور صائر ، معرضا عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

يا لها سفينة ، على الأموال أمانة ، ذات دسر وأواح ، تجري مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادي بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد ولا تشرب ، لها قلاع كالقلاع ، وشرائع يحجب الشعاع ، وسكينة وسكان ، ومكانة وإمكان وجؤجؤ وفقار ^(٣) وأضلاع محكمة بالقار ، وجسم عار عن الفؤاد ، وهو عين الماء بمنزلة السواد ، بعيدة ما بين السحر ^(٤) والنحر ، من أحسن الجوار المنشآت في البحر ، معقود بنواصيها الخير كالخيل ، لا تمل من سير النهار ولا من سرى الليل .

(١) كتاب نسيم الصبا ص ٢١ .

(٢) الثبج : وسط الشيء ومعظمه .

(٣) جهم فقارة : وهي عظمة الصلب .

(٤) السحر : الرثة .

ما رأى الناس من قصور على الماء سواها تسير سير القداح^(١)
 كأنها وعل ينحط من شاهق ، أو عرباض^(٢) سابق يحشه سائق ، أو عقرب
 شائلة ، أو عقاب صائلة ، أو غراب أعصم^(٣) ، أو تمساح أو أرقم ، أو ظليم نفر
 في الظلام ، أو جواد فر مستنكفا من صلبة الأنعام ، حاكمها عادل في حكمه ، عارف
 بنقض أمرها وبرمه ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدىء باسم الحى القيوم .

فبينما نحن من البحر في قاموسه ، كتب الجو حروف الغيم في طروسه ، وثار
 ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، قنات بنا الفلك واضطربت ، ودنت شفها
 من رشف الماء واقتربت ، واستمرت ترفع وتخفض ، وتقرب وترفض ، وتعلو
 كالأطوار وتهيم في كل واد ، وتحوم وتحول ، وتجدو وتجدو ، وتضرع في القلوب
 نار ناجر^(٤) ، إلى أن بلغت القلوب الحناجر :

ألا فارجعه واخشه إنه هو البحر فيه والغنى والغرق
 ثم نظر الينا من لا تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض
 الجزائر ، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة ، تسر النفوس بحماسها الغزيرة ، فأنحدرت
 ماضيا إلى بنيتها ، ناثبا عن السفينة وساكنيها ، فوجدتها مخضرة الأفنان ، مخضلة
 الكشبان ، بها من الياقوت ما يرجع خاسئا مناوية ، ومن الأشجار ما يحمل الفواكه
 والأفاويه ، وبين رياضها نهر شديد الخصر ، أرضه ذهب وحصباؤه درر ، وأمواجه
 عكن^(٥) وداراته سرر :

عذب إذا ما عب منه ناهل فكأنه من ريق خود ينهل

-
- (١) القداح : جمع قدح وهو السهم .
 (٢) العرباض : الغليظ من الإبل .
 (٣) الغراب الأعصم : الأحمر الرجلين والمنقار أو الذى فى جناحه ريشة بيضاء وهو
 عزيز الوجود .
 (٤) ناجر : كل شهر من شهور الصيف .
 (٥) العكن : جمع عكنه : وهو ما تثنى من لحم البطن .

لين الأديم ، مزاجه من تسليم^(١) يصقله الصبا ويعرّكه النسيم ، فكأنه دروع
موضونة^(٢) ، أو مبارد مسنونة ، أو دمع يتسلل ، أو أفاع تتململ ، أو ذوب
فضة يسيل ، أو صفحة سيف صقيل ، أو لوح بلور مرقوم ، أو رحيق
بالمسك مختوم .

وكان الظيور إذ وردته من صفاء به تزق فراخا . الخ

وقال صلاح الدين الصفدى يصف بستانا :

فوصلنا إلى بستان أخذ زخرفه وتزين وفاضت عيونه غيرة على نازليه وتلون
تنساب جداول جوانبه كالأراقم ، ويصفق النهر لرقص الغصون على غناء الجمائم
ويهب النسيم فينقطها من الزهر بدنانير ودرهم ، قد تطاول فيه من البان كل قد
مخطوف^(٣) ، وخجل فيه من الورد كل خد موصوف فأجلسنا النرجس على
عينيه وأحداقه ، وظلنا الغصن بسائر أوراقه ، وحيث منشوره^(٤) الأبيض والأزرق
بالأصابع ، وفتح كفوفه الصفر وهو منا غيران فاقع . وجرى النهر بين أيدينا
متواضعا بسجوده ، وشب الشحرور بمنقاره لما تغنى الهزار على عوده ، وقدرق نسيمه
وراق . وجذب الجمائم إلى الغناء بالأطواق .

أظن نسيم الروض للزهر قد روى حديثاً فطابت من شذاه المسالك

والماء قد رق وراق ، وتسلسل وهو في الإطلاق ، وجرى فتكسر ، وصفا ولم
يتغير ، وصاحب النسمات وحالفها ، وقاطع الأغصان وخالفها ، وأتته الرياح للزيارة
من شعابها وهضابها ، وسرق حلى الأغصان فضمها في صدره وجرى بها ، والعيون

(١) ماء بالجنة .

(٢) موضونة : مضاعفة الفسج .

(٣) مخطوف : ضامر .

(٤) المنشور : نبات ذو زهر ذكي الرائحة .

ترمقه في جريه ومسيره، وهو لا يفتر عن تصفيقه وخريره، حتى خشيما عليه التفسير
من التماذي، ورجونا من ماء عينيه ري كل صادي ...

ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن في الاتفاق، ويكرر ألحانه ويراسل
في الأوراق، ويجتهد في الصلح ويدعو اليه، ويحرص على الوفاء ويحرص عليه
وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا، فأجدت مواعظه وكان قلب النهر صافيا
وقريبا. وقام النسر من السرور على ساق، وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق،
وتبسمت من الأقحوان الثغور، ونسمت نسמת المسك والكافور، واعتل النسيم
غيرة وتغير، فتولى وهو بذيله يتعثر، وجعل يجر من الحياء ذيولا على الأغصان
فتعتنق اعتناق المواصل الغضبان :

في روضة عـلم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة فالتفت الأغصان ساقا بساق
وبكى النهر على مواصلة الغصون، وخر لديها وفاضت منه العيون، ومثلها في
قلبه شغفا وحبا، وصار بها من دون الصبا صبا .

والنهر قد عشق الغصون فلم يزل أبدا يمثل شخصها في قلبه
حتى إذا فطن النسيم فجاءه من غيرة فأزالها من قرب
وغدا عليه مهيمننا بعتابه سرا فجعد وجهه من عقبه
فلم يزجر النهر عن حب الغصون زاجر ولا عاذل، ولم يجب العذل إلا بدمعه
السائل، وصار يرد برد الهوى بحر هواه العذرى، وغدا ساعيا بسعادة الأغصان
يجرى، فتتفع منها بأدنى وصال، وربما اقتصر منها في الحب على الخيال .

ونهر بحب الدوح أصبح مفرما يروح ويغدو هائما بوصالها
إذا أبعدت عنه شكا بخبره جفاها وأضحى قانعا بخيالها

وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر من رسالة اقترحت عليه (١)

حرس الله نعمة مولاى ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه
يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخم وأحمد عيشه لا ينصرف ، ولا عدمت نحة الجود
من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت
الأيام ملتزمة إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود . هذه المفاوضة إليه
أعزه الله تفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلاً غداً به منصوباً للمكاييد ،
ومعتلاً وليس موصولاً كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها
التنكير ، وقدرها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوت صحبته تكررت فجاز قطعها
بسبب التنكير . . . الخ .

* * *

وكتب الوردى على قطعة من شعر بدر الدين حبيب بعد أن كتب عليها
جمال الدين بن نباته (٢)

وتأملت هذه النبذة التى رق من قائلها الطباع ، فافتخرت بنظرها الأبصار
على الأسماع ، فوجدتها مشتملة على مبانى القوافى الفوائق ، والمعانى الرواقى
الروائق ، فقبسها بدرى ، وكوكبها درى ، هاجت لى ذكرى حبيب ، فهى
زبدة من حلب لابل قطعة من طيب ، أعذب من الوصال ، وألذ من الماء الزلال ،
وألطف من الرياض عند الصباح ، وأرق من رحيق الطل فى ثغور الأقاح ،
فيها من مقطقات نيل ، أضمرت فى روح كل كلیم نار خليل ، قدر ناظمها فى
السرود (٣) ، وقال ناظرها بالجوهر الفرد ، ونابت مزاب سيوف الهند ، وأغنت
عن التشبيب بسعاد وهند ، ما أطول صفات شعرها وإن كان قصيراً ، فلو أقيمت

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٧٦ .

(٢) صفحة ١٥٢ من ديوانه طبع الجوائب .

(٣) السرود : نسج الدروع والمراد الإحكام .

على وجه أبى العلاء، لأتى بصيراً ، ومن سلك من الجماعة هذا الطريق وهو نقي
خد ، فما الظن به إذا تحلى لسانه وعارضه برسم وحد ، وكيف به إذا تعلق بأفنان
مواد هذا الفن وامتناز ، ونزل بدر خده فى دارة دار الطراز ، هناك يمين للناظرين
أن الوليد كان عابثاً ، وأن ابن حبيب لأبويه فى الأدب والنسب أصبح وارثاً :

أقسمت ان جد و طال المدى روى الورى من بحره الزاخر
فقل لمن بالسبق تفضيله كم ترك الأول للآخر
ومالى لا أصف هذه النبذة فأعلو بوصفها ، وقد شهدت الألفاظ النبائية
بخلوتها ولطفها ، قرن الله قوله وفعله بالتوفيق ، وصان شأنه عن شأنه فشين
الحسن لا يليق .

وله إجازة عرض الكافية فى النحو^(١)

أما بعد حمد الله المقدمة رحمته ، الكافية نعمته ، حمداً يبلغ به المقرب خلاصة
التسهيل ، ويمسى به مفصل الجمل وهو بإيضاح^(٢) العمدة كفيل ، والصلاة على
نبيه محمد الذى ألف التقوى ، ولام أهل العدوى^(٣) ودال على كل كاف من أهل
العناد . وذال^(٤) إذ قصر ثيابه فطمس عين أهل الشرك وفاء بعين المراد ، وباء
من إسرائه الشريف بما صاد الأضداد ، وشين حاسده بما بان لكل راء فى يس
وص ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل من جاهد وصبر ، ما نصب بأن
الاسم ورفع الخبر ، فان فلانا عرض على المقدمة الكافية والله يؤتيمه فيما حفظ
فهما يعجب الناظر ويسر الصاحب ، وعملاً يقول عنده المصنف أفدى هذا العارض
بالحاجب .

(١) راجع ديوان ابن الوردى طبع الجوائب ص ١٥٠ ضمن مجموعة .

(٢) التسهيل والفصل والإيضاح : أسماء كتب فى علم النحو .

(٣) العدوى بالضم : الظلم :

(٤) ذال تبختر .

ولا بن فضل الله العمري من صدور مكاتباته ^(١) .

خلد الله سلطان الديوان العزيز ولا زالت أيامه شامخة الذوائب شارخة الصبا
حيث يلحق الشيب الشوائب ، راسخة الفخار في الظهور بالعجائب ، نافخة في
فم الليل جمر الكتائب ، صارخة والرعد ترتعد فرائصه بين السحاب ، ناسخة دولة
كل علياء بما تأتي به من الغرائب وتبذل من الرغائب ، فاسخة عقد كل خالع يرد الله
إليها ردة خائب ، باذخة على ماضى كل زمان ذاهب ، من عصور الخلفاء الشرفاء
وآئب ، سالخة لجلدة كل أيم ^(٢) ظن أن في أثياب رحمة النوائب ، الخادم يقبل
العقبات الشريفة ساجدا بجبينه ، وشاهدا يستأديه ^(٣) له على يمينه ، وجاحدا
كل ولاء سوى ولائه المعقود بيمينه ، وعاقدا بشرف الانتساب إليه عقد دينه
حامدا الله الذى جعله من طاعة أمير المؤمنين عند حسن يقينه ، وعائدا بامله إلى
كرم تثمر به الآمال ، وتقمربه به الليالى لأنها شعاره الذى تضرب به الأمثال ،
وتمطر به السحب الجهام فتحمو بها آية الإحمال ، وينهى ورود المثل
الشريف إلخ .

* * *

وله فى رسم المكاتبة إلى صاحب ماردين .

أعز الله نصره المقر الكريم العالى الكبيرى الملكى الصالحى الشمسى ،
ولا زال ملكا تاجه المدايح ، ومنهاجه المنايح ، وطريقته إذا وصفت قيل هذه
طريقة الملك الصالح ، أصدرناها إليه وشكرها يسوق إليه حداة الركائب ، ويشوق

(١) كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ٨ .

(٢) الايم : الحية .

(٣) يستأديه : يستعديه .

منه إلى لقاء الحبايب ، ويثني على مكارمه التي كلما أقلعت منها سبحانه أعقبت
بسحائب وتوضح للعلم الكريم الخ .

* * *

وقال صلاح الدين الصفدي في ابن فضل الله العمري ^(١) .

هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب إمام أهل الأدب أحد
رجال الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعالي وتوصلا ، وإقداما
على الأسود في غاباتها ، وإرغاماً لأعدائه بمنع رغائها ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب
وينحدر سيله مذاكرة وحفظاً ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق
إنشاؤه بالموارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحه وبلاغة ، وتندى عباراته
انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعاني من ستر رقيق ، ويفوص في لجة
البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر
عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروى
القاضي الفاضل أن يدانيه تشبيها ، وينظم من المقطوع والقصيدة جواهرها ينجل
الروض الذي باكره الحيا مزهراً ، صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً
ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهي سجلات حكمه وحكمه .

* * *

ولابن عرب شاه في كتابه عجائب المقدور في أخبار تيمور ^(٢) :

ذكر ماصبه (تيمور) من صواعق البيض واليلب ، على العساكر الشامية
عند وصوله إلى حلب .

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٩

(٢) ص ٨٨ طبعة المطبعة العثمانية .

ثم إن تيمور نقل الركاب ، فوصل في سبعة أيام إلى حلب من عينتاب ،
فخل بذلك الخميس ^(١) ، تاسع شهر ربيع الأول يوم الخميس ، وبرز من ذلك
العسكر طائفة نحو من ألفي نفر ، فتقدم لهم من الأسود الشامية نحو من ثلثمائة ،
ففلوهم بالصفاح ^(٢) ، وشلوهم بالرماح ، فبددوهم وطردهم ، وحذروهم ^(٣) وشردوهم
ثم أصبحوا يوم الجمعة فبرز من عسكره نحو من خمسة آلاف إلى مصاف الثقف ^(٤)
فتقدم إليهم طائفة أخرى ، ارسالا وتترى ، فالتحم بينهم النطاح ، واشتبكت بين
الطائفتين أنامل الرماح ، فازدحموا واقتحموا ، واشتدوا والتحموا ، ولا زالت
أقلام الخط في ألواح الصدور تخط ، والقضبان والصوارم لرءوس تلك الأقلام
والأعلام تقط ، ومشاريط النبال لدماويل الدمال ^(٥) تبط ^(٦) ، والأرض من أثقال
جبال القتال تتط ^(٧) ، حتى سجا ^(٨) ليلا الظلام والقتام وأغطشا ، فراجعوا وقد
أعطى الله النصر لمن يشا ، وجرى من دماء العدو من كل فريق نهران ، وفقد
من العساكر الإسلامية نفران ، ثم أصبحوا يوم السبت حادي عشر وقد تعبت
الجنود الشامية الإسلامية السلطانية بالقوة البالغة ، والأهبة السابعة ، والخيول المسومة
والرماح المقومة ، والأعلام المعلمة ، ولم يعوز أولئك الصناديد ، سوى شمة من النصر
والتأييد ، فتحوا قصده ، وقصدوا رده وصدده ، وأقبلت عساكره ، والسعد الميمون
طائره ، والقضاء موازره ، والقدر مظاهره ، بالجنود المذكورة ، والجيش المعهودة
المنصورة ، تؤمهم الأقيال ، وأفياال القتال ، وإذا به قد أضمر لهم الويل ، وعبي

(١) الخميس : الجيش .

(٢) الصفاح جمع صحف : جانب السيف .

(٣) حذره : أنزله إلى أسفل .

(٤) الثقف بالكسر : الجلال .

(٥) يريد الفساد وأصل الدمال التمر العفن .

(٦) بط الجرح : شقه

(٧) تتط : تئن وتصوت . .

(٨) سجا الليل : سكن أهله .

عساكره تحت جناح الليل ، و بثهم فيهم وأرسل عليهم ، وقابلهم بمقدمتهم وشغلهم بأوائلهم ، وأحاط الباقون بهم فأتوهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم وعن شمائلهم فمشى عليهم مشى الموس على الشعر ، وسعى سعى الدبى ^(١) على الزرع الأخضر . هذه طائفة من النماذج في فنون النثر توضح أسلوبه وخصائصه في عصر المماليك . وإنا نجمل القول في خصائص كتابة الرسائل وكتابة التأليف :

كتابة الرسائل :

هنالك عامل له أثره في الكتابة ومكانتها في هذا العصر وهو « ديوان الإنشاء » وقد أشرنا من قبل إلى أن العهد بهذا الديوان كان في زمن أحمد بن طولون ، ثم استمر زمن الفاطميين وعظم شأنه في دولتهم واستمر كذلك أيام الدولة الأيوبية ، وكان القاضي الفاضل وزيرا وكاتبا للدولة المصرية أيام الأيوبيين ، وكتب لصالح الدين وابنه العزيز . وكان لديوان الإنشاء شأن في أيام المماليك ، فكان رئيس الديوان أو كاتب السر في منزلة رفيعة ، فهو مستشار المملوك وموضع سرها والمشرف على الرسائل والمكاتبات والمنشورات .

خصائص الكتابة :

والطابع الذي شاع في كتابة هذا العصر هو محاكاة طريقة القاضي الفاضل ، وأساسها السجع وإطالة الفقر والميل إلى زخرف اللفظ وإثقال كاهل الكتابة بأنواع البديع والجري وراء المعاني الخيالية . وقد غالى الكتاب في كل هذا وتكلفوا ، وكان جل اهتمامهم موجهها إلى التعميق اللفظي ، وطلاء التراكيب بألوان من المحسنات الظاهرية ، أما المعاني فلم تكن عندهم في المكانة الأولى وكانت العناية بها في منزلة ثانوية ، وحظ الكتاب منها قاصرا لضعف ثقافتهم العلمية .

ومما ساعد على استفحال هذه الطريقة واسترسال الكتاب في الإعجاب بها

والغلو في التزامها أن النقد وهم القادة في كل عصر ، كانوا يستحسنون هذا ويشجعون على احتدائه ، ويزنون جودة القول بما فيه من إغراق في الصناعة اللفظية حتى أصبح الكتاب في أغلال من قيود الصنعة لم يستطيعوا منها فكاً ، وصار ذلك سجية لهم متغلغلة طفت على أساليبهم وعلى كتاباتهم فكان التقليد ديدناً لهم ، ولم يكن لأكثرهم من الابتكار نصيب .

وقد حمل ابن خلدون على هذه الطريقة وعلى أصحابها وأشار إلى الأسباب التي أوقعتهم في ذلك من قصور ملكاتهم واستيلاء العجمة على ألسنتهم (وعجزهم عن الكلام المرسل لبعده أمد في البلاغة وانفساح خطوه) ، وقال ^(١) (وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومطابقة الحال فيه ويجيزونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والألقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء قولهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصرف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ذلك التجنيس) .



ومن الخصائص التي ابتدعها الكتاب في هذا العصر الألقاب المختلفة للملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والعظماء ، وتحديد لقب خاص بكل مرتبة واتباع ذلك بالإسراف في كلمات التمجيد والتفخيم . وقد أوضح القلقشندي في الجزء السادس من كتاب صبح الأعشى ، الألقاب المختلفة المفردة والمركبة والموصوفة والمنسوبة للملوك والسلاطين وأرباب السيوف والوزراء والقضاة والعلماء ، وأوضح

(١) راجع مقدمة ابن خلدون في الفصل الخاص بانقسام الكلام إلى فني النظم والنثر .

مراتب هذه الألقاب وتفاوتها وفصل ذلك تفصيلاً دقيقاً ، وذكر في مواطن من أجزاء كتابه أمثلة كثيرة للرسائل الديوانية .

وذكر ابن فضل الله العمرى في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) أمثلة لذلك أيضاً وسرد نماذج شتى من صدور الكتب في رتب المسكيات المختلفة .

ومن أشهر الكتاب في هذا العصر :

محى الدين بن عبد الظاهر ، وكان رئيس ديوان الإنشاء في أيام الملك الظاهر بيبرس ، وقد وضع كثيراً من نظم الديوان واصطلاحاته - وابن فضل الله العمرى وقد كتب لآل قلاوون - وشهاب الدين محمود الحلبي وكان رئيس ديوان الإنشاء في أيام الملك الناصر بن قلاوون - وعلاء الدين بن الأثير ، وقد تولى ديوان الإنشاء للأشرف - والقلقشندي ، وقد كان في ديوان الإنشاء حين كان رئيسه بدر الدين بن القاضي علاء الدين بن القاضي محى الدين بن فضل الله العمرى . وغير هؤلاء من الكتاب .

كتابة التدوين والتأليف :

لقد كان تغلغل الصناعة اللفظية شاملاً في فنون الكتابة ، فلم تسلم منه المؤلفات الأدبية والتاريخية ، وبعضها ألزم السجع المتكلف حتى خفيت المعاني وعميت المقاصد ، وقد مرت بك بعض الأمثلة لهذا .

ويلاحظ على الكتابة العلمية التغالى في الإيجاز في المتون إلى حد التعقيد مع مراعاة التدرج . وكانت الشروح مطولة والإيضاح فيها أساسه الإسهاب والنقل عن الأئمة مع قرن ذلك بالشواهد والبراهين .

هذه هي حال الأدب والثقافة في الفترات المتعاقبة منذ عصر الفاطميين، وهي حلقات من سلسلة الحياة العقلية في التاريخ العربي .

١ — فأما الثقافة : فإنها كانت في العصر الجاهلي صورة للحياة الفطرية للعرب . ولم يكن هناك من المعارف إلا اليسير مما يتصل بالبيئة وما يرتبط بمطالب الحياة البدوية . ولما جاء الإسلام وثب العرب وثبتهم الثقافية الأولى واشتغلوا بالعلوم العربية والشرعية . ثم وثبوا وثبتهم الثقافية الثانية أيام الدولة العباسية حين اتسعت آفاقهم العقلية وامتد ملكهم واتجهوا إلى علوم الأمم الماضية وفلسفتها فترجموها ودرسوها ثم هضموها ونقحوها ، ثم أضافوا إليها ما جادت به مواهبهم . وقد ظهرت ثمار كل ذلك في العصر العباسي الثاني وهو العصر الذهبي للعلم في الدولة العربية . وقطفت الأمصار العربية من ذلك طيب الجني .

٢ — وأما الشعر : فقد كان في العصر الجاهلي بدويا تنبع معانيه من الصحراء ثم امتزج بالحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي . وانتقل في العصر العباسي من الصحراء والبداءة إلى الرياض ومباهج المدنية التي ازدهرت أيام العباسيين وانتشرت في الأوطان المختلفة التي نبتت في أطراف الدولة العربية .

ثم تغلغل الشعراء في الصناعة اللفظية وفي اتخاذ الشعر أداة للمدح والتقرب من الخلفاء والأمراء وذوى النفوذ ، فكان هذا من العوامل في انحرافه عن غايته واتجاهه إلى غير وجهته . واستمر هذا الانحراف حتى خلا الشعر من رائع المعاني وقويها ، ولم يكن له من المظاهر الأدبية إلا مسحة من التقليد والتصنع .

٣ — وأما الكتابة : فقد بدأت تصير صناعة في أواخر الدولة الأموية ، ثم تدرجت في العصر العباسي في مراحل أربع .

(الأولى) طريقة ابن المقفع : وكان أسلوبها مرسلا بعيدا عن السجع في معظم الأحوال ، يجمع بين مظاهر المتانة التي كانت في العصر السابق وبين ما أوحى به الثقافة التي نهل منها الكتاب والحياة الجديدة التي كانوا مقبلين عليها .

(الثانية) طريقة الجاحظ : وتمتاز بغزارة المادة وسعة الاطلاع والاهتمام بالمعنى والبعد عن الصناعة اللفظية مع الحرص على تجميل العبارة بذلك التقسيم للجمل في بعض الأحيان والتكرار الذي يكسب الأسلوب جمالا موسيقيا .

(الثالثة) طريقة ابن العميد : وفيها وضع الأساس للصناعة اللفظية فتجلى في الكتابة السجع والحسنات البديعية والتضمين والاستشهاد وغير ذلك . وكان لابن العميد حلبة تنهج نهجه وتترسم طريقته وتزيد في التعلق بالصناعة اللفظية كالخوارزمي والصابي والصاحب بن عباد والهمداني والثعالبي .
على أن هؤلاء جميعا كان لهم من سعة الاطلاع ما خفف من وطأة هذه الصناعة اللفظية وستر بعض معاييبها .

(الرابعة) طريقة القاضي الفاضل : وهي امتداد لطريقة ابن العميد من حيث الاهتمام بالصناعة اللفظية وطغيانها على الكتابة والكتاب حتى أصبحت الزخارف السطحية والحسنات البديعية هدفا ولم يكن للمعاني الرصينة ولا للأسلوب المتين نصيب من التقدير .

* * *

ومن هذا نرى أن الحياة الأدبية والعقلية بعد أن وصلت في الأقطار العربية إلى غاية محمودة بدأ الهبوط يصيبها تدريجا حتى جاء العصر التركي في مصر فلزداد الهبوط وانتشر الركود . وسترى فيما يلي مظاهر ذلك وآثاره ، ثم ترى ما جاءت به النهضة الحديثة التي بدأت تنشر أعلامها وتؤتي ثمارها .

العصر العثماني

(٩٢٣ — ١٢٢٠ هـ)

العثمانيون جيل تركي من جنس المغول ، وطنهم الأصلي شمالي آسيا ، وقد امتدت فتوحهم إلى العراق وآسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد المغرب ، ودخلوا أوربا من البسفور ووصلوا إلى فيينا ، وكانت إغارتهم على بلاد الشام ومصر في أيام السلطان الغوري فاستولوا عليها ، وصارت مصر ولاية عثمانية يحكمها الوالي الذي ترسله الدولة العثمانية . وكانت هناك ثلاث سلطات تتحكم في البلاد وهي : (١) سلطة الوالي (٢) وسلطة جيش الحامية الذي كان مجلس ضباطها يشارك الوالي ويساعده في إدارة شئون البلاد (٣) وسلطة المماليك الذين نصبهم العثمانيون على مديريات القطر (سناجق) .

وقد فرض العثمانيون على البلاد خراجا سنويا يرسل للسلطان ، وكان لكل جهة ملتزم يجمع الضرائب ، ويحجب لنفسه ضريبة أخرى . وكان المماليك أيضاً يمتزون الأموال من الأهالي في المديريات المختلفة .

وبذلك كان الإرهاق في جمع المال بالغاً حدّاً عظيماً ، وتدهورت الأحوال السياسية والاجتماعية ، وتمسكن النزاع بين المماليك وجنود الحامية والولاة العثمانيين فاضطرب الأمن ، واستفحل الظلم ، واستولى الهلع والفرع على الأنفس والأموال ، وانتشر البؤس والإرهاب ، وتدهورت الحياة في شتى نواحيها وفسدت الأخلاق .

الحالة العلمية والأدبية :

هذا العصر هو فترة حالكة الظلام في حياة مصر العلمية والأدبية ، جمدت فيه القرائح ، وجمدت الحياة العلمية وعم الانحطاط ، ومما زاد الكساد العقلي أن العثمانيين نقلوا كثيرا من نفائس الكتب والآثار إلى القسطنطينية ، ونقلوا أيضاً طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والمهندسين والصناع وغيرهم ليستعينوا بهم في بلادهم وليطفئوا جذوة النهوض في مصر ويحولوا بين الأهالي وبين قادتهم ومرشديهم بإخماد الحركة الفكرية .

ومن العوامل ذات الأثر في إضعاف اللغة العربية والهبوط بما عسى أن يكون من نشاط أدبي طغيان اللغة التركية على اللغة العربية وحلولها محلها في الدواوين وفي الكتابة ، وإبطال ديوان الإنشاء الذي كان له شأن في العصور السابقة . وبذلك لم يصبح للغة ما كان لها من مكانة ، وفقدت الميزة التي كانت لها وهي أنها لغة السياسة والأدب . على أن الأمل الذي كان ولا يزال معقودا بالاحتفاظ بالبقية الباقية من اللغة العربية هو أنها ظلت لغة الدين القويم والقرآن الكريم ، وهذا من أسرار خلودها وبقائها محفوظة بعناية من أنزل القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان .

الثقافة والتأليف في العصر العثماني

لقد كانت الحياة العلمية في عصر المماليك يغمرها قدر محمود من النشاط كما أوضحنا ، وذلك بفضل التشجيع والهبات والأوقاف التي حبسها الحكام على المدارس والمعاهد العلمية وعلى معونة المتعلمين والمعلمين . أما في العصر الذي نحن بصددده فقد تبدلت الحال وطمست المعالم العلمية ونضب معينها ، وجمدت الثقافة وغلت الأيدي عن تشجيع من كانوا عوناً للنشاط الثقافي والتحصيل العلمي ، وامتمدت الأطماع إلى

الأوقاف التي حبسها الممالك على ذلك فانهبت ، وبذلك خرجت أكثر المدارس وتفرق المتعلمون وانصرفوا عن الدرس وانتشر الجمود وفقر الهمم . وقل الإنتاج العلمي ، وضاق ميدانه وخيم عليه الهبوط وضالة الأثر . والنتيجة المحتومة لكل هذا هي تفشي الضعف وقصور الملكات وكساد الأذهان .

أما التأليف والمؤلفات فقد انتابها الضعف في اللغة ، وفي الموضوع وفي الطريقة :

(أ) أما في اللغة : فقد انتشرت العامية واصطبغت بها عبارات الكتب وغشيتها الركاكة ولا سيما كتب الفقه الحنفي الذي تصدى الأتراك للتأليف فيه ؛ لأنهم كانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة .

(ب) وأما الموضوع : فقد ضاقت دائرته وخلا من الابتكار ، واقتصر فريق من المؤلفين على التافه ، واتجهوا إلى شرح المختصرات وإيجاز المطولات إيجازا معقدا ينشر الغموض ويذهب بغايات التعليم .

(ج) وأما الطريقة : فقد كانت نابية عن الأساليب الصالحة للتعليم خالية من الترتيب بعيدة عن التدرج الملائم لعقول المتعلمين ، تختلط فيها المبادئ السهلة بالحقائق التي لم تقو بعد عقول المبتدئين على إساغتها . كما تجد في حشر قواعد المنطق في التعاريف وفي إعراب البسملة لمن لا عهد له بالنحو وقواعده وغير ذلك .

وهناك عامل آخر كان له أثر شنيع في بعض مؤلفات هذا العصر ، وذلك هو تدهور الأخلاق وتفشي الاستهتار ، فقد كان لذلك أثره في جانب من البذاءة الخجلة التي يجدها في مثل كتاب رجوع الشيخ إلى صباه ، وفيما تناثر من حكايات وأوصاف وعبارات غير محتشمة في كتاب تاريخ الاسحقاق . فالمؤلفات في هذا العصر فوق قصورها وتدهورها كانت مشوبة بالبذء من القول الناشئ عن فساد الخلق وتدهور الحياة .

على أننا لا نريد أن نطبع هذا العصر بطابع الظلام العلمي والأدبي في جميع

نواحيه ، فقد كانت في طياته المهمللة أثارة من الخير والصلاح ، وفي جوه القاسم بصيص يهدي السارى ، وفي أرضه الجذبة بقايا من بذور كانت أشبه بالبذور التي يحفظها الله حتى لا ينقرض الجنس ويأتى عليه الزمان . وإنا نشير إلى الأفذاذ ممن نبغوا في هذا العصر من المؤلفين والباحثين .

اللغة والأدب :

٥ — الخفاجى (١٠٦٩ هـ) : أحمد بن محمد بن عمر الملقب بشهاب الدين الخفاجى المصرى . ولد بسرياقوس قرب القاهرة . وقد رحل إلى الحرمين وإلى الآستانة ، ودرس على من بها من العلماء . ثم تولى قضاء العسكر بمصر من قبل السلطان مراد ، وكان أديبا لغويا ، ومن مؤلفاته : شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل — وريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا ، جمع فيه محاسن الأدباء فى الشام والمغرب ومكة ومصر ^(١) .

٢ — البديعى : (١٠٧٣ هـ) هو يوسف البديعى الدمشقى . خرج من دمشق فى صباه وحل فى حلب وذاعت شهرته . ومن مؤلفاته : هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام — والصحيح المنبى عن حيثية المتنبى ^(٢)

٣ — البغدادى (١٠٩٣ هـ) هو عبد القادر بن عمر البغدادى نزيل القاهرة وكان فاضلا بارعا واسع الاطلاع على كلام العرب نظما ونثرا ، وكان يحفظ مقامات الحريرى وكثيراً من دواوين العرب ، وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار والطرائف البديعة . خرج من بغداد إلى دمشق وتردد على القاهرة . وأخذ العلوم الشرعية والعقلية عن الشهاب الخفاجى وغيره . ومن أشهر كتبه : خزانة الأدب ولب لباب العرب ، وهو شرح لشواهد شرح الكافية يتضمن تراجم كثير من الشعراء والأدباء ، وهو من المراجع النافعة ^(٣)

(١) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٣١

(٢) خلاصة الأثر ج ٤ ص ٥١٠

(٣) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤٥١

٤ — السيد مرتضى الزبيدي (١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ) نشأ باليمن ثم حضر إلى مصر ودرس بها ، ومن مؤلفاته : كتاب تاج العروس في شرح القاموس .
٥ — الصبان (١٢٠٦ هـ) وهو أبو العرفان محمد بن علي الصبان . ومن مؤلفاته : حاشية على شرح الأشموني على الألفية — وحاشية على شرح السلم في المنطق — وحاشية على شرح السمرقندية في البيان — وحاشية على آداب البحث — ومنظومة في علم العروض .

التاريخ :

١ — نور الدين الحلبي (٨٧٥ — ١٠٤٤ هـ) وهو علي بن إبراهيم بن علي ابن عمر الملقب نور الدين بن برهان الدين الحلبي . ولد بالقاهرة ، وتولى التدريس بالمدرسة الصلاحية . ومن مؤلفاته : إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ، ويعرف بالسيرة الحلبية .

٢ — الحبي (١٠٦١ — ١١١١ هـ) هو محمد أمين الحبي بن فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين . ولد في دمشق ونشأ بها ثم سافر إلى الاستانة وأدرنه وانتقل إلى القاهرة وتولى القضاء بها . ومن مؤلفاته : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر .

٣ — المرادي (١٢٠٦ هـ) وهو أبو الفضل محمد خليل المرادي مفتي الحنفية في دمشق . ومن مؤلفاته : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر .

٤ — ابن إياس (توفي حوالي ٩٣٠ هـ) هو محمد بن أحمد بن إياس من تلاميذ السيوطي . ومن مؤلفاته : بدائع الزهور في وقائع الدهور ويعرف بتاريخ مصر لابن إياس .

٥ — الإسحقى (بعد ١٠٣٢ هـ) هو محمد بن عبد المعطى الإسحقى ، ومن مؤلفاته : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول . وفي ثنياه حكايات مخجلة .

٩ — حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) هو مصطفى بن عبد الله . ولد بالأستانة وانتقل إلى بغداد . وحج وسمى لذلك « حاجي » . وأشهر مؤلفاته : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون .

الفقه :

- ١ — برهان الدين الحلبي (٩٥٦ هـ) وقد تعلم في حلب والقاهرة ، وله كتاب : ملحق الأبحر في الفقه الحنفي .
- ٢ — خير الدين الفاروقي الأيوبي (١٠٨١ هـ) . ولد في الرملة وتعلم في الأزهر . وله كتاب الفتاوى الخيرية لنفع البرية في فقه الحنفية .
- ٣ — شمس الدين الشريبي الخطيب (٩٧٧ هـ) ومن كتبه شرح منهاج الطالبين للنووي في فقه الشافعية .

علوم أخرى :

- ١ — عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣ هـ) ولد في ساقية أبي شعرة في المنوفية وعاش متصوفا . ومن مؤلفاته : الميزان ومختصر تذكرة القرطبي .
- ٢ — الصدر بن عبد الرحمن الأخضرى (نحو ٩٤١ هـ) وله كتاب السلم في المنطق ، والجواهر المكنون في الثلاثة الفنون .
- ٣ — شهاب الدين بن سلامة القليوبي (١٠٦٩ هـ) . ومن مؤلفاته : حكايات غريبة وعجيبة تعرف بنوادر القليوبي .
- ٤ — داود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) أصله من أنطاكية ورحل إلى الأناضول ثم إلى دمشق والقاهرة . وتوفى بمكة . ومن أشهر كتبه : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب . وتعرف بتذكرة داود وهي في علوم الطب وتزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق (١) .

الشعر في العصر العثماني

تجلى لك فيما أوضحنا أن هذا العصر قد انتابته عوامل ثلاثة كان لها في الأدب كبير الأثر .

أولها : اضطراب الحياة ، وتمكن الخوف والهلع من النفوس وبعدها عن الاطمئنان .

ثانيها : انصراف الحكام عن تشجيع الشعراء .

ثالثها : ضالة الثقافة وبعدها عن العلوم الكونية ونحوها .

والعاملان الأول والثاني مما يبعث ركود الملوكات ويصرف الهمم عن الإجابة والثالث يهبط بالإنتاج الأدبي ويهوى بديباجته وأسلوبه ، لهذا لم يكن الشعر في هذا العصر في منزلة لها من السمو نصيب ، بل غشيه التدهور وتغلغل الجذب في شتى نواحيه ، وانحرفت أغراضه عن الجادة ، واتجه إلى أغراض تافهة بعيدة عن الشعر الرصين ، ولم يكن في استطاعة الشعراء أن يجددوا أو أن يبتكروا ، بل كانوا يقلدون السابقين من أهل العصر الماضي ، وشاعت في شعرهم السرقات الشعرية ، وغمرته لوثة من الألفاظ البذيئة . وغشيته غاشية من الفجور . ومن أظهر الدلائل على ضعفهم وقصور ملكاتهم أنهم عجزوا حتى عن الإجابة في أنواع البديع التي كانت شائعة في شعر العصر السابق ، وذلك لأنها تتطلب إلماما بذخيرة لغوية لا قبل لشعراء هذا العصر بها .

ويجدر بنا أن نشير إلى ذلك النوع البديع الذي كثر في شعر هذا العصر وهو « التاريخ » والمراد به ذكر جملة أو كلمة يكون مجموع الأرقام المقابلة لحروفها مساويا للتاريخ الذي جرت فيه الحادثة ، ويجيء ذلك بعد كلمة تاريخ أو ما يشتق منها .

ونجى هذه الأرقام من كتابة الحروف الهجائية على الترتيب الأبجدي
(أبجد هوز... إلخ) ثم كتابة الأعداد التسعة ثم العشرات ثم المئات ثم الألف
تحتها على التوالي.

وإليك نموذجاً من شعر البارزين في هذا العصر.

قال الشهاب الخفاجي يمدح محمد بن قاسم الحلبي :

حتام يغزوني صدوده	والصبر قد كثرت جنوده
لم أدر فأنر جفنه	والخصر أسقم أم عهوده
نشوان يعبت بي كما	عبثت بآمالى وعوده
لولا مياه الحسن جا	لت فيه لاحت رقت خدوده
كالصب لولا دمه	يهمى لأحرقه وقوده
يخفى الهوى وعيونه	بغرامه المضى شهوده
فسقى رياض الحسن من	دمعى حيا يهمى مديده
زمن بجيد اللهو قد	نظمت على نسق عقوده
إذ دوح أنس يانع	بكتوسنا انفتحت وروده
والكأس نجم لاح في	فلك المسرة لى سعوده
يصفو فيحلى ذكر من	قد زين الدنيا وجوده
ذاك ابن قاسم الذى	ما زال فى تعب حسوده

وقال الشيخ عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧٢ مؤرخاً عرس بعض
الأشراف سنة ١١٢٣ .

أبدا تحن إليكم الأرواح	ولكم غدو فى العلا ورواح
يا سادة لولا هم ما لاح فى	أفق المكارم للفلاج صباح
ما الفضل إلا ما رأيت بحيمكم	وعليكم من نوره مصباح
نطق الكتاب بمجدكم وبفضلكم	وأنت أحاديث بذاك صحاح

ومنها :

لما نصبتم للسرور أسرة تزهو بها الأرواح والأشباح
وأقمت عرسا يضيء كأنما للدهر منه كوكب وضاح
أرخته أبدا بعهد حماكم لأبي الفلاح تجدد الأفراح
وقال تهنئة بالعيد للأستاذ البكري سنة ١١٢٧

أمولاي هذا اليوم يوم مبارك وعيد سعيد بالهنا يتهلل
أمولاي أحياءك الإله لمثله وعزك موفور وسعدك مقبل
وفي آخرها :

ولما أتاك العيد أرخت أنكم لكم يا بني الصديق مجد مؤثـل
وقال متغزلا .

وحقك أنت المني والطلب وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوة تحير فى وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما إذا لاح لى فى الدجى أو غرب
ومنها .

أما والذى زان منك الجبين وأودع فى اللحظ منك العنب
وأنبت فى الخلد روض الحمال ولسكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أو جرت أنت المراد ومالى سواك مليح يحب

النثر في العصر العثماني

إن العوامل الثلاثة التي أشرنا إليها في الكلام عن الشعر في هذا العصر وهي : هبوط الثقافة ، وقلة التشجيع ، واضطراب الحياة ، قد كان للنثر منها نصيب . ويضاف إليها عامل رابع كان له كبير الأثر في تدهور الكتابة وكساد سوقها ، وهو جعل اللغة الرسمية هي التركية في الخطابات والمراسلات ؛ وإبطال ديوان الإنشاء الذي كان له شأن في اللغة في العصور السابقة ، فانقطع أمل الكتاب في وظائف هذا الديوان ، وانصرفت الهمم عن الكتابة وركدت أساليها ، وفتت نشاطها حتى استفحل الضعف ، وتغلغل القصور ، وتفشي العجز عن إرسال القول في يسير المقاصد .

ولذلك اتجه بعض المؤلفين إلى وضع النماذج المختلفة ليستعين بها من يريدون المراسلة فصادفت الرواج مثل إنشاء مرعي المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ ويسمى بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات .

وإليك نماذج من النثر للبارزين من كتاب هذا العصر :

قال شهاب الدين محمود الخفاجي في كتابه ريحانة الألبا من المقامة الساسانية (١) :

حدثنا مالك بن دينار ، عن مسافر بن يسار قال : كنت والشباب غرابه لايطار ، وثماره الجنية تجنى من رياض الأخبار ، أهوى السياحة والناس ناس ، والديار ديار ، والدهر غر لم يفظن لتلون الليل والنهار .

ولم أريوماً في ظلام مفارق شهاب مشيب لاح في الاثر منقضا
فسرت في الأرض لأنظر آثار رحمة ، وأرى مآثر الطراز الأول في أعلام
حلته ، فإن من جد وجد ، ومن تواني فقد فقد ، رافعاً عصا التسيار ، على كاهل

الاعتبار ، رافضاً الاستراحة في مهد الدعة ، مشيعاً قلباً فارق حبيباً ودعه .
ومنها :

حتى أتيت كورة خراسان ، فإذا بها قيل ^(١) نصب عرضه لسهام الهوان ،
مقلداً في ترجيح البخل مذهب سهل بن هرون ، كأنه لم يسمع قوله تعالى :
« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . فلما جست خلال إيوانه ، قرأت
عنوان حاله على وجوه غلمانه ، وسمعته يقول لمن امترى اخلاف درته ، وشبع من
خلته وحمضه ^(٢) برؤية جرته : يا هذا صناعتنا واحدة ، لو لم تدرج من عشك
كانت الراحة فائدة .

ثم قال لي : أي البلاد تهدي سلامها ، وأي زهرة تحية فتحت لك النسبات
أكمامها ، قلت الكنانة المعزية ، والخطبة التي هي في حضانة نيلها محمية ، رياضها
تحيا بأنهاره ، وأصابه ^(٣) تشير لـكنوز خصب تستخرج من معادن أقطاره ،
إلا أن أصابع الناس في الراحة والأيدى ، وفي أصابعه أياد وراحة لكل حاضر
وبادى . فإن سألت عن حالى فقوادي بهافؤاد أم موسى فارغ من آمالى ؛ وما
حال وردة فارقت نسبات القبول ، فحداها السموم وقادها الذبول .

فتأمل كيف يغشى مقلة المجد نغاس
فأما حال سكانها ، ومن ألقى جرانه بأعطانها ، فقد ذهب أرباب المهمم
العالية ، ولم يبق إلا من يفتخر بالرغم البالية ، روح الشوم ، ونتيجة اللوم ، وخليفة
البوم ، وبعين الله ما يصنع الليل والنهار ، ويستر الثوب والجدار ، وما يستتر في
ضماير البيوت ، وإن طال التحمل والسكوت ، فكم بكى السماء أرضاً فقدت حبيباً
وساعدتها سحب انتحبت بها نحيباً .

(١) القيل : الأسير .

(٢) الحلة : ما فيه حلاوة من النبات . والحمض : ما فيه ملوحة .

(٣) تطلق الأصابع على الأصابع المعروفة وعلى أجزاء يقاس بها النيل ففيها تورية .

ولطمت الحدود بها بروق وشققت الرعود بها جيوبا
فقل لمن افتخر بالعظام ، ماوراءك ياعصام .

ومنها :

وقد فقد العلم لولا نفحة أنس من نفر بقايا ، ففتح الله بهم خزان كنوز هي
خبيايا في الزوايا ، ومن كل نقي العرض أبيض السجيا ، إذا تدنست الأعراض
فأعراضهم من العار عرايا .

أبدت مآثرهم نقص الزمان في خد الربيع طلوع الورد من خجل

* * *

وقال في ترجمة الرئيس داود الحكيم (١)
ضريير بالفضل بصير ، كأنما ينظر ما خلف ستارة الغيب بعين فسكر خير ،
لم تر العين بل لم تسمع الآذان ، ولم تحدث بأعجب من مسائله الركبان ، إذا جس
نبضاً لتشخيص مرض عرض ، أظهر من أعراض الجواهر كل غرض ، فيفتن
الأسماع والأبصار ، ويضطرب بحس النبض ما لا يطر به حس الأوتار .

يكاد من رقة أفكاره يحول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم

فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تعمى
الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وله في كل علم سهم مصيب
ومنطق محلي بتهذيب التهذيب ، وكنت قرأت عليه الطب وغيره في سن الصغر ،
فسمعت منه ما يغار له نسيم السحر ، ويضطرب من لطفه نغمات الوتر ، ينثر فيه
نثار العلوم ، على عرائس المنشور والمنظوم (٢)

(١) هو داود بن عمر الحكيم صاحب كتاب تذكرة أولى الألباب في علوم الطب .

(٢) ريجانة الألبا ص ٢٧١ .

عصر النهضة الحديثة

كانت المعارف العربية والأدب العربي والحضارة العربية سراجاً وهاجاً وبحراً زاخراً في أيام الازدهار، ثم خبا هذا السراج على مر الزمن، ونضب هذا الخضم المتلاطم، وساد العالم العربي ظلام وجذب حين امتد النفوذ التركي على البقية الباقية من البلدان العربية، ولو لا رحمة الله لأظلمت القلوب، واجتشت الأصول العلمية والأدبية التي وضعها السابقون الأولون ومن نهج نهجهم ممن أتى بعدهم، ولكن الله جلت قدرته قد هياً للغة العربية وعلومها أسباب الخلود. ذلك أن الرسالة الحمديّة قائمة على أساس من تفهم القرآن الكريم، وعلومه وآدابه، والشرعية الإسلامية مبنية على البحث واستنباط الأحكام الدينية ومزاولة مدارسها والاحتفاظ بقواعدها وكل هذا من العوامل التي تفرض على طائفة من المسلمين أن يخدموا الدين بخدمة علومه وما يرتبط بها من لغة وتاريخ.

ولقد رأيت مما أوضحنا أن التدهور العلمي والأدبي كان قد وصل إلى غايته في عصر الأتراك العثمانيين في مصر التي كانت القلب النابض للعالم العربي. غير أن بقية من الأمل كانت لا تزال معقودة في الدين ورجاله الذين ظلوا يوالون البحث ويتابعون التحصيل والدرس ويمثلون الطبقة المتعلمة على قدر ما كان لهم من ثقافة وإن تكن جامدة محدودة، ولكنها كانت خير ما يمكن الظفر به في هذا الظلام الذي خيم على البلاد العربية وعلى مصر حاملة لواء الثقافة فيها.

انقطعت مصر عن العالم الغربي المتحضر الذي كان يزخر بالمستحدثات من العلوم والفنون، وينعم بقسط عظيم من طرائق البحث ووسائل التحصيل. وبُنْصِيب من النظام والحرية والاطمئنان الحيوي، وظلت بعيدة عن أوروبا الناهضة المتعلمة وعن علومها وفنونها، وأظل ربوعها كساد في شتى النواحي، وأصابها التدهور في المعارف والأخلاق وفي مرافق حياتها الصناعية والتجارية. وما كنا لنتنظر غير

هذا ، فإن نظام الحكم كان فى الدرك الأسفل من الاضطراب ، والحكام كانوا على أسوأ حال من القسوة العاشمة والعسف المرهق ، حتى خمدت الأنفاس وجمدت العقول وفسدت الحياة ، وقلت الحرية ، وانصرف الناس عن العلوم والفنون وزهدوا حتى فى إحراز الثروة فكانوا يفرون من ذلك فرارا لما يستتبعه من إرهاب فى جمع الضرائب الكثيرة المتنوعة

هذا هو الموقف الهابط الذى وصلت إليه الحياة الأدبية والعلمية فى مصر فى العصر العثمانى المظلم ، وهذه هى الحال فى أوائل العصر الذى نتحدث عنه ، فساد شامل وركود متغلغل ، وانحطاط أصاب الثقافة عامة واللغة العربية وآدابها خاصة ، وإن إنهاض اللغة والثقافة من هذه الكبوة يتطلب العزم القوى والنشاط الفتى وجهودا متوالية ممن يبعثهم الله للإصلاح وإشاعة عوامله فى جميع النواحي .

وقد هيا الله للسكنانة من الأسباب ما بعث فيها الحياة ، وقبض لأهلها من جمع شملهم وأيقظهم من غفوتهم ، وأزال ما على عقولهم من غشاوة وما فى قلوبهم من فئور فنهضوا ببلادهم . ووصلت الحال إلى ما نرى الآن من نشاط فى شتى الفروع العلمية والأدبية والاجتماعية وغيرها . فكانت النهضة مباركة ولا تزال مطردة التقدم والازدهار .

ولكى نتبين وجوه هذه النهضة الحديثة يجدر بنا أن نتعرف العوامل التى تضافرت على إظهارها ، ونلم بمجمل الحالة التاريخية التى كان لها أثر فى الحياة العقلية والاجتماعية .

الحملة الفرنسية :

مصر مركز الممالك الشرقية وصلة بين الشرق والغرب ، ولها من موقعها الجغرافى ومركزها التجارى ما جعل لها شأنا فى العالم السياسى ، هذا إلى خصب أرضها ووفرة خيراتها ، ولهذا اتجهت إليها الأنظار ، وتطلعت الدول الأوربية الكبرى إلى أن تمد عليها نفوذها ، وكانت فرنسا تتحفز منذ زمن لا متلا كها طمعاً فى خيراتها

وحسن موقعها ، ولكي تتمكن من عرفة إنجلترا وتهديد مركزها في الهند . وقد أغراها بذلك ما كانت البلاد قد وصلت إليه من تأخر واضطراب ، بسبب ظلم المماليك ونهبهم واعتدائهم .

لذلك أخذ نابليون بونابرت ينفذ أمنيته . فأعد العدة للحملة الفرنسية ، وجهازها بجميع الوسائل الحربية والعلمية ، وسار بها حتى وصل إلى الاسكندرية (سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م) فاستولى عليها ، ثم تغفل في البلاد حتى دخل القاهرة ، وبسط نفوذه على سائر الأحياء . وقد استمر الفرنسيون في مصر إلى سنة ١٢١٦ هـ حين قدمت الحملة الإنجليزية العثمانية فأجلتهم عن البلاد ، وعادت مصر إلى حكم العثمانيين والمماليك .

والذي يعنينا هنا من هذه الحملة هو ما كان لها من آثار علمية وثقافية . فقد استصحب نابليون معه في هذه الحملة طائفة كبيرة من خيرة العلماء والباحثين في شتى العلوم والفنون ، ومعهم كثير من الكتب والآلات العلمية ، وقد شرعوا يعنون للبحث والدرس أصولا ونظما ، وينشئون المعاهد العلمية ، وبدأت الرؤوس العامرة بالمستحدثات العلمية ترسم الخطط للكشف عن كنوز مصر وذخايرها العلمية ، وتعمل على نشر المعارف الأوروبية حتى بهرت المصريين وهالهم ما سحر أعينهم مما فيها من عجائب لم يكن لهم عهد بها .

ومن المعاهد التي أنشأها الفرنسيون « المعهد العلمي المصري » أقاموه في الدرب الجديد بحى الناصرية برياسة العالم المسيو « منج » . وقد نظم هذا الجمع بحوثا في الرياضيات والطبيعات والاقتصاد والأدب ، وكان يصدر كل ثلاثة أشهر نشرة تتضمن ما يصل إليه الباحثون من نتائج . وقد أخرج طائفة من جليل المؤلفات عن مصر ووصفها .

وكان الفرنسيون يدعون المصريين لمشاهدة مايجرون من تجارب علمية في هذا المعهد ، فكانت الظواهر الكيميائية التي يرونها تبهرهم وتخلب عقولهم فيظنونها

سحراً ، وذلك لانقطاع صلتهم بالعلوم الحديثة وقصور ثقافتهم ووقوفها عند ما كان
ذائعا في ذلك الوقت من علوم لغوية وشرعية.

ولقد وصف الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه ماشاهده في هذا
المجمع فقال :

ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة
من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا في كأس ،
ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملون حتى
انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا
أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى
فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على
« السندال » وضر به بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة
انزعجنا منه فضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشهر ضيقة
العم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص
وأدخل معها أخرى على هيئتها وانزلها في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء في
إحداها . وأتى آخر بقتله مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر
الشعلة إليها فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وقرع بصوت هائل أيضا ، وغير ذلك
أمور كثيرة وبراہین حکمیة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل
الفلسفة المستديرة التي يدورون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة
أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطققة . وإذا أمسك علاقتها شخص ولو خيطا
لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج
بدنه وارتعد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعده برجة سريعة ، ومن لمس
هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا ألفا أو

أكثر. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا (١).

وتعد الحملة الفرنسية من عوامل إيقاظ الأذهان وتوجيه عقول المصريين إلى ما هنا لك من علوم حديثة غير التي عرفوها واقتصروا على دراستها. على أن النهضة الحديثة لم تبدأ إلا بعد أن تولى محمد علي زمام الحكم في البلاد سنة ١٢٢٠ هـ وشرع في وضع الدعائم للإصلاح القومي في جميع النواحي.

محمد علي باشا :

هو من سلالة ألبانية. ولد بمدينة قوله سنة ١١٨٣ هـ — ١٧٦٩ م ، وهو العام الذي ولد فيه نابليون . وقد توفي والده ولم تتجاوز سنه الرابعة ، فتولى تربيته عمه طوسون الذي مات بعد مدة قصيرة ، فقام بتربيته أحد أصدقاء والده ، وقد تعلم الفروسية ، واتصل بخدمة حاكم قوله ، وأظهر في عمله حذقا ومهارة . وحين أعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا لغزوها مصر انضم محمد علي إلى فرقة المتطوعين التي جمعها حاكم قوله . وقد أبدى من الشجاعة مانال به إعجاب قواده ، وأبلى في الحرب بلاء حسنا فرقي إلى رتبة قائد فرقة في الجيش ، ومازال يرتقى حتى وصل إلى رتبة « أمير لواء » .

وبعد جلاء الفرنسيين عادت مصر إلى النفوذ التركي ، وتطلع المماليك إلى القبض على زمام الأمور ، وكانت تركيا تبغى القضاء عليهم ليعود نفوذها على مصر تاما . وقد استفحل النزاع في البلاد وتفاقم الخطب ، فاجتمع العلماء والوجهاء وأقاموا محمد علي واليا على مصر ، وأرسلوا إلى الباب العالي يلتمسون تنصيبه فوافق على ذلك سنة ١٢٢٠ هـ — (١٨٠٥ م)

بدأ محمد علي يوطد الأمن وينظم البلاد ، فأظهر مقدرة في إدارة شئونها ،

وتغلب بمهارته وحذقه على ما كان يعترضه من صعاب ، واستقر له الأمر أخيراً فشرع يعمل على إنهاء البلاء وإصلاح ما اختل من أمورها وإنقاذها من الظلم الذى أخذ أنفاسها ، والاضطراب الذى هوى بها إلى الدرك الأسفل ، وقد وجه اهتمامه إلى الجيش وتنظيمه واستعان على ذلك بالملهمين بالفنون الحربية من الأوربيين ، وعنى بإنشاء المدارس وإرسال البعث إلى الممالك الأوربية ليكون له من المصريين المتعلمين عون على الإصلاح الذى رسم خطته .

وقد دب النشاط فى جميع مرافق البلاد بفضل الإصلاح الشامل الذى قام به ذلك البطل العظيم . وأخذت مصر من ذلك الحين تطرح رداء الخمول ، وتفتح نظرها إلى العالم ، وتتصل بالحضارة الأوربية وتنهل من علومها ، وبدأ المصريون يهبون من رقادهم ويوسعون أفقهم العقلى والاجتماعى ، ويسعون سعياً حثيثاً متواصلًا للنهوض ببلادهم وثقافتهم إلى المستوى الذى تسعى إليه الأمم الناهضة ، وإن ما نرى الآن فى مصر بل فى الشرق وفى العالم العربى إنما هو من فيض هذه النهضة المباركة التى لاتزال تؤتى ثمارها جنية طيبة .

وقد سارت النهضة الثقافية والأدبية فى مراحل ثلاث أو عصور ثلاثة :

الأول — من سنة ١٨٠٥ م إلى ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٣ م .

الثانى — من ولاية إسماعيل إلى الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ م .

الثالث — من عهد الاحتلال إلى عهد الاستقلال فى وقتنا الحاضر .

وإنما نجمل القول فى العوامل التى كان لها أثر فى هذه النهضة :

الثقافة :

كانت البلاد قد تدهورت فى ثقافتها وحياتها العقلية ووصلت إلى درجة هابطة من الجهل والجود ، ولم يكن هناك إلا بصيص من المعارف لا ينى بغاية ، فى السكتاتيب التى كانت منتشرة فى البلاد ، ونوع من الدراسة والتعليم على نمط

خاص انتشر في المساجد والمعاهد الدينية وفي الأزهر وبين رجال الدين ، ولكنها كانت دراسة لفظية قاصرة محصورة في دائرة ضيقة من العلوم الشرعية واللغوية ، وقليل غيرها لا يفي بمطالب الحضارة الحديثة ، فإن الصلة كانت منقطعة بين هذه الدراسة وبين ما كان عليه العالم المتحضر من رقي وحياة علمية .

فوجه محمد علي عنايته إلى ترقية البلاد في مختلف النواحي ، وبدأ بالاهتمام بإنشاء جيش قوى يوطد به سلطانه ، ويدفع به ما عسى أن يتهدد مصر من اضطراب في الداخل أو اعتداء من الخارج ، ويستخدمه في توسيع ملكه وبسط نفوذه .

ولقد كانت العناية بالجيش مدعاة للاهتمام بكثير من النواحي الإصلاحية والثقافية . فقد بدأ محمد علي بإنشاء المدرسة التجهيزية الحربية في قصر العينى ، ومدرسة أركان الحرب في أبى زعبل ، وعنى أيضاً بإنشاء مدرسة الطب برياسة كلوت بك الفرنسى ، وكانت في أول نشأتها في أبى زعبل ، ثم نقلت إلى القاهرة سنة ١٨٣٨ م . وأنشأ كذلك مدرسة الطب البيطرى ، ومدرسة للهندسة ومدرسة لتعليم الفنون والصناعات ، ومدرسة لتعليم الألسن ؛ ومدرسة للزراعة العملية ، وحول جزءاً عظيماً من قلعة الجبل إلى دار صناعة لصب المدافع وصنع الذخيرة وغيرها مما يحتاج إليه الجنود . ولقد كان لكل هذا أثره العظيم في تنشيط النهضة العلمية والتعليمية في البلاد .

وقد استعان محمد علي في أول الأمر بالأجانب للتدريس في هذه المدارس وكان المدرسون يلقون دروسهم باللغات الأوربية ، ثم يقوم الترجمة بنقلها إلى الطلاب ، فكان هذا من أسباب مراجعة المعاجم والكتب القديمة للاسترشاد بها في وضع الاصطلاحات وتمحيص العبارات . وفي هذا من وجوه النشاط ما يعد با كورة لإحياء الآثار العلمية القديمة والبدء بالانقفاع بها . وقد وضع هؤلاء

المدرسون طائفة من الكتب استدعت ترجمها إلى العربية نشاطا في الترجمة ونقل بعض الذخائر العلمية .

وإلى جانب ماتقدم من المدارس التي أنشأها محمد على لخدمة الجيش ولتنفيذ الإصلاح أنشأ كذلك مدارس على النمط الأوربي فأنشأ كثيرا من المدارس الحديثة ، بأنواعها الثلاثة الابتدائية والتجهيزية والخاصة^(١) . ثم أنشأ سنة ١٨٣٦ إدارة خاصة سماها ديوان المدارس برئاسة مصطفى مختار من أعضاء البعثة الأولى وكان أغلب أعضاء هذا الديوان من الأجانب ، ومن أعضائه رفاعة بك ومحمد بيومي . وهذا الديوان هو الذي سمي بعد نظارة المعارف ثم وزارة المعارف .

وقد رأى محمد على أن يخطو بالبلاد إلى طريق الحضارة الأوربية والمعارف الحديثة فاهتم بإرسال البعثات إلى ممالك أوربا المختلفة ، واختار من متقدمي الطلاب ومن بعض رجال الأزهر من أوفدهم للتوفر على دراسة شتى العلوم في الطب والكيمياء والتاريخ الطبيعي والمعادن والزراعة والطباعة والحفر والإدارة العسكرية والإدارة الملكية ، والبحرية ، وغير ذلك . وقد أحرز هؤلاء الطلاب النجاح في العلوم التي درسوها ، وحين عادوا إلى مصر كانوا خير عون لمحمد على في إصلاحه ، وأفضل عدة للبلاد في حياتها الجديدة ، وقد توالى البعثات في عهد محمد على حتى وصل عدد طلابها في أوربا إلى أكثر من ثلثمائة ؛ ثم إن محمد على أنشأ في باريس نفسها مدرسة خاصة كان بها نحو أربعين طالبا من بينهم أولاده وأحفاده .

ومن هذا نرى أن النشاط العلمى والحيوى الذى عم البلاد بفضل الجهود التي بذلها ذلك البطل العظيم قد أيقظ البلاد من رقدتها . وأزال عن أبصارها بعض الحجب الكثيفة التي حالت بينها وبين نور العرفان فترة من الزمن طال أمدها . ووضع أساساً صالحاً متيناً في بناء النهضة المباركة . ثم جاء إسماعيل في

(١) راجع الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية للرافعى ص ٤٤٠ .

الفترة الثانية من هذا العصر فرقع قواعده . وجاءت الفترة الثالثة بعد الاحتلال بذلك الاتجاه القومي الذي جاهد المجاهدون لتقوية دعائمه وتثبيت أصوله .

الثقافة في عصر إسماعيل :

تولى الملك بعد محمد علي حفيده عباس الأول بن طوسون بن محمد علي (١٢٦٥ - ١٢٧٠ هـ) - (١٨٤٩ - ١٨٥٤ م) ففضى على كثير من المنشآت التي كانت من مفاخر جده . وأغلق المدارس والمصانع وأبطل البعثات العلمية . ثم تولى بعده سعيد بن محمد علي (١٢٧٠ - ١٢٧٩ هـ و ١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) فلم تكن الإدارة في عهده تامة النظام فقد تسرب إليها الاعتلال والفساد . ولم يكن يشجع العلم وأهله . وبهذا كانت فترة حكمه وحكم عباس الأول فترة هدم وركود في جميع نواحي الإصلاح والتعمير .

ولم ينقذ البلاد من هذا الركود الشامل إلا همة إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي الذي تولى الملك (١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م) فقد سلك طريق جده العظيم في النهضة الحاضرة لمصر . وإن ما تم في عهده من ذلك ليدل على كفاية وذكاء وهمة عالية . ورغبة صادقة في الإصلاح من وجوه كثيرة . فقد عني بتنظيم الإدارة والقضاء . ونال التعليم في عهده حظاً وافراً من العناية . وإذا كانت الوجهة الأولى لمحمد علي في التعليم هي خدمة الجيش وإعداد الضباط والموظفين لمعاونته في إدارة البلاد ، فإن غرض إسماعيل كان نشر العلم بين جميع الطبقات وترقية الأمة وتهذيبها . لينهض بشعبه ويصل ببلادهِ إلى المستوى الذي يحق معه الفخر بأن مصر جزء من أوربا . وقد وجد إسماعيل من الشعب استعداداً . لما طبع عليه المصري من ذكاء ولما له من مدارك سامية وميل إلى العلوم . وقد كان للكثير من الكبراء في مصر فضل في المعاونة في نشر المعارف مثل شريف باشا وعلي مبارك باشا الذي سار بالنهضة الثقافية شوطاً بعيداً .

ومن المدارس التي أنشأها إسماعيل مدرسة الحقوق ، ومدرسة الهندسة سنة ١٨٦٦ م ، ومدرسة الإدارة سنة ١٨٦٨ م وهي التي صارت بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ م ومدارس أخرى كثيرة ابتدائية وثانوية وعالية ^(١) وأنشأ كذلك مدرسة للبنات تحت رعاية إحدى زوجاته . ومن دلائل عناية إسماعيل بالمدارس ونظامها ذلك القانون الذي أصدره في ١٠ من رجب سنة ١٢٨٤ هـ ^(٢) وكان الغرض منه وضع أساس قويم لنظم التعليم . ولقد عالج هذا القانون أكثر المسائل التي تتجه إليها العناية الآن في وزارة المعارف وبين رجال التعليم . وإلى جانب عناية إسماعيل بالمدارس قد وجه اهتمامه إلى البعث العلمية ، فأعاد إليها نشاطها ، واستقدم كثيرا من علماء أوروبا ليستعين بهم على ترقية البلاد وتنظيمها في جميع النواحي ، ولقد كان كل هذا من أسباب تشجيع الأوربيين على الرحيل إلى مصر أو الإقامة فيها ، وزيادة الصلة بين مصر وأوروبا . ولكل هذا أثره العظيم في رقي البلاد ووصولها إلى المكانة التي وصلت إليها .

الثقافة في عهد الاحتلال الإنجليزي :

كان التعليم في مصر في عهد إسماعيل ناشطا والمدارس كثيرة وبها من الطلاب عدد وافر ، وكانت لغة التعليم هي اللغة العربية ، وكتب الدراسة كذلك باللغة العربية في المواد المختلفة . والطلاب يدرسون إلى جانب هذه العلوم إحدى اللغات الأجنبية : الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، ومن أراد التخصص في دراسة اللغات أتم ثقافته في مدرسة الألسن .

(١) راجع كتاب التعليم في مصر لأمين سامي باشا ، والجزء الأول من كتاب عصر إسماعيل للرافعي .

(٢) راجع هذا في كتاب تاريخ التعليم في مصر للأستاذ أحمد عزت عبد الكريم الجزء الثالث صفحة ٣٤ .

وفي عهد الاحتلال سنة ١٨٨٢ م شرعت الحكومة في تنظيم المدارس على نسق جديد ، وجعل التعليم فيها باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، فكان هذا من عوامل إضعاف اللغة العربية وصرف الهمم عن اتقانها إلى حد بعث شكوى الصحف الوطنية . وكذلك ألغيت البعثات إلى أوروبا^(١) . على أن هذا لم يمنع الرغبة التي كانت تيقظت في البلاد من الاهتمام بالتحصيل والشغف بالتعليم ، فأنشأت الحكومة كثيرا من المكتاتيب ، وعينت مجالس المديرية بإنشاء مدارس كثيرة تولتها بنفسها ، وازدادت رغبة الأهالي في تعليم أبنائهم وإرسالهم إلى أوروبا في مختلف عواصمها .

المطابع :

الطباعة خير عون على نشر العلوم والمعارف ، ولقد كانت المطابع من أعظم العوامل في النهضة الحديثة بمصر . وأول عهد مصر بالطباعة كان منذ الحملة الفرنسية ، فقد أحضر نابليون معه مطبعة لطبع المنشورات والأوامر وبعض الصحف والمكتب العربية والفرنسية . وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر بطلت الطباعة فيها حتى أنشأ محمد علي سنة ١٨٢١ المطبعة الأهلية أو مطبعة بولاق ، فكان لها الفضل في طبع كثير من المؤلفات العربية وغيرها ، وفي إحياء المكتب القديمة في شتى العلوم والفنون . وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم .

وقد ظلت مصر فترة من الزمن وليس فيها سوى هذه المطبعة ، ثم توالى المطابع الأهلية وكثرت وتدرجت في الرقي حتى أصبحت وافر العدد عظيمة الإنتاج ، جليلة النفع للثقافة وللعلم والأدب .

(١) راجع ما جاء في تقرير اللورد دوفرين في كتاب حقائق الأخبار ج ٢ ص ٤٤١ .

دار الكتب المصرية :

أسسها إسماعيل باشا سنة ١٨٧٠ م . فقد كانت المطبوعات التي أخرجتها المطبعة الأهلية في بولاق أيام محمد علي مكسدة في مستودع خاص ، وكان في المساجد كثير من الكتب الموقوفة على النفع العام ، وكانت عرضة للتبديد ، فأصدر إسماعيل باشا أمره إلى علي مبارك باشا ناظر المدارس بإنشاء مكتبة ، فأعد لها مكانا في درب الجمائز بجانب ديوان المدارس ، ونقل إليه الكتب المذكورة ، وأضيف إليها كثير من الكتب التي اشترت من تركة حسن باشا المنسترلي ، ومن مكتبة الأمير مصطفى باشا فاضل ، وهو أخو الخديو إسماعيل ، وما زالت دار الكتب تنمو وتزداد ذخائرها بعد نقلها إلى مكانها الحالي بباب الخلق حتى وصلت إلى درجة عظيمة ، وأصبحت أكبر مكتبة في الشرق ، ولها في الثقافة ونشر المعارف ومعونة الباحثين فضل عظيم .

الصحافة :

إننا حين نتعرض للصحافة في أثناء البحث في عوامل الثقافة إنما نشير إلى وسيلة من أقوى الوسائل في إذاعة المعارف وتغذية الفكر ونشر الحضارة وإيقاظ الأذهان وحفز الهمم إلى الأمن القومي . ولبعض الصحف في مصر الفضل في إظهار طائفة من أرباب الأقلام ورجال الأدب ، وبعضها كان أشبه بمدرسة لتخريج الكتاب وإعداد رجال الإصلاح ، وتمكين قادة الرأي من الإدلاء بما يرون من الوسائل لإنهاء البلاد وتوجيهها إلى الخير .

وأول عهد مصر بالصحافة كان في أيام الحملة الفرنسية ، فقد أنشأ الفرنسيون في أثناء إقامتهم بمصر جريدتين فرنسيتين ، وأنشئوا كذلك صحيفة تسمى (التنبية) كان يحررها السيد إسماعيل الخشاب ، وهي أشبه بالمنشورات القضائية والعسكرية لتدوين ما كان يجري في الديوان الذي أنشئوه للقضايا .

وقد سارت الصحافة بعد ذلك فى أدوار أربعة :

١ - فى عهد محمد على أنشئت (الوقائع المصرية) سنة ١٨٢٨ م وهى أول صحيفة عربية بالمعنى القام . وكانت تصدر أولا بالتركية ، ثم بالعربية والتركية ، ثم صارت عربية خالصة ، ولا تزال كذلك إلى الآن . وكانت تنشر أخبار الحكومة وأوامرها وأحكامها وتعالج إلى جانب ذلك طائفة من الموضوعات العامة الأدبية والاجتماعية . وقد تولى تحريرها نخبة من أدباء النهضة الحديثة وكتابها منهم الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين المصرى ، واشترك فى تحريرها بعد هذا العصر أيضاً الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سامان وغيرهم .

٢ - وبعد عهد محمد على لم تصدر فى مصر صحيفة أخرى إلى عهد إسماعيل ، وتحول نشاط الصحافة فى هذه الفترة إلى سوريا ، فظهرت فيها بعض الصحف ، ومنها صحف سياسية ، بسبب ما نبت من مشكلات خاصة بالمسائل الشرقية وبالأضطرابات الداخلية فى سوريا .

٣ - وفى عهد إسماعيل نشطت الصحافة فيما نشط من أنواع الثقافة والآداب التى عمل على أحيائها متابعة لنهضة جده . وقد قرب إسماعيل إليه العلماء والأدباء ونشط العلم وأهله ، وأخذ بأسباب المدنية الحديثة فشجع هذا كثيراً من السوريين الذين كانوا يرزحون تحت الحكم التركى ، على أن يهاجروا إلى مصر ويمشغلوا بالصحافة . وقد أنشئوا بعض الصحف مثل الأهرام سنة ١٨٧٢ م . ونشط المصريون كذلك فى الاهتمام بالصحافة بعد أن أهملوها فى الفترة السابقة .

وفى سنة ١٨٧٠ م صدر العدد الأول من مجلة (روضة المدارس) ، وكان يصدرها ديوان المدارس ويشارك فى تحريرها طائفة من العلماء والأدباء منهم عبد الله باشا فكرى ، وكان يشرف عليها رفاعة بك رافع ناظر قلم الترجمة

بديوان المدارس ، وقد استمرت ثمانى سنوات ، وكانت حافلة بمختلف الموضوعات فى العلوم والفنون .

٤ -- وبعد الاحتلال اتجهت الصحافة اتجاها سياسيا وقوميا ، وأنشئت صحف لمناصرة الجهات السياسية المختلفة ، فمنها ما كان يناصر فرنسا ، ومنها ما كان يعاون إنجلترا ، وبعضها كان يعاضد الدولة العثمانية . وقد أحس الوطنيون خلوا الميدان من صحيفة قومية ، فأنشئت جريدة (المؤيد) وهى أول جريدة وطنية إسلامية فى هذا الدور ، ثم صدرت بعدها جريدة (اللواء) فكانت شعلة من الوطنية والمجاهرة بأمانى البلاد والمطالبة بحريتها . ثم توالى الصحف فى مصر وعظم شأنها وارتقت أساليبها وتنوعت موضوعاتها ، حتى شملت كثيراً من وجوه الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والعلمى والادبى ، وأصبحت عظمة الأثر قوية الشأن .

هذه بعض عوامل النهضة الحديثة ، وإنك ترى من خلالها رقياً متدرجاً فى الثقافة تبعه تقدم مطرد فى أحياء العلوم والآداب ، وفى إيقاظ المدارك . وقد ازداد هذا النشاط فى أيام إسماعيل ، فكانت القومية المصرية فى توثب وانتعاش وتحفز إلى نهوض يليق بمكانة البلاد وعزة أهلها . ثم جاء عهد الاحتلال الإنجليزى ففتر جانب من هذا التوثب ، وتحولت لغة التعليم إلى غير العربية ، فكان ذلك من عوامل أضعافها وتصدى لتعليم المواد المختلفة غير أهل البلاد ، وأصبح التعليم أداة لتخريج موظفين ، لا عوناً على الثقافة ، ولا سبباً من أسباب انهيار الشعب وترقيته .

ولكن الشعب المصرى الذى ذاق طعم الحياة لم يرض بغير الحياة السكرية ، فجاهد حتى ظفر بالقسط الذى رفع شأنه وثبت أقدامه . وكان للحياة العلمية والأدبية من ذلك نصيب من عنايته .

* * *

ولا ننسى أن نضيف إلى العوامل التي أوضحناها عوامل أخرى لها شأنها في النهضة الأدبية وهي التمثيل والأندية والجمعيات العلمية والأدبية ، والمرافعة أمام المحاكم باللغة العربية ، وغير ذلك من الأسباب الاجتماعية التي كان لها في اللغة والأدب أثر محمود .

نعرض بعد هذا إلى مجمل ما كان من إنتاج علمي وأدبي وفني في هذه النهضة.

التأليف والمؤلفون

لم يأت النهوض في هذا العصر طفرة بل قطع مراحل متدرجة في الفترات المتعاقبة . ففي الفترة الأولى كانت المؤلفات في مصر في اللغة والأدب على نمط العصر الذي سبق النهضة ، فلم يكن هناك تجديد أو ابتكار . ثم بدأ نشاط المؤلفين في عهد اسماعيل ، واطرد النهوض والتقدم في الفترة الأخيرة من هذا العصر .

وفي سوريا كان النشاط أكثر وضوحاً فيما أظهره اليازجي وأحمد فارس و بعض من تصدوا للتأليف في فلسفة اللغة ونقل بعض الموضوعات عن الغربيين أو مجاراتهم في نظام التأليف والبحث . ويلاحظ أن بعض المسيحيين كان لهم باللغة والأدب اهتمام وإمام ، وقد أظهروا من المؤلفات ما يدل على عناية وشغف بالاطلاع . وظل التأليف في التاريخ على ما كان في العصر السابق . وكان أكثره نقلاً

وتلخيصاً خالياً من النقد . وحين ازدهرت النهضة الحديثة وازداد النشاط العلمي دخل التأليف التاريخي في طور جديد فتسربت إليه مظاهر التنسيق وحسن الترتيب والتبويب ، وامتزج بالبحث المقرون بالنقد والتحقيق وأصبح التاريخ علماً له فلسفته وله أصوله التي رسمها الغربيون ونقلها من نقلوا عنهم نظم البحث من الشبان الذين درسوا في المعاهد الأوروبية .

وإليك تعريفاً موجزاً ببعض أعلام النهضة في اللغة والأدب والتاريخ :

١ — الشيخ محمد الدسوقي (١٢٣٩ هـ — ١٨١٥ م)

ولد في دسوق وجاء إلى القاهرة لطلب العلم . ومن مؤلفاته حاشية الدسوقي على معنى اللبيب في النحو . وحاشية على سعد الدين التفتازاني في البلاغة .

٢ — الشيخ حسن العطار (١٢٥٠ هـ — ١٨٤٤ م) ولد بالقاهرة ثم طلب العلم وتعلم مبادئ الهيئة واتصل ببعض الفرنسيين حين إقامتهم بمصر ، فتعلم بعض العلوم المصرية ، ثم رحل إلى الشام وعاد إلى مصر وتولى مشيخة الأزهر . ومن كتبه : إنشاء العطار وحاشية على شرح الأزهرية في النحو ، وأخرى على شرح السمرقندية في البيان .

٣ — الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري (١٣٠٦ هـ — ١٨٨٨ م) وكان من أكبر علماء مصر في زمنه ، وقد استمدعاه الخديو إسماعيل لتعليم أبنائه ، وجعله الخديو توفيق إماماً للمعينة . ومن مؤلفاته : سعود المطالع جمع فنوناً شتى — ونفح الأكام في مثلثات الكلام ، ومؤلفات كثيرة أخرى .

٤ — الشيخ حسين المرصفي (١٣٠٧ هـ — ١٨١٩ م) وكان ذكياً مجداً ، تلقى العلم في الأزهر وتولى التدريس فيه ، وكان كفيف البصر . ومن مؤلفاته الوسيلة الأدبية في العلوم العربية .

٥ — الشيخ عبد الله الشرقاوي (١٢٢٧ هـ — ١٨١٢ م) تعلم بالأزهر ، وقام بالتدريس فيه . وقد ولاه الفرنسيون رئاسة ديوان الأحكام الذي أنشئها مدة إقامتهم بمصر . ومن مؤلفاته : تحفة الناظرين فيمن تولى مصر من السلاطين .

٦ — الشيخ شهاب الدين المصري (١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م) ولد بمكة ورحل إلى مصر وبرز في الأدب والشعر ، وساعد الشيخ حسن في تحرير الوقائع المصرية ، ثم خلفه في تحريرها . ومن مؤلفاته : سفينة الملك ونفيسة الفلك فيها أمثلة من الأغاني والأزجال والأهازيج والموشحات التي يتغنى بها ، وله ديوان شعر مطبوع .

- ٧ — السيد على الدرويش (١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م) كانت له منزلة بين الأمراء والوجهاء وكان شاعر الخديوى عباس الأول .
- ٨ — الشيخ محمد الأمير (١٢٣٢ هـ — ١٨١٧ م) ولد في بلدة صنبو في مديرية أسيوط وطلب العلم في الأزهر . وله مؤلفات في علوم كثيرة .
- ٩ — رفاعه بك رافع (١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م) وهو من دعائم النهضة الحديثة ، تلقى العلم في الأزهر ، ثم سافر مع البعثة الأولى لمحمد علي ودرس اللغة الفرنسية ثم درس التاريخ والجغرافيا وغيرها ، ولما عاد إل مصر تولى الترجمة في مدرسة الطب ثم كان مديراً لمدرسة الألسن ، وتولى إدارة مجلة روضه المدارس . وله مؤلفات كثيرة .
- ١٠ — على مبارك باشا (١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م) وهو زعيم النهضة الحديثة التعليمية في عصر إسماعيل ، ولد في برنبال في مركز دكرنس بالدقهلية . وقد تعلم في المدارس المختلفة النظامية التي أنشأها محمد علي ، ثم انتظم في سلك البعثة الخامسة التي كان بها بعض أنجال محمد علي وأحفاده وقد تقلب في مناصب كثيرة ، وكان أخيراً وزيراً للمعارف ، وله في تنظيم التعليم جهود مشكورة . ومن مؤلفاته : الخطط التوفيقية — وعلم الدين وهي رواية عمرانية .
- ١١ — عبد الله باشا فكري (١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م) وهو من أعلام الأدب في عصر إسماعيل . طلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية والعلوم الشرعية ثم انتظم في سلك المعية في عهد سعيد باشا ، وتولى كتابة الرسائل الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر إلى عهد إسماعيل واتصل به ، وتولى الإشراف على تعليم أنجاله ، وكان له أثر في النهوض بأسلوب الكتابة الرسمية . وقد تدرج في المناصب حتى صار وكيلاً لوزارة المعارف سنة ١٨٧٩ م ثم تولى وزارة المعارف في وزارة محمود باشا سامي البارودي سنة ١٧٨٢ م وسنعرض لترجمته بعد بشيء من التفصيل .
- ١٢ — محمد عثمان جلال بك (١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م) تلقى العلم

في مدرسة قصر العيني حين كانت مدرسة إعدادية ، ثم صار تلميذاً لرفاعة بك في مدرسة الألسن . وكان يميل إلى الفن الروائي . وقد شغل مناصب كثيرة في الحكومة ، وكان آخرها منصب القضاء في المحاكم المختلطة . ومن مؤلفاته : كتاب العيون اليواظ ، وهو تعريب شعري لخرافات لافونتين . وعرب رواية تروتوف لموليير وسماها (الشيخ متلوف) بعد أن تصرف فيها وأكسبها مسحة مصرية

١٣ — الشيخ ناصيف اليازجي (١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م) وهو من أركان النهضة العلمية في سوريا وله اضطلاع راسخ باللغة والأدب والشعر . ومن مؤلفاته مجمع البحرين وهو مقامات على نسق مقامات الحريري ، وله مؤلفات مدرسية كثيرة في النحو والصرف والبيان .

١٤ — أحمد فارس الشدياق (١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م) ولد في لبنان ، ثم انتقل إلى مصر وحرر في الوقائع المصرية مدة ، ثم رحل إلى أوروبا وغيرها . وتعرف إلى باي تونس فأكرمه ، ثم أسلم وسمى أحمد : وكان متضلعا في علوم اللغة ومن مؤلفاته : الساق على الساق ، وهو كتاب لغوي فكاهي — والجالسوس على القاموس .

١٥ — الشيخ إبراهيم اليازجي (١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م) وهو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ، ولد في بيروت ونشأ فيها ، وكان ممن يعتقد بهم في اللغة في عصره وقد انتقل إلى مصر ، وأنشأ مجلة البيان ثم مجلة الضياء وبها بحوث جلية في اللغة والأدب . ومن مؤلفاته : كتاب نجعة الرائد في المترادف والمتوارد .

١٦ — سعيد الشرتوني (١٣٣٠ هـ — ١٩١٢ م) ولد في لبنان وتعلم اللغة العربية وعلمها في مدرسة اليسوعيين في بيروت . وأشهر مؤلفاته : كتاب أقرب الموارد في اللغة .

١٧ — الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١٢٤٠ هـ — ١٨٢٥ م) أصله من جبلة في الحبشة ، وكان أبوه من كبار علماء الفلك . وقد تعلم الجبرتي في الأزهر

ثم انقطع للتأليف ، وقد دون الحوادث التي جرت في زمنه أيام الفرنسيين بمصر وبعدهم في كتابه المشهور المسمى « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

١٨ — إسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٤ م) تعلم في مصر ثم ألحق بالمدرسة البحرية وأتم تعليمه بها ، ثم أرسل في بعثة البحرية إلى إنجلترا ، ولما عاد إلى مصر تدرج في المناصب حتى أصبح وكيلا لوزارة الحربية . وأشهر مؤلفاته : كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) .

١٩ — رفيق بك العظم (١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م) ولد في دمشق ونشأ بها وعكف على دراسة التاريخ والأدب ، ثم رحل إلى مصر . ومن مؤلفاته : كتاب (أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة) .

٢٠ — الشيخ محمد الخضرى بك (١٩٢٧) م ولد بالقاهرة ونشأ بها وتعلم في دار العلوم وكان معروفا بالجد والنشاط ووزارة المسادة وكثرة القراءة والاطلاع وقد اشتغل بالتعليم في المدارس الأميرية ، وتولى القضاء في السودان مدة ، ثم كان مدرسا في كلية غردون بالخرطوم ، ومدرسا في مدرسة القضاء الشرعى بمصر ، وكان وكيلا لها ، ونذب لتدريس التاريخ الإسلامى بالجامعة المصرية القديمة . ومن مؤلفاته : محاضرات في التاريخ الإسلامى إلى آخر العصر العباسى ، وكتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ، وكتاب إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء ، وكتاب التشريع الإسلامى .

الترجمة والعلوم الحديثة :

كان أساس الثقافة العربية منذ بدايتها هو علوم اللغة والأدب والعلوم الشرعية والتاريخ ، وإلى جانب هذا شيء من الفلسفة وطائفة من البحوث العلمية والرياضية مما اقتبسه العرب عن غيرهم وهضموه وصبغوه بعقليتهم ومزجوه بثقافتهم .

وقد ظلت الثقافة العربية حينئذ من الدهر تشع في الآفاق ، حتى دب الهرم

والتفكك إلى الدولة العربية ونقصت من أطرافها ، وتغلغلت العناصر التركية في قلب البلاد العربية فغلبتها على أمرها ، وكان لذلك نتائجه في هبوط الثقافة العربية كما رأيت ، واستفحل هذا الهبوط حتى وصل إلى أسوأ حال قبيل النهضة الحديثة . وكانت أوربا في خلال ذلك تخطو إلى الرقي قدما ، وتسير سيرا مطردا المراحل وتثبت لمدينتها أساسا من العلم ومستحدث التجارب وما ابتكرت من ألوان للثقافة جديدة في بعض مناحيها ، أو مستمدة من آثار المدينيات السابقة من عربية وغيرها في بعض النواحي .

وقد ظلت مصر وسائر الأقطار العربية فترة طويلة بمعزل عن كل هذا النهوض بعيدة عن الأخذ بأسبابه أو تعرف آثاره ، غارقة في غمار من الجهل والاستبعاد والاضطراب ، وكادت تنقطع صلتها حتى بالعلوم العربية الصميمة وما يتصل بها من علوم إسلامية . وحين تهيأت لها أسباب النهوض الذي أوضحنا لك بعض عوامله ، لم تجد مناصا من أن تتخذ العلم عدة لها ومرشداً فسلكت سبيله ، وعكفت على إحياء ما استطاعت الظفر به مما بقي من آثار عربية ، ثم اتجهت إلى العلوم الحديثة ، وهي أساس النهوض ودعامة التجديد ، فلم تجد لديها منها شيئا ، ورأت أنه لا سبيل إلى ذلك إلا أن تولى وجهها شطر أوربا وعلومها وعلمائها لتنتقل عنهم وتسترشد بمؤلفاتهم .

وقد اتجهت همه محمد علي إلى ذلك كما رأيت ، فترجمت في عهده طائفة من الكتب في الطب والعلوم الطبيعية والفنون العسكرية وغير ذلك من العلوم الحديثة . ولم يكن النقلة والمترجمون في أول الأمر من المتضلعين في اللغة العربية ولا من أهلها الذين درسوها ، ولذلك كانت ترجمتهم خالية من التحري ولتمحيص . فكان يعهد في إصلاح عباراتها إلى فريق من المصححين يصفقونها ويحسنون تحريرها .

وفي عصر إسماعيل استمر نقل العلوم إلى العربية ، ولكنه لم يكن نقلا حرفيا

بل تحول إلى نوع من التأليف هو في حقيقته جمع أو تلخيص في كثير من نواحيه.
ولقد كان للبعوث التي أوفدها محمد على ثم إسماعيل ، ولمن تخرجوا من
المصريين في خلال هذه النهضة أثر في النقل والترجمة جعلها بمأمن من
الانحراف والخطأ .

وإنا نورد تعريفاً مجملاً بأشهر من كان لهم الفضل في نقل العلوم الحديثة .

علماء الطب :

١ — إبراهيم النبراوى (١٢٧٩ هـ — ١٨٦٢ م) بعد أن تعلم في المراحل
الأولى التحق بمدرسة الطب بأبي زعبل ثم اختير في البعثة الأولى من بعثات محمد على
التي صحبها كلوت بك إلى باريس ، وبعد أن عاد تدرج في المناصب حتى صار
رئيساً للأطباء في مدرسة الطب . ومن مؤلفاته التي ترجمها عن الفرنسية . كتاب
الأربطة الجراحية — ونبذة في الفلسفة الطبيعية — ونبذة في أصول الطبيعة
والتشريح العام .

٢ — أحمد حسن الرشيدى (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م) بعد نشأته التعليمية
الأولى اتصل بالأزهر ثم اختير في البعثة الأولى من بعثات محمد على . ومن مؤلفاته
رسالة في التطعيم الجدرى — ضياء النيرين في مداواة العينين — طالع السعادة
والإقبال في علم الولادة وأمراض النساء والرجال — بهجة الرؤساء في أمراض
النساء — نزهة الإقبال في مداواة الأطفال — الروضة البهية في مداواة الأمراض
الجلدية — نخبة الأمثال في علاج تشوهات المفاصل .

٣ — محمد على باشا البقلى (١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م) تعلم في مرحلته الأولى
ثم دخل الأزهر ، ثم التحق بمدرسة الطب في أبي زعبل ، واختير في البعثة الأولى
ولما عاد عين أستاذا للجراحة في مدرسة الطب . ومن مؤلفاته : روضة النجاح
الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى — غرر النجاح في أعمال الجراح —

نشر الكلام في جراحة الأقسام .

٤ — محمد بك الشافعى . من أعضاء البعثة الأولى . ومن مؤلفاته : أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض — السراج السوهاج في التشخيص والعلاج .

٥ — محمد باشا الدرى (١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م) تعلم في مدرسة الناصرية ثم دخل مدرسة الهندسة ، ثم مال إلى الطب وعين معيداً للجراحة ، ثم سافر إلى باريس زمن سعيد باشا ، ومن مؤلفاته : تذكار الطبيب — بلوغ المرام في جراحة الأقسام — الإسعافات الصحية — رسالة في الهيمضة الوبائية .

٦ — على بك رياض الصيدلى (١٣١٧ هـ — ١٨٩٩ م) تعلم الصيدلة في مصر ثم أتمها في أوروبا . ومن مؤلفاته : النفحة الرياضية في الأعمال الإقرباذينية — الأزهار الرياضية في المادة الطبية .

ومن الأطباء أيضاً : محمد بك بدر ، أحمد بك حمدى الجراح ، حسن باشا محمود ، أحمد بك ندا ، سالم باشا سالم ، ولهم مؤلفات كثيرة .
علماء الرياضيات :

١ — محمد بيومى (١٢٦٨ هـ — ١٨٥١ م) وهو من تلاميذ البعثة الأولى . ومن مؤلفاته : الهندسة الوصفية — ثمرة الاكتساب في علم الحساب — كتاب الجبر والمقابلة .

٢ — مصطفى بهجت باشا (١٢٨٤ هـ — ١٨٦٧ م) تعلم بمدرسة قصر العيني حين كانت مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية ، ثم التحق بمدرسة الهندسة بالقلعة ثم سافر إلى فرنسا في البعثة الأولى ، وأقام بباريس عشر سنوات وأتقن العلوم الرياضية والهندسية . ولما عاد تقلب مناصب مختلفة ، ثم عين ناظراً لديوان المدارس . ويعد من كبار المهندسين .

٣ — محمود باشا الفلكى (١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م) نبغ في عصر إسماعيل

وأرسلته الحكومة إلى أوروبا ، ولما عاد تقلب في مناصب كثيرة . وتولى وزارة الأشغال ثم وزارة المعارف ، وله رسالة في التقاويم العربية قبل الإسلام ، حقق فيها ولادة النبي صلى الله عليه وسلم فأثبت أنها في ٩ من ربيع الأول الموافق ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م — ورسالة في التقاويم الإسرائيلية الإسلامية . ورسائل أخرى .

٤ — إسماعيل باشا الفلكي (١٩٠١) وهو من تلاميذ محمود باشا الفلكي . سافر إلى أوروبا في البعثة التي أرسلها عباس الأول لدراسة الفلك . وهو من النابغين في الفلك والرياضيات . ومن مؤلفاته : الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة — التحفة المرضية في المقاييس والموازن المتريه — تقاويم ملكية مختلفة .

٥ — شفيق بك منصور يكن (١٣٠٨ هـ — ١٩٠١ م) درس في مصر ، ثم سافر إلى أوروبا ، وله مؤلفات كثيرة في الجبر والهندسة والحساب والتفاضل ، والتكامل .

٦ — مختار باشا المصري (١٣١٥ هـ — ١٧٩٧ م) تعلم في المدارس الحربية ثم انتظم في الجيش ورقى حتى وصل إلى رتبة لواء ، وله مؤلفات كثيرة في الرياضة والفلك .

ومن علماء الرياضة أيضاً : إبراهيم رمضان بك وأحمد فايد باشا ، وحسن بك نور الدين وإسماعيل باشا محمد وغيرهم .

وقد نبغ كثير من العلماء في الطبيعيات والزراعة والحقوق والعلوم السياسية والحربية والإدارة العسكرية والملاحة والعلوم البحرية والقانون وغير ذلك .

وقد نشطت ترجمة العلوم الحديثة في سوريا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويرجع هذا النشاط إلى المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت حين شرع أساتذتها في التعليم باللغة العربية . ومن أشهرهم : الدكتور فاندريك والدكتور

يوحنا ورتبات والدكتور جورج بوسط وغيرهم .

* * *

هذه إشارة موجزة للنشاط في العلوم الحديثة وماجد فيها من كتب ألغت أو ترجمت . وإنك لترى فيها اهتماما شاملا بالاستفادة من علوم أوربا ومبتكراتها ، وعناية بالدرس والترجمة ، وأساسا صالحه للنهضة العلمية الحديثة .

والمتعلمون في عصرنا الحاضر من شبان وكهول لهم في ميادين العلوم الحديثة بحوث ناضجة ومؤلفات محكمة الترتيب غزيرة المادة واضحة الطريقة قوية النهج وبعضها يدل على عمق في البحث وتوفر على الدراسة العالية . ولننظر بعد هذا إلى نصيب الأدب والشعر والنثر من هذا النهوض الحديث .

* * *

الأدب في عصر النهضة الحديثة

يرتكز الأدب على دعامتين أساسيتين : أولاهما الأفكار والمعاني وثانيتهما الألفاظ والأساليب والتراكيب أي أن للأدب صورة ومادة . أما صورته فهي اللفظ والأسلوب ، وأما مادته فهي المعاني والفكر والنزعات ، وأهي كل ما في الحياة وما في النفس وما في الطبيعة . وعلى قدر حظ الأدب من هذين العنصرين يكون نصيبه من السمو أو ضده ، ومن الرقي والنشاط أو التدهور والركود . وتبعاً لنصيب المرء من المعاني الصافية السامية والعبارات الرصينة والأساليب الجزلة المتينة يكون استعداده للأدب ولالأخذ منه بنصيب .

وإذا ضعفت ناحية من هاتين أصاب الأدب الضعف وفسدت صورته أو مادته أو هزلتا فأصبح ظالماً أو مقعداً : فحين تضعف المعاني وتقفز منها القلوب والعقول يكون الأدب أجوف هشاً خالياً من اللب ، ويتجه إلى الثرثرة أو إلى زخرف القول . وحين يقل الذخر من اللفظ والعبارة ويقصر تذوق جيد الأساليب ، يكون أدباً ركيكاً متعترراً في ردى اللفظ وعامى التراكيب ومتدهور

الأساليب ، بعيداً عن الاتصال بالنفس ، ويكون إلى الأدب الرخيص أدنى
وبأدب الجهال والعوام أشبه .

فاللفظ والمعنى هما جناحا الأدب بهما يخلق ويسمو ، وعليهما نهوضه ، ومنهما
يستمد قوته ونشاطه .

أما اللفظ فعينه دراسة الجيد من كلام العرب في العصور الزاهية دراسة نقد
وتفهم وتحليل ، مع مراعاة ما يلائم العصر من الألفاظ والأساليب . وأما المعانى
فمرجعها الثقافة ، وسعة التجارب ، والدرس العلمى .

وإلى جانب هذين العنصرين عوامل أخرى للأدب ونموه وقوته ترجع إلى
الفرد ومواهبه ، وسلامة ذوقه ، وحسن اختياره ، ونفسه الحساسة ، وإلى البيئة
وما فيها من تشجيع وتقدير للأدب ورجاله .

فلننظر بعد ذلك إلى حظ الأدب في العصر الحديث من كل هذا :

١ — أما الثقافة وحظ هذا العصر منها : فقد أوضحنا لك أنها كانت في
أوله صورة من العصر السابق في الكساد والظلام والفقر العقلى الشامل ، والجذب
العلمى المستحكم . وقد رأيت أن مصر والأقطار الشرقية العربية كانت منقطعة
الصلة بالآداب العربية القديمة وبالنهوض الحديث وبالثقافة الأوروبية التى قطعت
مراحل فى نموها وتقدمها . ولم يكن القدر السائد من الثقافة فى الكتاتيب
والمعاهد الدينية وغيرها بالقدر الذى يطفىء غلة ، أو يغذى ميولا علمية ، أو يحقق
غاية من ينشدون الإصلاح والتجديد ، فهو قدر ضئيل هابط كما علمت .

٢ — وأما التحصيل اللغوى والإلمام بأساليب التعبير ، فقد كان راكدا ،
وكانت منابعه محجبة مطموسة بعيدة المنال ، لا يعرف القوم من أمرها اسما ولا رسما ،
ولم يكن لكتب الأدب العربى القديم خطر من الذيوع فكان الجهل بها مطبقاً ،
وكان أثر ذلك فى الأدب عميقاً .

٣ — وأما العوامل الأخرى من التشجيع ، والذوق السليم ، والمواهب النامية والعزة القومية ، فإنك تستطيع أن تتبين أنه لم يكن للادب حظ منها .

فالرجوع بالأدب إلى سابق قوته وازدهاره ، أو وضع أسس لاتجاهه إلى طريق النهوض إنما يتطلب نهضة في هذه النواحي الثلاث : (١) الناحية اللفظية (٢) والناحية المعنوية أو الثقافية (٣) والناحية النفسية للشعب وحرية ونزعاته وحياته .

ولقد سارت عوامل النهضة في هذا الاتجاه سيرا متدرجا في عصر محمد علي وفي عصر اسماعيل وفي العصر الأخير بعد الاحتلال ، فاتجه محمد علي إلى وضع دعائم الإصلاح وقواعد الاستقلال ، واهتم بالمدارس الحربية وما يتصل بإعداد الجيش وتقويته وإمداده بالذخيرة ، وعنى أيضاً بالمدارس الفنية التي تمكنه من النهوض بالزراعة والصناعة وغير ذلك من مرافق الحياة ، ثم وجه عنايته إلى إرسال البعث لأوربا ليظفر بطبقة من المعلمين يستعين بهم في إدارة شؤون البلاد . حتى إذا ما اطمأن إلى ذلك شرع في نشر التعليم بين طبقات الأمة ، فأنشأ كثيرا من المدارس الابتدائية والثانوية على النظام الحديث .

ثم جاء إسماعيل فتابع الخطا في النهوض بالتعليم ، وقرب إليه الأدباء والعلماء وشجع الأوربيين على الرحيل إلى مصر ، فطابت لهم الإقامة ، وكانوا من عوامل التنشيط وتوجيه الأذهان إلى الجديد في الثقافة وفي الحياة العلمية ، وكان عهده منميا للقومية المصرية مزدهيا بمظاهر الفخامة والتعمير والنهوض ، وكان ميله للأدب حافزا للأدباء ، ومنشطا للباحثين .

وفي خلال هذين العهدين ، عهد محمد علي وعهد إسماعيل ، كان المطابع أثر عظيم في إحياء الآداب العربية القديمة ، فكانت ذخيرة عكف على دراستها وتفهمها المتعلمون .

ثم جاء العهد الأخير فعظم النشاط العلمى ، وازداد اتصال المتعلمين بأوربا وعلومها وأنواع ثقافتها ، وأيقن القوم أن النهضة الحديثة لاغنى لها عن مجارة أوربا فى ثقافتها ومظاهرها فحياتها فجدوا فى المحاكاة شكلا وموضوعا ، وكان حظ الأول أوفر فى كثير من الطبقات .

وإنك لترى من هذا أن نهضة الأدب جاءت على أساس من الأدب العربى القديم ودراسته ومحاكاة أساليبه وأغراضه ومعانيه ، والتشبع بأخيلته ومافيه من ألوان البيان . وإلى جانب هذا كانت تسير فى اتجاهها الحديث أوشبه الحديث ، والمصريون يأخذون من الحياة الاوربية بالنصيب الذى وسعته ميول الشعب وتقاليده البلاد . لهذا كان هناك اتجاهان : قديم يسير فيه الادب ، وجديد تسير فيه الحضارة التى تعلق المصريون بأذيالها ورأوا أنه لا سبيل إلى النهوض إلا بالسير وراءها ، وبمجاراة الاوربيين فى مدنيتهن وفى نظامهم ومباهج حياتهم ومظاهر معيشتهم وأساليبهم فى البحث وفى التفكير .

ولكن الادب إنما ينبع من الحياة ، ولا يقوم إلا على مسابقتها ، فاستمراره فى ترسم معالم الماضى والتزام اتجاه السابقين فى تفكيرهم وخيالهم واستعاراتهم وأساليبهم دون تصرف ، يجعله بمعزل عن الحياة الحديثة ، ويبعده عن أن يكون أداة لها ، ويصرف عنه طائفة هى أولى بأن يكتسبها الادب ، وهى طائفة الناشئين ومن ساروا فى تعليمهم وفى بعض نواحي حياتهم سيرا حديثا .

فلا بد إذا من التوفيق بين الادب واتجاهه وبين ما ينبع منه وما يقوم لخدمته وهو الحياة التى لاغنى لها عن الادب ولاغنى للأدب عنها ، ولكى يزداد هذا الموقف بين الادب والحياة الحديثة وضوحا ، نذكر كلمة مجملة عن الأدب وغايته .
الأدب هو هذا الإنتاج العقلى الذى نصوغه فى قوالب من اللغة ، وهو وثيق الاتصال بمنابع ثلاثة وهى : الفرد ، والبيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية أو هى :

النفس الإنسانية ، والطبيعة ومظاهرها ، والحياة وما فيها مما تحدثه يد التجديد ، كما أشرنا من قبل ، فلا بد أن يتصل الأدب بالنفوس وخلجاتها وآمالها ونزعاتها ، وبالحياة وأسرارها ومشكلاتها ، وبالطبيعة وما فيها من جمال ومظاهر . فالأدب لا يقوم إلا على دعائم من الحياة ، وأغراضه إنما تقتبس من الحياة ومن التفكير في مظاهر الكون وبديع ما خلق الله ، وفي الأسرار الكامنة في نواحي هذا الوجود الناطقة في صمتها ، المتموجة في سكونها ، المملوءة بغزير الإيماء ومختلف المعاني . ولا معنى للحياة إذا خلت من هذا ، كما أنه لا أثر للأدب إذا لم يستمد قوته وعناصره من هذا . بالأدب هو الحياة في مرآة من اللغة ، أو هو الحقائق الناصعة في هذا الوجود تسطع على نفس الأديب فيعكسها أشعة روحية ، وتسطع عليها نفسه فتتير أمام القارىء . ويراه في ثنايا الكلمات والعبارات .

وإذا أردنا أن نزيد هذا التعريف وضوحا رجعنا بك إلى علم النفس وآراء رجاله في مظاهر الشعور الثلاثة وهي : الفكر والوجدان والإرادة ، وهي مظاهر كامنة تتجلى في غايات ثلاث تنسدها الإنسانية وهي : الحق والجمال والخير . فالفكر غايته الحق ، والوجدان غايته الجمال ، والإرادة غايتها الخير . فالحق والخير والجمال هي المثل العليا للنفس وهي ضالة الحياة . والأدب إذا لم يتجه إلى الإشادة بها والعمل على تحقيقها وتنميتها فقد بعد عن الحياة وعجز عن تحقيق الغرض ، والأديب إذا لم يكن له من هذه المثل العليا نصيب فإنه لا يكون من عوامل تقويم الحياة وإنهاضها والسمو بها .

فالأدب إذن هو لغة الحياة ، ولاغنى للحياة عن أدب ترسم ألفاظه جمالها ، وتصور عباراته ما يكون للإنسانية هاديا ، ولأسرار الحياة كاشفاً ، وإلى المثل الأعلى مرشداً .

فهل اتجه الأدب في العصر الحديث ، أو في الفترة الأخيرة منه إلى شيء من

هذا ؟ وهل ساير آمال العصر الحديث وامتزج بالحياة الحاضرة ؟ وهل سار الأدباء
سيرانهم على ابتكار وافتنان ؟ أم هل وقفوا عند أساليب المتقدمين وأغراضهم
واتجاهاتهم ؟ وهل كان أدبهم نابعاً من الفطرة أم تغلبت عليه
الصناعة والتقليد ؟

هذه الأسئلة وأشباهها تتطلب البحث ولعل بعض نواحيها يتجلى لك بعد
أن نبحث في فرعى الأدب : وهما الشعر والنثر فى هذا العصر .

الشعر في عصر النهضة الحديثة

ما الشعر؟ وما مكانته في الحياة؟ ومن الشاعر؟ وما مهمته؟ . هذه أسئلة يجدر بنا أن نحاول تعرف الإجابة عنها لكي يتضح أمامنا نهج البحث . فقد ألفنا أن نسمع أو نقرأ أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، وألفنا كذلك أن نقرأ للشعر تعريفاً أكثر تحديداً وهو أنه الكلام الفصيح الموزون المقفى المشتمل على الخيال البديع . وقد يكون هذا صحيحاً في بعض نواحي الشعر ، ولكنه ليس كل ما يتضمن الشعر من المعاني ، ولا كل ما يرمى إليه من غايات . ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بأن يقولوا الشعر لأنهم ألموا بقدر من الحفوظ ، وآنسوا من أنفسهم قدرة على سرد طائفة من الألفاظ يضمنونها بعض التشبيهات المعادة أو الاخيلة التي سبقوا إليها — لعل هؤلاء أو بعضهم هم الذين يسعون إلى تضيق معنى الشعر وحصره في دائرة الكلام الموزون المشتمل على الخيال . ولكن الشعر أوسع من هذا مدى وأسمى غاية . وإن ما أشرنا إليه في معنى الأدب وصلته بالنفس وبالحياة وبمظاهر الكون ليساعد على أن نرسم للشعر اتجاهاً يصور حقيقته ويوضح غايته .

فالشعر هو الذي يعبر عما انطوت عليه النفس من عواطف وآمال وآلام ، وما يسمح فيها من المعاني الخائفة ، وما تشق عبابه من الذخائر المعنوية المتطلطة المتموجة في هذا الكون ، وهو الذي يجلي لنا مافي الحياة من أسرار ، وما كن في طياتها من آيات للخالق تلتوى عنها قلوب من استهوتهم الأغراض وصرقته المظالم . ويمرون عليها وهم عنها معرضون ، وهو الذي يصور مافي الكون من جميل رائع ، ويظهر ما هنا لك من حق وخير وجمال في النفوس وفي الحياة وفي الطبيعة في صورة من البيان الذي علمه الله للإنسان .

والشاعر هو الذي يحمل لواء هذه المقاصد ، ويتجلى فيه صفاء الحس ، وسمو

الغاية ، وصدق النظر ، والوجدان الصافي ، والخيال المرفف ، وسلامة الذوق ،
فيشرف بنا على المناهل العذبة للحياة ، وعلى النبيل من الشيم ، والرائع من
مظاهر الجمال .

هذه هي المعانى التى ينبغى أن يتجه إليها الشعر ، والغايات التى يقصد إليها
الشعراء . ولكن الشعر قد يصيبه الانحراف والكساد ، فيذهب عنه اللباب ،
ولا تبقى منه إلا قشور لها فرقة جوفاء ، ومظاهر مموهة تجعله أشبه بالنحاس المجلو ،
أو الزجاج البراق ، ذلك بأن مظهر اللفظ والوزن قد يتخذ بعض النظامين مطية
للولصول إلى ما يسمونه شعرا ، وقد يسلك بعضهم سبيل الاقتباس والمحاكاة
فيتحدث بلسان غيره ، وينقل ما أحس به السابقون ، فيجىء قوله بعيداً عن
الشعور الصادق ، نافرا من الحياة التى تحيط به وبنا ، نابيا عن إلهام الفطرة ووحى
الشاعرة . وبذلك يظهر هذا النسج الصناعى الذى يبعد بالشعر عن حقيقته ،
وينبوه عن غايته . ويجعله نظماً لا يحمل فى طياته إلا أمثلة منقولة للتشبيه والاستعارة
والجهاز وزخارف اللفظ فى قالب من الوزن والقافية .

فما حظ الشعر وأغراضه ومعانيه فى هذا العصر مما أوضحنا ؟

١ — سار الشعر فى أول هذه النهضة من عهد محمد على إلى أول عهد اسماعيل
على مثال ما كان فى العصر السابق ، فلم يظهر جديد فى أغراضه ومعانيه ، وظلت
مواهب الشعراء مشوبة بالجدب ، بعيدة عن الابتكار ، وإن ما كان لهم من
شعر إنما كان تقليداً تغمره الصناعة اللفظية التى طغى سيلها . ولم تكن عوامل
النهضة قد وصلت إلى الإثمار فى الاتجاه اللغوى والأدبى ، فقد كانت العناية
متجهة إلى وضع أسس لإصلاح البلاد وأنهاضها مما كان قد شملها من تأخر إدارى
وحيوى . ولم تكن همّة محمد على باشا فى النهوض الثقافى موجهة إلى الآداب بل
إلى العلوم التى عليها عماد الإصلاح المادى ، وكان هو أمياً وليس للشعر مكان من

تشجيعه وتقريب أهله ، ولم تكن الحكومة قد اصطبغت الصبغة المصرية الخالصة فقد كانت تركية في معظم مناحيها . وإن آثار الإصلاح الذي نشط في هذه الفترة لم يظهر في الشعر شيء منها . ومن هذا ترى أن الشعر كان في جو من الظلام كما كان في العصر السابق .

* * *

ومن شعراء هذه الفترة : السيد اسماعيل الخشاب (توفي سنة ١٢٣٠ هـ — ١٨١٥ م) والشيخ حسن العطار (١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م) والسيد علي الدرويش (١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م) والشيخ شهاب المصري (١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م) .

وفي الفترة الثانية في عهد إسماعيل ازداد النشاط العلمي والتعليمي ؛ وعظمت العناية بالآثار الأدبية القديمة ، وأينعت ثمار الصحافة والمطابع فكان لها أثر عظيم وأطل على البلاد شعاع من الحياة الحديثة أيقظ الميل إلى التزود من الثقافة الأوربية ، ووجد الشعراء من عناية إسماعيل بالأدب وبسط يده للأدباء ماحفز نشاطهم ، وأطلق ألسنتهم ، فسار الشعر في طريق النهوض . على أنه ظل مقيداً بقيود الصناعة اللفظية ولم تتغير وجهته ولا ديباجته ، ولم يكن ماداع من الثقافة ولا ما أحيتته النهضة من الأدب القديم كافياً في السمو بملكة الشعراء أو توسيع مداها .

وظلت الحال كذلك حتى جاء البارودي فظفر بالشعر طفرة أعادت إليه قوته ، وناصر ديباجته ، ومتين أسلوبه ، وحمل لواءه سائراً في الطليعة هادياً وحافزاً وقائداً إلى المهج الجديد ، فترسم الشعراء طريقته ، واستضاءوا بسراج الوهاج ، وتسابقوا إلى الإجابة . على أنهم ساروا سيراً بطيئاً ، وكان كل

همهم متجها إلى الرجوع بالشعر إلى أسلوبه القديم ، وإلى إعاده ديباجته التي نسجها المتقدمون .

ومن شعراء هذه الفترة : محمود صفوت الساعاتي (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م)
والسيد علي أبو النصر (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م) وعبد الله باشا فكري
(١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م) والشيخ علي الليثي (١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م) وعثمان
بك جلال (١٣١٦ هـ — ١٨٩٨) .

٣ — ثم جاءت الفترة الأخيرة فكانت الثورة العرابية من طلائع يقظة
الأمة وميلها إلى أن تحيا حياة كريمة ، وتنال قسطها من العزة والقوة والنهوض ،
وكان الاحتلال الإنجليزي رمزا لاستلاب الحرية التي تعزبها مصر وتبغى
أن تنال منها النصيب الذي تعلقت به آمالها . فشدد المصريون العزم وجدوا في
النهوض ، على الرغم من القيود والأغلال التي كبلتهم ، وازداد اتصالهم بالحياة
الحديثة وبما في أوربا من علم وثقافة واختراع ، وذاع التعليم الحديث فازدحم على
مورده العذب كثير من الراغبين ، ونشطت الصحف واتجهت موضوعاتها إلى
السياسة والاجتماع وإيقاظ الاعتزاز بالوطنية وبالقومية وبآثار البلاد
ومجدها الغابر .

كل هذا كان من عوامل توجيه الأمة وجهة جديدة في حياتها وتفكيرها
وخيالها وأمانيتها فبدأت تنظر في حاضرها وغابرها ، وترسم الطريق لمستقبلها ،
وتثبت الدعائم لحياتها الجديدة لاجئة إلى العلم والأدب ، وإلى ما لاحت في العالم
المتحضر من وسائل النهوض فاتخذت منها هاديا .

ولقد كان للشعر نصيب من عوامل النهوض في هذه الفترة . وظهر ذلك في
ألفاظه وأساليبه وأغراضه ومعانيه .

١ — أما ألفاظه وأساليبه : فقد عادت إليها جزالتها وقوتها ، ويرجع ذلك

إلى إحياء كتب الأدب القديم والاهتمام بدراستها ومحاكاة أسلوبها . ثم بدأ الشعراء يهجرون القيود اللفظية ، ويتجافون عن المحسنات البديعية ، ويسيروا في أسلوبهم سيراً أدنى إلى الاعتماد على الطبع وأبعد عن الصنعة ، ويفكون عن الشعر قيوده التي أثقلت ظهره ، وأضفوا عليه ديباجة جزلة ونسجاً محكماً ولفظاً رصيناً .

٢ - وأما معانيه : فقد ازدادت نمواً وجدة ، وذلك بما اتسع من الخيال بقراءة الروايات ومشاهدة الخيالة والتمثيل ، وما توافر من مستحدث المظاهر والمناظر في الحياة ، وما أفادت العقول من الثقافة الحديثة وقراءة الأدب الأجنبي ، وانتشار التعليم وسعة ميدانه ، وبما أتى به الغرب من اختراع نشط العقول وأيقظ الأذهان ، ووسع أفق النظر ، وحفز إلى جانب من التجديد كل هذا كان معيناً لجديد المعاني وطريف الأخيلة التي جعلت الشعر أوسع أفقاً وأصنى منهلاً . ولقد هجر كثير من الشعراء مجارة المتقدمين في بكاء الديار ووصف الأطلال والظمان والنوق ونحو ذلك ، واستبدلوا بهذا وصف المخترعات الجديدة التي وقعت تحت أنظارهم وشاهدوا آثارها .

٣ - وأما أغراضه : فقد كان للحياة الحديثة منها نصيب ، فإن الأمة بعد الثورة العربية قد بدأت تتوق إلى الحرية ، وتتغنى بالقومية ، وتعز بالوطن والوطنية وتفخر بقادتها وزعمائها ، وتمجد الفضيلة وذوياًها ، وتمت فيها عواطف الرحمة والمواساة والبر بالفقراء ومساعدتهم ، والحث على إنشاء الملاجىء والمستشفيات ، ونشأت الأحزاب السياسية ، وتنهت الأمة إلى حقوقها المهضومة ، وأحست بما ترسف فيه من أغلال تحد من حريتها وتعوق تقدمها فرفعت صوتها ، ودأبت على المطالبة والكفاح . وكل ذلك كان يتأجج في قلب الشعب ، وكان الشعراء لسانه الناطق ، فكانت لهم جولات في مناحى هذه الأغراض الجديدة .

وإلى جانب هذا كان هناك عامل له أثره وهو قراءة الأدب الأجنبي ، والنزوع

إلى محاكاة ما فيه من قصص ووصف ونقد وما إلى ذلك من جديد الأغراض .

* * *

ومن هذا يتضح أن الشعر في عصر النهضة قد درج في مدارج النشاط ، وما وترعرع كما ينمو الناشئ طفلاً وصبيًا ويافعًا ورجلاً ، وهو في خلال ذلك تزداد تجاربه وتنمو مواهبه ، ويقوى على فهم الحياة ، ويعظم اتصاله بما يحيط به من أسبابها ومظاهرها ، وهذه هي سنة التدرج في هذا الوجود .

وشعراء هذه الفترة كثير عددهم ولا يزال في اطراد ، وهم يمثلون نزعات مختلفة وثقافات متفاوتة : فمنهم من جمع إلى ملكة الشعر التضاع في العلم والإمام باللغة وفنونها ، والإحاطة بأدب المتقدمين ، ومنهم من ليس له من دراسة اللغة وعلومها إلا قدر ضئيل ، ومنهم من اقتصر في تكوين ملكته الأدبية على قراءة طائفة من الشعر في بعض عصوره الماضية الجاهلية أو الإسلامية أو العباسية أو ما بعدها ، ومنهم من عكف على دراسة أحد فحول الشعراء فاتخذه إماماً ، ومنهم من أخذ بحظ وافر من الآداب الأجنبية ، ومنهم من يميل إلى جزل الأساليب وفخم الديباجة ومن يؤثر الرقيق الرشيق منها ، ومنهم من يقصد إلى سى الأغراض ونبيلها ، ومن يتجه إلى هينها وهزيلها ، ومنهم من تلحح في شعره شخصية واضحة النهج ثابتة ، ومن تجذ فيه آثار المحاكاة والاقتباس والاستمداد من معين غيره ، ومنهم شعراء العواطف وأزاهير الربيع ، ومنهم من لم يزل الشعر العربي لهم إماماً ، ومنهم من يناون عن الماضي وأساليبه وأخيلته ، ولا يريدون أن تفرض عليهم ، فهم ينزعون إلى أن يهيموا في أودية كل جديد ويمجروا الأدب الأجنبي في بعض مناحيه وأخيلته وموضوعاته ولو حاد بهم هذا عن جزل النسج وواضح النهج ورصين الأسلوب .

ولكل من هؤلاء وجهته وشخصيته الشعرية وأثره في الأدب الحديث ، ومقام معلوم بين الشعراء .

ومن أشهر هؤلاء: محمود سامي باشا البارودي (١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م)
 وإسماعيل صبري باشا (١٩٢٣ م) وحفني بك ناصف (١٣٢٧ هـ - ١٩١٩ م)
 والشيخ محمد عبد المطالب (١٢٥٠ هـ - ١٩٣١ م) وأحمد شوقي بك (١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م)
 ومحمد حافظ ابراهيم بك (١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م) وغيرهم كثير .
 وإنا نسوق طائفة من الشعر في عصور النهضة توضح أساليب شعرائها
 ونزعاتهم واتجاهاتهم .

قال السيد إسماعيل الخشاب يمدح الشريف السيد محمداً أبا الأنوار وفاء السادات:

وصلةك واضحة الجبين المسفر	من بعد طول تمنع وتستمر
قامت فخالست ازديارك قومها	وتربصت سحرا هجوع السمر
وأنت ترشح كأنغصين أماله	نفس الصبا وتجر ذيل المنزر
هيفاء ينجبل لحظها وقوامها	بيض الصفاح وكل لدن أسمر
لم أنس لا أنسى ليالى وصلها	بين الرياض وحسن نغم المزهر
ولقد ولعت بعقبها فتبسمت	عن لؤلؤ وتنفست عن عنبر
وظفقت أشكوفرط ما ألقاه من	أسف فقالت بعض ما بي فاصبر
دع عنك ذاك فدتك نفسي واتمد	وامدح أبا الأنوار واطنب واكثر
وانظم عقود مديحه متفننا	يا أوحد البلغاء نظم الجواهر
فأجبت معتذراً رويدك إنه	من رام يحصر ذاك عدا يحصر
مدحته آى الذكر قبل فما عسى	أثنى على على الجنب الأظهر
مشكاة نور الحق من أنواره	منها تلاً لأ كل نور أنور
شمس الهدايا بدر أفق سماها	نجم الهداية للفقى المتحير
من قام فى إيضاح شرع محمد	فأقام دين الله غير مقصر
من سادة ورثوا النبى وجاهدوا	فى دينه حق الجهاد الأكبر

ومنها :

إني لنظام الشعر غير مؤهل وأظن عذري غير خاف فاعذر
ومتى نظرت بعين راض سیدی يوما إلى بما أوئل أظفر
تبقى ونجلك في السرور مخلدا وتنال ماترجو وتأمل فابشر
وقال الشيخ حسن العطار يمدح إبراهيم باشا عند عودته من الشام ^(١) :
سمهرى ينثنى أم غصن بان أم قوام دونه صبرى بان
صان بالعسال معسول اللى وتهادى هادما ما أنا بان
يامليك الحسن رقفا بشج كلما حاول كتم الشجو بان
مرج البحرين فيضا دمه إذ رأى جفنيه لا يلتقيان ^(٢)
جاء لما جار سلطان الهوى طالبان من عادل القد الأمان ^(٣)
رب ساق وهو قاس قلبه عطفه منذ أدار الكأس لان
أهيف إن ماس تيهها ورنأ رحى منه بين سيف وسمان ^(٤)
كسر القلب وما كان التقى فيه من حين هواه ساكنان
ياندى قم وبأكرها وطب هذه الجنة والخور الحسان
وأدر لى بنت كرم عتقت نورها الباهر يحكى البهرمان ^(٥)
بالنهي قد فعلت كاساتها فعل إبراهيم سلطان الزمان
أسد الهيجاء ضرغام الوغى قاصم الأعداء من قاص ودان
فهو كالشمس سمت آفاقها وسناها كان فى كل مكان
فرع أصل قد تسامى فى العلا وعلا شأننا على رغم لشان ^(٦)

- (١) وردت هذه القصيدة فى الجزء الأول من كتاب المنتخب وقد وردت كذلك فى ديوان الشيخ شهاب الدين المصرى .
(٢) مرج : خليط .
(٣) عادل القد : معتدله .
(٤) يقصد بالسيف الطرف . والسمان يطلق على الرمح ويريد به القد .
(٥) البهرمان : فارسى نوع من الباقوت الأحمر .
(٦) على رغم لسان : أى الشانىء وهو المبغض .

كم له في السلم من مرحمة وكأين من حنو وحسان
ومنها.

هاك منى بنت فكر تفجلى في حلى من بديع وبيان
قد أعيدت بشهاب ثاقب صانها عن كل شيطان وجان
وبدت من خدرها قائلة إن وصلى للحبيب الآن آن
وبودى لو ألقى حظوة منه تكسونى جلايب امتنان
فدنوى منه غايات المنى وقبولى منتهى كل الأمان

وقال الشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل المصرى من قصيدة لتكتب
حول جامع القلعة الذى أنشأه محمد على باشا سنة (١٢٦١).

عروس كنوز قد تحلت بمسجد مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنى على قصورها بأهيج ياقوت وأبهى زمرد
أم المسكرات الأصفية أبدعت هيولى أعاجيب بصورة مسجد^(٢)
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى بزهر الدرارى جامعا كل فرق
ألا إن تجديد العجيب من البناء يؤكد تأسيس اقتدار الجدد
ومنها:

ملك جليل الشأن ليس كمثل جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمد آثار على ما أثر عزيز افتخار ساد كل مسود
هو المنهل العذب الذى دون ورده تراجمت الأقدام فى كل مورد
هو الغيث يحى كل قطر بجوده فيخضل من قطر الندى وجهه الندى
هو الشمس لم تحجب سناها غمامة ولا أنكرت أضواءها عين أرم
له همه تسمو إلى هامة العلا إذا حددت لانتهى بالتحديد

(١) نسبة إلى آصف وزير سليمان عليه السلام .

وفي آخرها :

وهالك عقوداً من معان أجادها - بيان بنا هذا البديع المجدد
مبان إذا أمعنت فيها مؤرخا - تريك على قدر العزيز محمد

وقال محمود صفوت الساعاتي يمدح الخديو محمد توفيق باشا :

تبسم ثغر الصبح فالنور أظهر - وشمس الضحى في الكون لا البدر أظهر
تجلى مع الإشراق لألاء غرة - بها الملك عن وجه السعادة يسفر
فبيننا ترى الإقبال أقبل رافعاً - بنوداً إذا طيب المسرة ينشر
وقد أشرقت في أرض مصر كواكب - لطالما فوق المنازل مظهر
وقد زين الحمد السني ممالك - كما زين المملكين كسرى وقيصر

ومنها :

لنا بازدياد النيل ورد ومرتع - ومن نيله الفياض نيل وكوثر
فلا تعدلوا قطر الندى بنواله - فإن الندى من فيض جدواه يقطر
لقد شرف الدست الخديوي قائم - عظيم علا شأننا وشانیه أبت
تقلد بالنصر العزيز متوج - وبالشرف الأعلى تحتم خنصر
فسرنا إلى أعتابه سير وفده - على سبق من رفته نشكر
إلى كعبة الآمال تسعى ركابنا - على الخلد من آمالنا تتخطر
أناخت على أبوابه ثقة بما - ترجيه والمرعى زكا وهو أخضر
فأرسل سحبا برقها غير خلب - وفي الغيت غوث إن أتى وهو مطر
له بوفاء الوعد في الخير عادة - لأن وفاء الوعد بالحر أجدر

ومنها :

وقد أرسل الباري إليناً محمداً - وفي وجهه نور الهداية يظهر

كم له في السلم من مرحة وكأين من حنو وحنان
ومنها .

هاك منى بنت فكر تفجلى في حلّى من بديع وبيان
قد أعيدت بشهاب ثاقب صانها عن كل شيطان وجان
وبدت من خدرها فائلة إن وصلى للحبيب الآن آن
وبودى لو ألقى حظوة منه تكسونى جلايب امتنان
فسدنوى منه غايات المنى وقبولى منتهى كل الأمان

وقال الشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل المصرى من قصيدة لتكتب
حول جامع القلعة الذى أنشأه محمد على باشا سنة (١٢٦١) .

عروس كنوز قد تحلت بمسجد مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنى على قصورها بأهيج ياقوت وأهسى زمرد
أم المسكرات الآصفية أبدعت هيولى أعاجيب بصورة مسجد^(٢)
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى بزهر الدرارى جامعا كل فرقد
ألا إن تجديد العجيب من البناء يؤكّد تأسيس اقتدار المجدد
ومنها :

ملكك جليل الشأن ليس كمثلها جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمد آثار على مآثر عزيز افتخار ساد كل مسود
هو المنهل العذب الذى دون ورده تراجمت الأقدام فى كل مورد
هو الغيث يحى كل قطر بجوده فيخضل من قطر الندى وجهه الندى
هو الشمس لم تحجب سناها غمامة ولا أنكرت أضواءها عين أرمده
له همه تسمو إلى هامة العلا إذا حددت لانتهى بالتحديد

(١) نسبة إلى آصف وزير سليمان عليه السلام .

كم له في السلم من مرحة وكأين من حنو وحسان
ومنها .

هاك منى بنت فكر تفجلى في حلّى من بديع وبيان
قد أعيدت بشهاب ثاقب صانها عن كل شيطان وجان
وبدت من خدرها فائلة إن وصلى للعجيب الآن آن
وبودى لو ألقى حظوة منه تكسونى جلايب امتنان
فسدنوى منه غايات المنى وقبولى منتهى كل الأمان

وقال الشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل المصرى من قصيدة لتكتب
حول جامع القلعة الذى أنشأه محمد على باشا سنة (١٢٦١) .

عروس كنوز قد تحلت بمسجد مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنى على قصورها بأهيج ياقوت وأهسى زمرد
أم المسكرات الآصفية أبدعت هيولى أعاجيب بصورة مسجد^(٢)
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى بزهر الدرارى جامعا كل فرقد
ألا إن تجديد العجيب من البناء يؤكّد تأسيس اقتدار المجدد
ومنها :

ملكك جليل الشأن ليس كمثلها جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمد آثار على مآثر عزيز افتخار ساد كل مسود
هو المنهل العذب الذى دون ورده تراجمت الأقدام فى كل مورد
هو الغيث يحى كل قطر بجوده فيخضل من قطر الندى وجهه الندى
هو الشمس لم تحجب سناها غمامة ولا أنكرت أضواءها عين أرمده
له همه تسمو إلى هامة العلا إذا حددت لانتهى بالتحديد

(١) نسبة إلى آصف وزير سليمان عليه السلام .

وفاء يبشرى الوعد وافي مؤرخا نجاز بتوفيق العزيز يبشر

سنة ١٢٩٦

وقال السيد على أبو النصر يؤرخ قدوم الخديو إسماعيل باشا من الاستانة
ويذكر فرمان الوراثة وولاية العهد الذي حضر به :

ألا وهيامي في شقائق خـده	وفرط غرامي في رشاقة قدـه
لقد كنت عن شكوى التصابي بمعزل	وكان فؤادي في الهوى طوع زهده
ولما دعاه للمحبة ناظري	أجاب فأمسى شاربا كأس وجده
وبات على جمر الغضا يستفزه	خيال دعا جفن المعنى بسهده
وهام بظبي تتقي الأسد بأسه	وتخشى تجنبه وإفراط صده
غزال غزا باللحظ وهو بجفته	ولم أرسيفاً صال وهو بغمده
وما كنت أرضى بالصباية مذهبا	فجادبني مما ألفت لصدـه
دعوني أداوي النفس من لوعة الهوى	برشف لماه أو بتقبيل خـده
ولا تعذلوني حين عذري واضح	وسائل دمعي لا يقال برده
على انني أدركت حسن تخلصي	بمدح خديوي مصر صادق وعده
ملكك عزيز أ كسب الملك عزة	وألبسه تاج الفخار بمجده
وقد مدن الأوطان حتى تقدمت	وعم رعاياه بوابل رفده
وأحيا لإحياء العلوم مدارساً	تبدل غي المستفيد برشده

وفي ختامها :

وأقصى التهاني أن أقول مؤرخا أدام الخديوي صفو مصر بعوده

سنة ١٢٩٠

وقال إسماعيل باشا صبري يهنئ الخديو إسماعيل باشا بقدمه من الاستانة

سنة ١٢٩٠ بعد حصوله على امتياز الوراثة لعرش مصر:

أطلع الكأس كوكباً في ازدهاء وأدرها ر في هالة الندماء
اسقنيها حتى تراني لا أفهم نصحا يمله أصغائي
عاطفيها صرفاً ولا تطفئ النور ر الذي زان حسننها بالماء
وأدرها خدا وحي الندامى بعدار الريحان وأغغم ثنائى^(١)
مجلس فيه ما جلا صدأ السم ع وقرت به عيوت الراني
من مغن يغزو الهموم بأوتا ر فيحوى أعنة الأهواء
وغزال أحلى من الأمن يسعى بكثوس الغرام والصهباء
مذ رأت خده المدام علاها عرق من حبابها للحياء
هل رأيت الورد النضير على الغصن ن تحلى بلؤلؤ الأنداء
هو بين الملاح يشبه إسما عيل بين الاقيال والعطاء
أى أنس وافي لمصر وقد وا في لها فخرها وأى صفاء
عاد والسعد يقتفيه فكانا في التزام كالشمس والحرباء
وتحلت بالنور مصر فلم ند ر أنقضى للأرض أم للسماء
جاء من بعد أن تحكم فرط الش وق فينا فلم شمل الهناء
ولو ان الأخبار لم تأت بالعو د عرفنا مجيئه بالضياء
طاب روض السرور حتى سمعنا ما تمتت من غرة غراء
نطق الحال باعقله فماذا تنظم الان ألسن الشعراء
فهل النيل كان ناذر نذر ثم وفاء إذ أتى في بهاء^(٢)
ودرى بالتقصير منه فأضحى من حياء بوجنة حمراء^(٣)
للعرايا منك الذى تتمنى ولك الشكر ملحفاً بالثناء

(١) أدرها خدا : أى تشبه الخد في لونها. والريحان هو الذى يزين به مجالس الشراب

(٢) يشير إلى فيضان النيل أيام عاد الخديو

(٣) يريد بالوجنة الحمراء حمرة ماء النيل .

دم دوام الزمان في أفق سعد مولىا أنعما بدون انتهاء
وقال القصيدة الآتية لترجم إلى اللغة الفرنسية ضمن مجموعة مختارة من الشعر
العربي القديم :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم	فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذي	فيه للأففس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده	دون بعض واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدهمت	سفن الآمال يزجيهها الرجاء
يقذف الشوق بها في مائج	بين لجين عناء وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة	تقتفيها شدة هل من رجاء
ساعفى آمال أنضاء الهوى	بقبول من سحايك رخاء (١)
وتجلى واجعلى قوم الهوى	تحت عرش الشمس في الحكم سواء
أقبلي نستقبل الدنيا وما	ضمنته من معدات الهناء
واسفري تلك حلى ما خلقت	لتوارى بلشام أو خبساء
واخطرى بين الندامى يحلفوا	أن روضاً راح في النادى وجاء
وانطقى ينثر إذا حدثتنا	نائر الدر علينا مانشاء
وابسمى من كان هذا ثغره	يملاً الدنيا ابتساما وازدهاء
لا تخافى شططا من أنفس	تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا	وارضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا إلى	ملك ما نكرت ذاك الصفاء
وانزعى عن جسمك الثوب بين	الأملا تكوين سكان السما
وأرى الدنيا جناحى ملك	خلف تمثال مصوغ من ضياء

(١) انضاء الهوى : أى من أضناهم الحب وأسقمهم جمع نضو . والقبول ريح الصبا

وقال حنفى بك ناصف من قصيدة في حفلة للجمعية الخيرية الإسلامية وقد
مضى على تأسيسها خمس وعشرون سنة :

اليوم أوفت على خمس وعشرينا	فاستقبلوا عيدها الفضى ميمونا
وهنتوا فقراء المساكين به	وصاحوا بيد البشر المساكينا
وعللوهم بآمال مفرحة	فطالما سرت الآمال محزونا
لولا الأمانى فاضت روحهم جزعا	من الهموم وأمسى عيشهم هونا
والياس يحدث فى أعضاء صاحبه	ضعفا ويورث أهل العزم توهينا
وتخرس البلبل الصداح سورته	وتسلب الذلق المنطق تبيمينا
خلوا سواعدهم تمتد ناشطة	زرعا وصنعا وتطريقا وتعدينا
الله فيهم فخرت الأرض فى يدهم	يبدون من سرها ما كان مكنونا
وهم قيام على الأنعام سائمة	وهم طهارة ونساج وبانونا
لهم يد كل يوم فى مرافقنا	فلتجبر من فوق أيديهم أيادينا ^(١)
أنتم خلائقه فى الأرض ألزمكم	أن تعمروها وتفتنوا الأفانينا
ولن تنالوا نصيبا من خلافته	إلا بأن تنفقوا مما نحبونا
فبادروا بزكاة المال إن بها	للنفس والمال تطمينا وتحصينا

* * *

وقال الشيخ محمد عبد المطلب يرثى محمد عاطف بركات باشا وكيل المعارف :

أخلأى هل تشفى من الحسرات	قلوب جرت ذوبا مع العبرات
وهل يرقأ الدمع الغزير لناظر	إلى الربع أمسى موحش الجنبات
هوى نجمه فاربد وجه سمائه	بأسود من هم ومن ظلمات

(١) أيادينا انعمنا .

ذوى نوره فى روضه قبل ينعه
 لك الله من مغنى جعلناه لى
 نعيمه بالنعى فيعيا وعهدنا
 وهل نعمت دار تحمل أهلها
 وهل حملت نجب الردى مثل راحل
 بني النفر البانين ركن سرائهم
 فيابؤس للناعى إذا قيل عاطف
 ومنها :

كأنى به إذ نحن فى رونق الصبا
 شباب يروع الدهر بالحسن أسرفت
 ولو شاء عيش المترفين سعت له
 إذ العيش معسول الجنى وارف الغنى
 ولكن نفساً أثقل الحمد حملها
 كذلك رأينا عاطفا بمرامه
 معنى بحاجات المني عند نفسه
 أيما على الداء العضال وقد أبى
 فلم نره يوماً شكى سوء ما به
 تحمل أحلام الكهولة يافعا
 ذكاء له من خلف نفسك مذهب
 وعين له فى كل قلب محدث^(١)

نضير الحيا باهر القسمات
 يد العلم فى أيامه النضرات
 أمانى بالذات مبتدرات
 وفى بما شاء الشباب موافى
 تفوت مراميهامدى الشهوات
 من الدهر فى جهد وفى غمرات
 بعيد مدى الآمال والعزمات
 على الداء كبراً ساكن الأجمات
 وهل نطق أسد الشرى بشكاة
 وأغنى غناء الشيب فى الصبوات
 يحيط بما يخفى من الخطرات
 يصدق ما توحى من النظرات

(١) القلال : جمع قلة ومى من كل شىء أعلاه وكذا السراة

(١) المحدث بفتح الدال المشددة الصادق المدس والتخمين .

وفضل حبا تلقاه في كل مأزق
شماثل يبين المناقب في الذرى
ومنها :

أخلى مالى لا أرى بيننا أخوا
سريعاً إذا جد البيان بأهله
لقد كان أحفى نى إذقت منشداً
وعونا لسعد يوم لا عون يرتجى
فهل يستعين النمل وارحمته له
عزاء عزاء آل سعد فأنما
عهدناه زين الجمع والحفلات
إلى موقف السباق ذى القصبات
وأول من يصغى إلى كلماتي^(٢)
لمصر على أيامها النكيدات
على خطبه بالصبر والصلوات
قضى الله والدنيا سبيل ممات

* * *

وقال في تكريم شوق بك سنة ١٩٢٧ :

تأوبنى والليل بالصبح مزعج
يكلف جفى الغرار لعدله
ويعذنى فى السهد ياطيف رحمة
وهل نام قبلى فى دجى الليل ذوجوى
إذا ما بكى أبكى الحمام على الربى
لقد سلبت جفى يد النجم غمضة
خيال له فى حندس الهم منهج^(٣)
إلى النفس فى طى الكرى يتدرج
فانى إلى زور الكرى منه أحوج
تبيت به أحشاؤه تموهج
ألم ترها فى لحنها تهديج
أست تراه حائراً يتخلج^(٤)

ومنها :

سلوا الدهر عنا فى القديم فأنما
لهم فى نواحي كل جيل مناقب

(١) الذكرات : جمع ذكرة وهى الصيت .

(٢) حفى به : تلاطف وأظهر السرور به .

(٣) تأوبه : أتاه ليلاً .

(٤) يتخلج : يضطرب .

حياة ورثناها بيانا مفصلا
لنا نغم يوم البيان بحسنه
وما زال منا كل اروع سابق
ففى مصر خنذيذ وفى الشام مفلق
شعوب لتكريم البيان تألفت
أهاب بهم إخوان شوقى فأقبلوا
يحيون مصر فى تحية أحمد
فقف ساعة يا شاعر النيل تستمع
يرجع بالإحسان بين يديك ما
رأوك بديعاً فى الجديد فأبدعوا
وفى الناس من عادى القديم سفاهة

وأغلق عينيه الجديد المبهرج
أخى والسلاف البابلى بيانه
إليك نسجنا فى القريض عواطفنا
تقدمها دار العلوم تحية
يعل به السحر الحلال ويمزج
تحاك على صدق الوفاء وتنسج
لشوق كنور الروض أو هو ابهج

وقال حافظ بك ابراهيم فى الحفل الذى أقيم لتكريم شوقى بك

سنة ١٩٢٧ :

بلابل وادى النيل بالشرق اسجعى بشعر أمير الدولتين ورجعى

- (١) يعلق : يوضح ويكشف الغطاء عن معانيه وكذا يفاج
(٤) الخنذيذ : الشاعر المجيد . المفلق : الظافر (٥) حدى البعير : شد عليه الهودج .
(٦) عوجوا : مالوا .
(٧) السلاف : أفضل الخمر
(٨) يريد بالدولتين : النشر والنظم .

أعيد على الأسماع ماغردت به
براها له البارى فلم يذب سنها
مواقعها فى الشرق والشرق مجذب
لديها وفود اللفظ تنساق خلفها
إذا رضيت جاءت بأنفاس روضة
أحن على المكدود من ظل دوحة
على سنها رفق يسيل ورحمة
تسابق فوق الطرس أفكار ربها
تطير بروق الفكر خلف بروقها
تحاول فوت الفكر لولم تكفها
ألم تعلموا أنا بذخرى نباعة
نفاخر من شوقينا بيراعة
فذاك شفاء الجسم تدعى جراحه
نمتك ظلال وارفات وأنعم
ومن كان فى بيت الملوك ثواؤه

ومنها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا
فغن ربوع النيل واعطف بنظرة
ولا تنس مجدا انها منبت الهوى
وحى ذرا لبنان واجعل لتونس
ففى الشعر حث الطامعين إلى الأعلا

يراعة شوق فى ابتداء ومقطع
إذا ما نبا العسال فى كف أروع
مواقع صيب الغيث فى كل بلقع
وفود المعانى خشعا عند خشع
وإن غضبت جاءت بنكباء زعزع
وأحنى على المولود من ندى مرضع
وروح لمن يأسى وذكرى لمن يعى^(١)
سباق جياذ فى مجال مرجع
تناشدها بالله لا تتسرعى
أنامله كف الجموح المروع
نفاخر أهل الشرق فى أى مجمع^(٢)
ونزداد فخرا من على بمبضع^(٣)
وتلك شفاء الواله المتوجع
ولين عيش فى مصيف ومربع
ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
على ساكنى النهرين واصدح وأبدع
ومرعى المهامن سارحات وترع
نصيبا من السلوى وقسم ووزع
وفى الشعر زهد الناسك المتورع

(١) الروح : الراحة والرحمة .

(٢) نباعة نبوغ .

(٣) يريد يعلى : على باشا ابراهيم الجراح .

وفي الشعر إحياء النفوس وريها وأنت لرى النفس أعذب منبع
فنبه عقولا طال عهد رقادها وأفئدة شدت إليك بأنسع^(١)
فقد غمرتها محنة فوق محنة وأنت لها ياشاعر الشرق فادفع

* * *

وقال شوقى بك فى آثار توت عنخ آمون :

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا^(٢)
وفصى من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا^(٣)
فمثلك من روى الأخبار طرا ومن نسب القبائل أجمعينا
نرى لك فى السماء خضيب قرن ولا محصى على الأرض الطعينا
مشيت على الشباب شواظ نار ودرت على المشيب رحي طحونا

ومنها :

ملوك الدهر بالوادي أقاموا على وادى الملوك محجينا
فرب مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفدينا
تقيد فى التراب بغير قيد وجل على جوانبه رهينا
تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة منطقينا
غدوا يبنون ماينقى وراحو وراء الآبدات مخلصينا
إذا عمدوا لمأثرة أعدوا لها الاتقان والخلق المتينا
وليس الخلق مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاء الجاهلينا
وايكن منتهى همهم كبار إذا ذهبت مصادرها بقينا
وسر العبقرية حين يسرى فيمتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكينا

(١) النسع سير من الجلد تشد به الرحال .

(٢) أخت يوشع : الشمس .

(٣) الدولة بضم الدال : الداهية .

وسيرا في محاجرهم رويدا
 وخصا بالعمار وبالتحايا
 وطوفا بالمضاجع خاشعينا
 رفات المجد من تونخمينا^(١)
 ومنها :

خليلي اهبطا الوادي وميلا	إلى غرف الشموس الغارينا
وقبرا كاد من حسن وطيب	يضيء حجارة ويضوع طينا
يُخال لروعة التاريخ قدت	جنادله العلا من طورسينا
وكان نزيله بالملك يدعى	فصار يلقب الكنز الدفينا
وقوما هاتفين به وليكن	كما كان الأوائل يهتفونا
فتم جلالة قرت ورامت	على مر القرون الأربعينا
حلال الملك أيام وتمضى	ولا يمضى جلال الخالديننا

(١) العمار : الريمان .

النثر فى عصر النهضة الحديثة

تجلى لك مما أوضحنا أن الذخر الأدبى والعلمى فى أول هذا العصر كان جدبا لاغناء فيه ، وأن ما كان للمتقدمين من تراث أدبى كان ضائعا فى زوايا الإهمال دفينا تحت أطباق الجهل ، يكاد يأتى عليه الفناء دون أن يعلم الجيل من أمره شيئا . ولقد أصاب النثر من هذا الجذب ما أذوى أزهاره ، وأتلف ثماره ، وهبط به هبوطا شمل جميع نواحيه .

وسنجد لك حالة النثر فى أول هذا العصر ومظاهر ضعفه ، ثم نشير إلى عوامل نهوضه ، وإلى مظاهر هذا النهوض وآثاره .

حالة النثر فى أول هذا العصر :

كان النثر فى مفتتح هذا العصر بقية مما ترك العصر السابق المظلم ، وصورة خالية من جيد المعانى ، ليس فيها إلا ألوان من الألفاظ ، وزخارف من الحسنات ، وقد شمله الضعف فى مختلف نواحيه ، واصطبغت بالقصور أنواعه الثلاثة : وهى النثر الأدبى والفنى ، ولغة الدواوين ، ولغة التأليف .

١ — فأما النثر الأدبى فكان فى أول النهضة ضيق الأغراض لا يكاد يخرج عن الرسائل الاخوانية والشكر والشكوى والتهنئة والتعزية وبعض الأوصاف ، ولم يكن له من النشاط شىء فى عصر محمد على ، لما علمت من أن العناية فى ذلك العصر كانت متجهة إلى العلوم التى كانت دعامة الإصلاح فى البلاد .

٢ — وأما لغة الدواوين فكانت فى العهد السابق هى التركية ، ثم حوت إلى العربية فى عهد محمد على ، ولكنها كانت عربية ركيكة سقيمة ملقوبة بالصوغ ، بعيدة عن الإبانة متغلغلة فى الإيهام ، إذ كان الذين يتولونها ممن لاحظ لهم من الثقافة ، ومن أشباه العوام الذين كانوا يرثون وظائف الكتابة الديوانية عن آبائهم ، وليس لهم من المؤهلات سوى التمرين الذى يكسبون منه حفظ

تراكيب وألفاظ جرى بها الاصطلاح . ولهذا كانت الدواوين بمعزل عما تناله الكتابة من الرقي في النواحي الأدبية .

٣ — وأما لغة التأليف فقد وصلت إلى أقصى حدود الضعف والركاكة ، وكانت سقيمة تشوبها العامية وتصطبغ بالسجع والمحسنات اللفظية التي تشيع حين تضعف الملوكات وتعجز الأقلام عن الإفادة في الصميم . لهذا كان الضعف عاما في أنواع النثر .

عوامل نهوضه :

ولكن النهوض مالم يأت أن بدت ثماره ، وسطع ضوءه ، فملا الأفق تدريجا ١ — فإن إحياء كتب الأدب القديم كان خير حافز على رجوع المتعلمين إليها ، فوجدوا فيها ما يقيظ أذهانهم ، ووجه عقولهم إلى جيد التعبير وناصع الديباجة ، وبدتهم بلاغة المتقدمين ورائع بمانهم ، ورأوا في كتبهم خير ذخيرة أدبية ولغوية ، فعكفوا على درسها ومحاكاة أساليبها وبذلك بدأت العبارات السليمة والأساليب الجزلة تسطع أمام الأنظار فتبدد ما كان يحيط بها من ظلام وظل الأدب القديم يروى القارئ كلما ازدادوا من منهله ارتشافا ، وظهرت ثمار ذلك في عهد إسماعيل ثم في العهد الأخير .

٢ — وهناك عامل آخر كان من أسس النهوض ، وهو الثقافة التي هي ميزان قوة النثر وضعفه ، فقد نمت نموا متدرجا فازداد النثر بها نشاطا وقوة في المعاني وسعة في الأغراض . وقد علمت أن الثقافة في عهد محمد علي كانت محدودة الانحاء ، وأنها في عهد إسماعيل كانت أوسع مدى ، وفي العصر الأخير ازدادت انتشارا وعمقا ، وظهرت آثارها في التفكير وفي مناحي الحياة . وتستطيع بعد أن علمت ما بين الثقافة والكتابة من صلة طردية وعكسية ، وبعد ما أشرنا إليه من أن الثقافة هي أحد جناحي الأدب ، أن تدرك ما يفيد النثر من ذلك ، وما يتجلى فيه من نهوض متدرج تبعا لنمو الثقافة .

٣ — ولا يسعنا أن نعرض النظر عن عامل كان له أثر ، وهو الآداب الغربية التي نشطت بين المتعلمين على أثر نمو الصلة العلمية بين مصر وأوروبا وكثرة الراحلين إليها للدرس أو الاستطلاع ، وزيادة من درسوا اللغات الأجنبية ومن توسعوا في قراءة آدابها ، وأساغوا ما فيها من موضوعات جديدة واتجاهات مستحدثة ، وأخيلة توسع أفق الأديب ، فلقد كان كل ذلك له أثره في النثر . وقديما كان اتصال الأدب العربي بالآداب الأجنبية كالفارسية وغيرها ثروة جديدة ومنهلا زادت به الأذهان خصبا ، وجرت الأقلام ببعض ما فيه مما استطاعت اللغة هضمه وصقله فأصبح من ذخائرها .

ولا نجادل في أن هذه الآداب العربية إذا حاول أن يمزجها باللغة العربية من ليس بصيرا بالعربية ولا ملما بدقائقها وأساليبها ، فإنه يخطئ الجادة في النقل والمزج ، ويكره الذوق العربي على ما ياباه . ولكننا لا ننكر كذلك أن الأثر العقلي والذخر المعنوي الذي يجني من هذه الآداب يمكن أن ينحصب ويثمر إذا أحسننا الاختيار ومثل ذلك مثل ما نقلنا من بذور وأزهار وأشجار وافقها جونا فأينعت وأثمرت وهذه هي الحال بين الأسرة الإنسانية في علومها وإنتاجها العقلي ، تستفيد كل أمة مما يوافقها من محصول غيرها .

٤ — وإذا كان أثر الآداب الأوربي قد اتصل بعقول فريق من المتعلمين الذين حاولوا إذاعته ومزجه بما لهم من إنتاج أدبي وما كتبوا من نثر ، فهناك ناحية من هذا كان تأثيرها أشمل وأوسع ، وهي الروايات ، فكثير مما ترجم منها قد عكف عليه الشعب ، ووجد فيه تسلية وصورا جديدة من الحياة ، وتنشيطا للخيال ، وفائدة عقلية وأدبية شاملة . والروايات كما هو معلوم هي نوع من الأدب له مكانته وأثره العظيم في الأفراد وفي الشعوب وفي حياتهم وعقولهم ولغتهم ووجدانهم ، ولعلنا إذا أحصينا الأدباء في الغرب نجد كتاب الروايات في طليعتهم ومن أقواهم أثرا اتجهت نهضتنا الحديثة في هذا الطريق ، طريق كتابة الروايات ، فقرأها

المتعلمون وترجموا منها ما راقهم ، وما رأوه صالحا . وكان لهذا أثر في توجيه أذهان الكتاب والمؤلفين إلى غرض آخر وهو تأليف روايات مصرية تلعب من حياتنا وتعالج مشكلاتنا ، وقد خطوا في ذلك خطوات قد يتسع مداها وتحمد غاياتها حين تصل إلى درجة موفقة من الإجابة .

٥ — ومن مميزات هذا الجانب الروائي التمثيل فهو من وسائل إنهاض النثر وتهذيبه ، فقد كان له أثر في إذاعة جانب من صحيح الألفاظ والتراكيب والأساليب ، وهو وإن شابهت العامية في بعض الأحيان مجازاة لما درج عليه الشعب أو أكثره من التفاهم والتخاطب بالعامية ، فهو في معظم نواحيه الناهضة يجري على غرار اللغة السليمة . وهو في جملة عون للحياة الأدبية وعضد لترقية النثر وتصفيته ، ووسيلة لتهديب لغة التخاطب .

٦ — ولا ننسى في ختام هذه العوامل عاملا له أثر عظيم وهو الصحف اليومية والاسبوعية التي أصبحت قراءتها مما يراه المتعلمون عنصرا لاغنى عنه في مناهج أعمالهم اليومية ، وكذلك المجلات المختلفة الأنواع المتعددة المباحث في العلم والأدب والاجتماع وغير ذلك .



هذه هي أهم العوامل التي أثرت في نهضة النثر . ولعلك تستطيع أن ترجعها إلى اللفظ . وإلى المعنى وإلى مافي الحياة من جديد تطالعنا به اللغة في مظاهرها ووصفاتها المتنوعة .

وإنك لتري أن منها عوامل جاءت بها المدنية الحديثة والآداب الأوربية ، ولعلك تلمح أن بعض هذه العوامل الحديثة تحاول أن تغالب اللغة العربية وأن تفرض عليها بعض مناحيها واتجاهاتها ، وتصبغها ببعض ألوانها . فهل هذا من الخير للغة العربية وللأدب العربي ؟

نترك هذا ، فالبحث فيه يتطلب توسعا في الشرح واسهابا في التدليل والتمثيل

وله مجال آخر في غير هذا الكتاب .

نعود بعد هذا إلى ما أحدثته العوامل التي أشرنا إليها من أثر في النثر .
(اتجاه النثر ومظاهر رقيه)

لعل أول ما ينتظر من تغيير بعد أن نشطت الثقافة في كثير من نواحيها ،
واتجهت العناية إلى إحياء الأدب العربي القديم ودراسته ، أن نرى نثرا صافيا
الديباجة ، متجافيا عن الانحراف ، خصبا بالمعاني ، متجها إلى اللباب ، معرضا
عن الإمعان في هذا الطلاء اللفظي الظاهري وعن الإسراف في السجع والحسنات
البديعية ، وقد سار النثر إلى هذه الغاية سيرا سريعا ، وخلص من الشوائب التي
لحقته في عصور الضعف ، والتي لازمته في الفترة الأولى من هذا العصر ، ولم يسلم
مها في الفترة الثانية منه ، وجاءت الفترة الأخيرة عن النهضة الحديثة ، فكان
لها كبير الأثر فيما نال النثر من رقي وتهذيب .

فقد جاهد الكتاب والأدباء في مغالبة العامى والدخيل والركيك من الأنفاظ
والأساليب التي تسربت إلى اللغة ، وجرت أقلامهم بالصواب ، ووضعوا الكتب
التي أرشدت إلى الكلمات الصحيحة التي تحل محل العامى وشبهه ، وأذاعوا ذلك
فتملقفته الصحف والمؤلفون والمتعلمون ، واهتم المعلمون بإرشاد التلاميذ والطلاب
إليه ، حتى صفا النثر وخلا من هذه الشوائب إلا قليلا ، وأصبحت أنواعه في
الصحف والمؤلفات والرسائل على درجة محدودة من الجودة وصحيح اللغة ، ومتمين
العبارة ، ولعلك إذا وازنت بين لغة الدواوين ولغة التأليف في عصرنا الحاضر وفي
فترات الضعف نجد البون شاسعا ، ويرجع الفضل في هذا إلى المشرين على اللغة
العربية وعلى تدريسها وتحريرها ، وإلى وسائل اشاعتها في الصحف وكتب الدراسة
ولغة التعليم .

على أن بقية من الأخطاء وأنواع الانحراف عن اللغة السليمة لا تزال تجري

بها أقلام فريق ممن لم يلعوا باللغة الإلمام الوافي ، ولا تزال كتاباتهم ومؤلفاتهم لا تستغنى عن يقوم لهم بتمحيصها وتنقيحها . ولعل العناية بلغة البلاد ودراستها وتعلمها تنال النصيب الأوفى ، ففي ذلك تقوية للنهضة الأدبية وازدهارها .

ومن أنواع التهذيب التي نالت النثر في الفترة الأخيرة من هذا العصر اتجاهه إلى القصد في الألفاظ ، والبعد عن المبالغات وترك المقدمات غير المجدية مما انغمس فيه الكتاب قبل ذلك فكان من اللغو الذي يبعد الكتابة عن الاتجاه الفطري السليم .

* * *

هذا وقد اتجه الكتاب في متابعة أساليب المتقدمين وجهات مختلفة ، تبعاً لميولهم وللمناهل الأدبية التي ارتووا منها : فمنهم من احتذى أسلوب البديع الهمداني والحريري ، ومنهم من تابع أسلوب ابن المقفع ، ومنهم من اتخذ الجاحظ مثلاً في متانة عبارته وقوة حجته ، ومنهم من سائر ابن خلدون في أسلوبه الخصب بالأفكار والآراء . هذا إلى تلك الأساليب المرسلة التي تراها في الصحف والمجلات وفي المؤلفات الحديثة المختلفة .

وقد تعددت أنواع النثر وتشعبت موضوعاته وتغلغل في أغراض الحياة وأصبح لكل نوع منها صبغته الخاصة ، كالنثر الاجتماعي والعلمي والسياسي . والمراسلات الديوانية التي تصدر من المصالح الحكومية في مختلف الشؤون . وكتاب هذا العصر كثيرون ولهم نزعات مختلفة . ومن أشهرهم :

أحمد فارس الشدياق (١٢٥٠ هـ) — عبد الله باشا فكري (١٣٠٧ هـ) —

١٨٨٩ م) — السيد عبد الله نديم (١٨٩٦ م) — الشيخ محمد عبده (١٣٢٣ هـ)

١٩٠٥ م) — إبراهيم بك المويلحي (١٣٢٣ هـ — ١٩٠٦ م) — قاسم بك أمين

(١٣١٦ هـ — ١٩٠٨ م) — الشيخ علي يوسف (١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م) —

الشيخ حمزة فتح الله (١٩١٨ م) — السيد مصطفى لطفى المنفلوطي (١٩٢٤ م)

حفنى بك ناصف (١٩١٩ م) — الشيخ عبد العزيز جاويش (١٩٢٨ م)
محمد بك المويلحى (١٩٣٠ م) — السيد توفيق البكرى . وغير هؤلاء كثيرون
من كتاب الصحف وأرباب الأقلام ، ومجال كتاباتهم واسع فى الصحف
والكتب العلمية والأدبية وغيرها . ومن اليسير أن تظفر بالأماذج لكل ما أؤرخنا

وإن الأفاضلة فى تراجم الأدباء لمعرفة اتجاههم وأسلوبهم ونزعاتهم الأدبية
تتطلب بحثا مطولا . وسنقتصر على ترجمتين إحداهما للبارودى والثانية لعبد الله
باشا فكرى .



البارودى

(١٢٥٥ هـ - ١٨٤٠ م - (١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م)

نسبه ونشأته :

هو محمود باشا سامى البارودى ، نسبة إلى مدينة إتيماى البارود ، لأن أحد أجداده ، وهو الأمير مراد البارودى ، كان ملتزماً بها ، ولد بقصر أسرته بباب الخلق . وأبوه حسن حسنى بك كان من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لنقله وبربر فى عهد محمد على باشا ، وينتهى نسبه إلى أصل شركسى من سلالة المماليك حكام مصر .

وفى سن الثامنة شرع يتعلم على أساتذة كانوا يحضرون إليه فى المنزل . وفى سن الثامنة عشرة دخل المدرسة الحربية ، ومكث بها أربع سنين ، وتخرج برتبة باشجاويش ، وذلك فى أوائل حكم سعيد باشا ، ثم سافر إلى الأستانة وعين كاتباً للسربوزارة الخارجية التركية ، وقد أنقن فى خلال ذلك اللغة التركية كتابة وقراءة وشعراً ونثراً .

ولما تولى اسماعيل باشا عرش مصر ، وذهب إلى الأستانة للقيام بواجب الشكر للسلطان عاد البارودى معه . ثم دخل فى خدمة الجيش المصرى ، ورقى إلى رتبة البكباشى ، ثم سافر مع فريق من الضباط المصريين إلى فرنسا وانجلترا لمشاهدة الأعمال العسكرية والحربية . وقد رقى فى مناصب الجيش إلى رتبة اللواء وأبلى بلاء حسناً فى الحروب التى اشترك فيها : فى الحملة لإخماد كريد سنة ١٨٦٨ وفى حرب روسيا سنة ١٨٧٧ م . ثم انتظم فى السلك الإدارى فعين مديراً للشرقية سنة ١٨٧٩ م ثم رئيساً لضبطية القاهرة (المحافظة) ثم تولى نظارة الأوقاف أيام توفيق باشا ، ثم عين ناظراً للحربية ، ثم رئيساً للنظار .

ولما قامت الثورة العربية دعى للاشتراك فيها فلبى ، ثم قبض عليه بعد

الثورة ونفى إلى جزيرة سيلان ، وظل بها سبعة عشر عاما وبعض عام .
وتعلم في خلال ذلك اللغة الانجليزية وأجادها . وفي سنة ١٩٠٠ صدر الأمر
بالعفو عنه أيام الخديوى عباس فعاد إلى مصر ، وتوفى ليلة الثلاثاء ٦ من شوال
سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م

ثقافته :

تلقى البارودى معارفه الدراسية الأولى فى المنزل وهو بين سن الثامنة والثانية
عشرة ، وأتم تعلمه فى المدرسة الحربية ، وتخرج منها وهو لا يزال حدثا . ثم
عكف على قراءة الأدب التركى والفارسى فى الفترة التى مكثها فى تركيا . ولم
تتعد ثقافته أنوان الأدب التى اكتسبها من المزاولة والقراءة ، وليست له ثقافة
مدرسية واسعة ولم يدرس العلوم العصرية ، ولا المذاهب الفلسفية ، ولكنه درس
فى صحائف الحياة ما زاد تجاربه وأضاء نواحي نفسه الصافية الحساسة .

أما العلوم العربية فانه لم يدرس منها شيئا ، ولم يتعلم النحو ولا الصرف ولا
علوم البلاغة ولا العروض ، ولكنه قصد إلى أصول هذه العلوم فهمل منها ،
وعكف على الأدب العربى فقرأ من جيده قدرا وافرا ، وألم بالأساليب العربية
ووجوه بلاغتها ونواحي أسرارها إلماما عمليا ، وإن مختاراته لدليل على وفرة ما
استوعب من الشعر ، فقد احتارها من ثلاثين شاعرا من العصر العباسى فى سبعة
أبواب من أبواب الشعر (١) .

وإن هذا النهج فى التحصيل لهو أجدى فى اكتساب المملكة العربية
وامتلاك ناصية البيان من دراسة الفروع دراسة نظرية ، فشعراء العصور العربية
الزاهرة لم يكن نبوغهم راجعا إلى درسه فنون البلاغة أو علوم النحو والصرف

(١) راجع مختارات البارودى وهى مطبوعة بمطبعة الجريدة فى أربعة أجزاء

بل كان الموقظ لشاعريتهم والملمهم لعبقريتهم إنما هو سعة اطلاعهم واستعدادهم
الفطري . ولقد كان للبارودي في هاتين الناحيتين حظ عظيم .

حياته وصفاته

نشأ البارودي في كنف من العز والمجد في ظل أسرة لها حظ من الإمارة
والفروسية . فهو من سلالة المماليك الذين حكموا مصر فترة من الزمن ، وكانت
لهم صولة وشأن . وكان للبارودي بهذا النسب فخر واعتزاز ، وكان للمجد الذي
اغتنى بلبانه وتقلب في أحضانه نفحات عطرت حياته ، ونشوة سرت في عروقه
وقوة طبعته على الخلق النبيل والهمة الوثابة ، فنشأ مقادما على النفس طموحا ،
تملا الحماسة والفروسية قلبه ، ويهز الفخر والاعتداد بالأصل أوتار نفسه ، ويسمو
به عن هين المقاصد فيخلق في سماء نبيل الآمال والأغراض . هذا إلى صفاء ذهنه
وتوقد خاطره وقوة حفظه ، وجميع هذه الخلال هي مهبط الأدب القوى
وللشعر الرائع إذا اقترن بها الميل وساعدها الاطلاع .

أما الميل فقد ظهرت طلائعه فيما كان يبدو من البارودي من الاستماع إلى
الشعر ممن ينشده ، ومن انشاده على من يستمع إليه . وأما الاطلاع فقد كان له
منه نصيب عظيم بقراءة مقدار كبير من جيد الشعر . ولقد قال فيه الشيخ
حسين المرصفي في كتاب الوسيلة الأدبية « إنه لم يقرأ كتابا في فن من فنون
العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ،
فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى
تصور في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها
والمنصوبات والخفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة ، فصار
يقرأ ولا يكاد يلحن ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء حتى حفظ
الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناظدا شريفها من خسيسها ،

واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي
ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء»^(١)

وفوق ما كان للبارودي من الصفات النبيلة الوثابة كان له من المرح ومعاني
اللهو ما يتمتع به ذو الجاه والثروة في مجالي سمرهم ومجامع سرورهم في روضة
المقياس والجزيرة اللتين كانتا تموجان بأنواع المسرات أيام اسماعيل .

شعره :

لقد توافرت في البارودي العوامل التي جعلت له شخصية شعرية راسخة ،
فقد أجملنا لك ما تنطوي عليه نفسه من نبيل ونزوع إلى المجد وخلال كريمة تجاوزت
أصداؤها في أنحاء نفسه ، وامتلأ بها جنانة فانطلق لسانه ، كما تغرد البلابل وتسجع
الحمام ، واتخذ من الشعر ميدانا يحول فيه قلمه وتتجلى نفسه العامرة بسامى الشيم ،
ويترنم فيه قلبه بما أفعمه من نبيل وقوة ، كما اتخذ من الحرب ميدانا لسيفه
وفروسيته ، ومجالا لإقدامه وشجاعته ، ولقد كان في الميدانين سباقا فرفع فيهما
اللواء وكان رب السيف والقلم .

وأوضح ما في شعر البارودي أنه صورة صادقة تكشف في حسن إبانة عن
سرائره وألوان نفسه ، وتسطع فيها شخصيته التي عرف بها في حياته وفي
جده ومرحه .

فإذا وصف الحرب فهو ابن بجدها وفارس حلبتها ، يصور ما فيها من كروفر ،
وسيوف لامعة ورماح مشرعة ، وإذا افتخر بتبين المجد الشامخ ، والاعستزاز
الراسخ ، والهمة الشماء والعظمة النبيلة . وإذا وصف مظهراً أو منظرأ تجلى لك
حسن التصوير وصفاء الخيال . وإذا مدح فكأنما يصور ما في نفسه من خلال ،
ويعبر عما يجيش فيها من آمال .

(١) الوسيلة الأدبية ٢٠ ص ٤٧٤ .

يتضح لك كل هذه حين تقرأ أدب البارودي فترى التوافق بين شعره
ونشأته وبيئته وخلاته . وإن في هذا لدليلاً على شاعريته الصادقة . ولعل هذا
هو عنوان الأدب المطبوع الخالي من تصنع النفس ومن التكلف الذي لا
يحقق غاية .

ولقد كتب البارودي في مقدمة ديوانه ما يوضح البواطن التي دعت به إلى قول
الشعر قال :

« ولقد كنت في ريعان الفتوة ، واندفاع القريحة بتيار القوة ، ألهج به لهج
الجمام بهديله ، وأنس به أنس العديل بعديله ، لاتذرعاً إلى وجه أنتويه ، ولا
تطلعاً إلى غنم أحتويه ، وإنا هي أغراض حركتي ، وإباء جمحي ، وغرام سال
على قلبي فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى ، أو هتفت فسريرت به عن
نفسى ، كما قلت :

تكلمت كلما ضين قبلى بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

نعم إن البارودي حاكى الشعراء المتقدمين في أساليبهم البيانية وذكر في
بعض قصائده الأطلال والرسوم ، ولكن هذا لم يكن التقليد الذى تفنى فيه
الشخصية ويكون فيه الشاعر ناقلاً لمعانى غيره ، بل هو مجازاة لطرق البيان العربى
وفنون التعبير التى فاض بها ذخره الوافر وإطلاعه الغزير ، فامتلاً قلبه بأساليب
العرب ، وترنحت أعطافه ببيانهم الجزل . يعتمد إلى ذلك لأنه ينقل الألفاظ
والتراكيب ، بل لأنه يستخدم البيان العربى فى الإيضاح عن المعانى التى جالت
بخطره ، والأغراض التى تنبع من حياته وبيئته وتجاربها ، وتتجلى فيها شخصيته
وما تنطوى عليه نفسه .

وإنك لتلمح فى قصائد التى عارض بها الشعراء السابقين ظاهرة تدل على

قوة استعدادده للافتنان ، فإنك حين تقرأ إحدى هذه القصائد يخيّل إليك أنه يضرب على أوتار من يعارضه ، ويستلهم روحه ، ويجاريه في أسلوبه وبلاغته ، وإن كانت المعاني التي تتضمنها نابعة من قلب البارودي ومن وحيه النفسي ، مستمدة من قوة خاطره وصادق مشاعره .

معانيه :

قد تبين لك مما اجملنا في منابع الأدب أنها ترجع إلى الثقافة وإلى الفرد وتجاربه ومظاهر نفسه ، وإلى ما يحيط به في بيئته . أما ثقافة البارودي فقد رأيت أنها لم تتجه اتجاهها فلسفاً ولا علمياً ، ولم يكن في دراسته شيء من المعارف والعلوم العصرية الحديثة ، ولكنه نهل من معين الشعر العربي ، وارتوى بما غذى فيه المقدرة الأدبية ، وأضاف إلى ذلك ما أفاده من دراسة الأدب التركي والفارسي ، فكان له من كل ذلك دخر من المعاني ، وإلمام بحكم السابقين التي امتزجت بشعره . فهو لهذا لم تكن له فلسفة خاصة في شعره ، وإن طائفة مما جاء به من الحكم إنما هو مما رسخ في نفسه من قراءة الشعر العربي .

على أن البارودي وإن لم يكن لألوان الثقافة الحديثة والدراسة الفلسفية نصيب في شعره ، كان له من تجارب الحياة ومما تقلب فيه من مناصب وما أبلى في الحرب والسياسة حظ عظيم جعل أفقه العقلي فسيحاً ساطع الضوء . هذا إلى ما يضم بين جنبه من نفس عالية وجنان ثابت ، وما يشعر به من مجد وما يصبو إليه من حرية قومية ، وما كان له من دقة الحس وقوة الملاحظة وصفاء الذهن .

كل أوائلك كان من منابع المعاني القوية التي فاض بها شعره ، وحسب البارودي أن يكون شعره صورة لهذه الخلال النبيلة التي ملأت نفسه وزخرت بها حياته .

ومما يتجلى في شعر البارودى من المعانى ذلك التصوير النظرى الدقيق لمظاهر الحياة ومناظر الطبيعة ، فهو يدل دلالة ناصعة على دقة ملاحظته وقوة حسه . وهذه الظاهرة مما يتصل بالبحث النفسى فى الخيال وأنواعه ، فمن الخيال ما هو نظرى وما هو عضلى ، ومنه ما يخضع للفكر وما يخضع للوجدان ومنه غير ذلك ، وإن الخيال النظرى من مميزات من دق إحساسهم واستعدت نفوسهم لالتقاط صور الحياة كما تلتقطها زجاجات التصوير . فهؤلاء ينفذون بقوة بصيرتهم إلى مجالى المناظر فيحسنون تصويرها ويحيدون التعبير عنها . ولعل هذا النوع من الخيال من علامات النفوس المؤثرة الفعالة لا المتأثرة القابلة . وإن جولة فى أخيلة البارودى التى وردت فى شعره لتوضح هذه الظاهرة التى نشير إليها .

أسلوبه :

يمتاز أسلوب البارودى بالديباجة الناصعة المشرقة ، والعبارات الرصينة الرائعة والألفاظ الجزلة . وإنه ليخيل إليك حين تقرأ شعره أنك تردد قصائد لفحول الشعراء أيام ازدهار اللغة وانسجام فنون البيان .

ومرجع هذا إلى غزارة اطلاعه ووفرة ذخره الأدبى الذى صادف نفسه الشاعرة وحسه القوى فتفجر عن هذه المينابيع من البيان العربى الناصع الذى يضم إلى المعانى المستحدثة والأغراض التى أوحى بها عصر البارودى ، قوة فى النسج تصل إلى درجة صافية من البلاغة .

وإنك لتجد فى بعض أبياته شيئاً من ضرورات الشعر التى جرت بها سليقة بعض الشعراء ، وأقرها النقاد ، وذلك لأنه إنما كان يستمد التعبير مما طبع فى نفسه من قراءة الشعر العربى بما فيه من ضرورات شعرية ، ولم يقصد مخالفة قواعد اللغة ، لأنه لم يكن يسترشد فى صحة تراكيبه بالقواعد النحوية ، بل بالعبارات التى منها نبعت هذه القواعد ما اطرده منها وما شذ .

وقد قال الشيخ المرفص في ذلك « وسمعت مرة يسكن ياء المنقوص والفعل
المعتل بها المنصوب بين فقلت له في ذلك فقال هو كذا في قول فلان ، وأنشد شعرا
لبعض العرب » .

أثره ومكانته الشعرية :

كان البارودي زعيم النهضة الشعرية في العصر الحديث وإمام الشعراء ورافع
لواء الشعر . وهو حلقة الاتصال بين القديم والجديد . ولا تغالي إذا قلنا إنه أشعر
الشعراء بعد العصر العباسي الأول ، ولا نعدو الحقيقة إذا شبهناه بفحول شعراء
العصر العباسي الزاهر .

فماذا أحدث البارودي من جديد ؟ وما أثره في عصره ؟ وهل كان لعصره
أثر في شعره ؟ وهل كانت هناك طلائع استرشد بها ونسج على منوالها في عصره
وأتم سلسلتها ؟

لقد طفر البارودي بالشعر طفرة انتقلت به من الحضيض والتدهور إلى ديباجة
رصينة قوية وأسلوب جزل متين . ولم يكن لكل هذا مقدمات ظهرت في أفق
العصر . فقد كان الشعر في العصر السابق هابطا ضعيفا وظل كذلك في طليعة
النهضة الحاضرة . ولعلك قد تبينت هذا مما أوضحنا ومما أوردنا من نماذج . وإذا
كان لبعض الشعراء مثل محمود صنفوت الساعاتي بصيص من الجودة فلقد كان ذلك
إلى جانب البارودي كإنسراج إلى جانب الشمس الساطعة التي بهرت الأنظار .
وقد كان هذا الضياء الذي عم الأفق الشعري خير هاد للشعراء ، فساروا يترسمون
خطا البارودي ويسترشدون بفنونه وديباجته واعتبروه بحق إمامهم ومثلهم الأعلى
وزعيم الشعر في هذا العصر .

وليس عجيباً أن يثب البارودي هذه الوثبة القوية ، وأن يصل إلى مقام
الفحول من المتقدمين دون أن تكون هناك مقدمات تلحقها في عصره أو في

سابقه ، فالنبوغ الشعري لا يحتاج إلى مقدمات ، وإنما يتطلب توافر عوامل وأسباب خاصة ، ولقد توافرت في البارودي الصفات التي تكون الشاعر المطبوع ، فانه درج ميالا إلى قراءة الشعر وسماعه ، وشب في أحضان المجد وامتاز بدقة الحس وصفاء القريحة ، وغذى هذه المواهب فهل من أعذب المناهل الشعرية التي مزجت الديباجة القوية بقلبه فجرت في حواسه وجاشت بها نفسه .

ونواحي التجديد في شعر البارودي كانت في الديباجة الجزلة وفي تغذية ميادين الشعر ببعض الأغراض الحديثة والمعاني التي اقتضتها بيئته ، وفي إلbas المعاني الجديدة ثيابا من جزل الأسلوب . أما النهج العام للقصيدة فلم يغير منه البارودي شيئا ، بل سار على غرار المتقدمين في الخطة وفي الأوزان وفي أساليب البيان .

وهناك نماذج من شعره في مختلف الأغراض :

قال يصف حرب سكان جزيرة أقریطش (كريد) حين خرجوا عن الطاعة

١٢٨٢ ويتشوق إلى مصر :

أخذ الكرى بمعاهد الاجفان	وهنا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب	فوق المتالع والربى بجران
لا تسقبن العين في ظلماته	إلا اشتعال أسنة المran ^(١)
نسرى به ما بين لجة فتنة	تسمو غواربها على الطوفان
في كل مربأة وكل ثنية	تهدار سامرة وعزف قيان ^(٢)
تستن عادية ويصهل أجرد	وتصيح أجراس ويهتف عان ^(٣)
قوم أبى الشيطان إلا خسرم	فتسلوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاء فما يمين لناظر	غير التماع البيض والخرسان ^(٤)

(١) المran : الرماح .

(٢) تستن : تعدو .

(٣) المربأة : مكان المراقب والثنية : الطريق في الجبل .

(٤) الخرسان : الدروع والرماح .

فالبدر أكدر والسماء مريضة
والخيل واقفة على أرسائها
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا
حتى إذا ما أصبح أسفر وارتمت
فإذا الجبال أسنة وإذا ألوها
فتوجست فرط الركاب ولم تكن
فرغت فرجعت الحنين وإنما
ذكرت مواردها بمصر وأين من
والنفس لاهية وإن هي صادفت
فسقى السماء محلة ومقامة
حتى تعود الأرض بعد ذبولها
بلد خلعت به عذار شببتي
فصعيده أحوى النبات وسرحه
فارقته طلبا لما هو كائن

ومنها:

كل امرئ يجري على أعراقه
فعلام يلتمس العدو مساءتي
أنا لا أزل وإنما يزغ الفتى
فليعلمن أخو الجهالة قصره

والبحر أشكل والرماح دوان^(١)
لطراد يوم كريهة ورهان
يتكلمون بألسن النيران
عيناي بين ربي وبين محان
د أعمة والماء أحمر قاني
لتهاب فامتنت على الأرسان^(٢)
تحنانها شجن من الأشجان
ماء بمصر منازل الرومان
خلفا بأول وصاحب مكان
في مصر كل مرنة مرنان^(٣)
شتى السماء كثيرة الألوان
وطرحت في يمني الغرام عناني
ألمى الظلال وزهره متداني^(٤)
والمرء طوع تقلب الأزمان

والطبع ليس يحول في الإنسان
من بعد ما عرف الخلائق شأني
فقد الرجاء وقلة الأعوان
عني وإن سبقت به قدمان

(١) الأشكل : الذي يضرب بياضه إلى الحمرة .

(٢) المرنة المرنان : القوس .

(٣) الفرط : الفرس السريعة .

(٤) الأحوى : ما يكون لونه أسود إلى الخضرة . والسرح كل شجر لاشوك فيه أو كل

شجر طال . وظل ألمى : كشيء .

فلربما رجع الخسيس من الحصى بالدر عند تراجع الميزان
شرف خصصت به وأخطأ حاسد مسعاته فهذى به وقالانى

وقال على روى قصيدة أبى نواس التى مطلعها : (أجارة بيمينا أبوك غيور) :
أبى الشوق إلا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينم عليها مدمع ورفير
خضعت لأحكام الهوى ولطالما أبيت فلم يحكم على أمير
أقل شبة الليث وهو مناجز وأرهب لحظ الريم وهو غرير^(١)
ويجزع قابى للصود وإنى لدى البأس إن طاش الكى صبور
وما كل من خاف العيون يراعة ولا كل من خاض الختوف جسر^(٢)
ولكن لأحكام الهوى جبرية تبوح بها الأنفاس وهى تفور^(٣)

ومنها :

وإنى امرؤ صعب الشكيمة بالغ بنفسى شأوا ليس فيه نكير
وفيت بما ظن الكرام فراسة بأمرى ومثلى بالوفاء جدير
فما أنا عما يكسب العز ناكب ولا عند وقع المحفظات حسير^(٤)
إذا صلت كف الدهر من غلوائه وإن قلت غصت بالقلوب صدور
ملكك مقاليد الكلام وحكمة لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى لباء بفضلى جرول وجرير^(٥)

(١) يراعة : جبان .

(٢) غرير : غرلا تجربة له

(٣) جبرية : جبروت .

(٤) المحفظات : المغضبات . حسير كليل وضعيف .

(٥) جرول : لقب الخطيئة .

ولو كنت أدركت النواصي لم يقل (أجارة يمتينا أبوك غيور)
وما ضرني أني تأخرت عنهما وفضلي بين العالمين شهيد
فيار بما أخلى من السبق أول وبذا الجياد السابقات أخير

وقال من قصيدة وهو في حرب الروس يذكر شوقه إلى مصر:

فياروضة المقياس حياك عارض	من المزن خفاق الجناحين دالح ^(١)
ضحوك ثنايا البرق تجرى عيونه	بودق به تحيا الربا والصحاصح ^(٢)
تحوك بخيط المزن منه يد الصبا	لها حلة تختال فيها الأباطح ^(٣)
منازل حل الدهر فيها تمانى	وصاخفي فيها القنا والصفائح
وإن أحق الأرض بالشكر منزل	يكون به للمرء خل مناصح
فهل ترجع الأيام فيه بما مضت	ويجري بوصل من أميمة سانح ^(٤)
لعمري لقد طال النوى وتقاذفت	مهامه دون الملتقى ومطواح
وأصبحت في أرض يحاربها القطا	وترهبها الجنان وهي سوارح ^(٥)
تصيح بها الأصدا في غسق الدجى	صياح الشكالى هيبتها النوائح
فأنجدها للكاسرات معاقل	وأغوارها للعاسلات مسارح ^(٦)
مهالك ينسى المرء فيها خليله	ويندر عن سوم العلا من ينافح ^(٧)
فلا جو إلا سمهري وقاضب	ولا أرض إلا شمري وسابح ^(٨)
ترانا بها كالأسد نرصد غارة	يطير بها فتق من الصبح لامح

- (١) دالح : كثير الماء . (٢) الودق : المطر . والصحاصح : ما استوى من الأرض .
(٣) الأباطح : مسيل واسع . (٤) السانح من الطيور تتيامن به العرب وضده البارح .
(٥) الجنان : الجن . سوارح : تسرح في شئونها . (٦) العاسلات : الذئاب .
(٧) ينافح : يدافع . (٨) شمري : شجاع .

مدافعنا نصب العدا ومشاتنا
ثلاثة أصناف تقيهن ساقه
فلست ترى إلا ككة بواسلا
تغير على الأبطال والصبح باسم

وقال وهو بسر نديب :

أين أيام لذي وشبابي
ذاك عهد مضى وأبعد شيء
فأديرا على ذكره إني
كل شيء يسلوه ذواللب إلا
ليت شعري متى أرى روضة المنه
حين تجري السفين مستبقات
قد أحاطت بشاطئيه قصور
ملعب تسرح النواظر منه
كلما شافه النسيم تراه
ذاك مرعى أنسى وملعب لهوى
لست أنساه ما حيت وحاشا

وقال يجيب الأمير شكيب أرسلان عن قصيدة له :

ردى التحية يامهاة الأجرع وصلى بمجلك حبل من لم يقطع^(٤)

(١) الفارح : البالغ الخامسة من العمر . (٢) ضوايح : لأنفاسها صوت .

(٣) الملاعب : نوع من الكلب .

(٤) الأجرع : الأرض ذات الحزونة أو الرملة المستوية .

وترفق بمتيم علقت به نار الصبابة فهو ذاكى الاضلع ومنها .

وترى الثريا فى السماء كأنها
بيضاء ناصعة كبيض نعامة
وكانها أكر توقد نورها
والليل مرهوب الحمية قائم
متوشح بالنيرات كباسل
حسب النجوم تخلفت عن أمره
مازلت أرقب فجره حتى انجلي
وترنمت فوق الأراك حمامة
تدعو الهديل وما رآته وتلك من
ريا المسالك حيث أمت صادفت
فإذا علت سكنت مظلة أليكة
أملت على قصيدة فجعلتها
هى من أهازيج الحمام وإنما

حلقات قرط بالجمان مرصع
فى جوف أدحى بأرض بلقع
بالسكر بلاء فى سماوة مصنع
فى مسحة كالراهب المتلفع
من نسل حام باللجين مدرع
فوخى لهن من الهلال بأصبع^(١)
عن مثل شادخة الكميت الأتلع^(٢)
تصف الهوى بلسان صب مولع
شيم الحمايم بدعة لم تسمع^(٣)
ما تشتهى من مجثم أو مرتع
وإذا هوت وردت قرارة منبع
لشكيب تحفة صادق لم يدع
ضمنتها مدح الهمام الأروع

(١) وحي وأوحى بمعنى واحد .

(٢) شادخة : الغرة التى تنتشر وتتلأ الجبهة . الأتلع : الطويل العنق .

(٣) الهديل ذكر الحمام .

عبدالله باشا فكري
(١٢٥٠ هـ - ١٣٠٧ هـ)

نشأته وثقافته

هو ابن محمد أفندي بليغ بن الشيخ عبد الله . وكان جده من علماء الأزهر الذين أخذوا العلم عن كبار شيوخه . وقد تلقى أبوه العلم في الأزهر ، ثم دخل المدارس المصرية وتعلم علومها وبرع في المواد الرياضية وصار من كبار المهندسين والتحق بخدمة الحكومة ، وانتظم في ضباط الجيش وشهد بعض المواقع الحربية ثم رقى إلى مفتش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفي سنة ١٢٦١ هـ وترك ابنه عبد الله يتيما فكفله بعض أقارب والده .

وقد سار عبد الله في ثقافته على النهج الديني فحفظ القرآن وجوده ، ثم طلب العلم في الأزهر ، وكان يشتغل في خلال ذلك بتعلم اللغة التركية حتى أجادها واستمر في خلال عمله يطلب العلم طرفي النهار إلى أن تراكت عليه أعباء العمل . وقد ظل يتدرج في المناصب فنقل إلى ديوان المحافظة ثم مترجما بالداخلية ، والتحق بعد ذلك بالمعية الخديوية أيام سعيد باشا ، وكان يقوم بالكتابة في القلم العربي والقلم التركي . وحين جلس اسماعيل باشا على عرش مصر التحق بخدمته وصحبه في رحلته إلى الأستانة وهي يومئذ مقر الخلافة ومطمح أنظار العالم الإسلامي .

وفي سنة ١٢٨٤ هـ عينه اسماعيل باشا لملاحظة أنجاله في تعليمهم . وفي سنة ١٢٨٨ هـ عين وكيلا لديوان المسكاتب الأهلية ، وكان ناظر الديوان على ياشا مبارك . وفي سنة ١٢٩٦ هـ صار وكيلا لنظارة المعارف . وفي سنة ١٢٩٩ هـ ضمت إليه وظيفة المسكاتب الأول بمجلس النواب . ثم صار في هذه السنة ناظرا للمعارف وعلى أثر الحوادث العرابية استقال وسجن مع من سجنوا ، ثم ثبتت براءته وأفرج

عنه ، وبقى معاشه موقوفا . ثم استعطف الخديو توفيق باشا بقصيدة طويلة فغفا عنه ، وأعاد إليه معاشه ، فنظم قصيدة أخرى يشكره فيها .
رحل بعد ذلك إلى الحجاز سنة ١٣٠٢ هـ ، ثم صافر سنة ١٣٠٣ هـ ، إلى بيت المقدس وبيروت ودمشق وبلبك .

وفي سنة ١٣٠٦ هـ عين رئيساً للوفد العلمى المصرى فى استوكهلم . وقد زار فى خلال رحلته عواصم أوربا ، واعتزم تدوين مآشاهده ولكن المرض حال دون ذلك ، فقام بتدوين هذه الرحلة ابنه أمين فسكى باشا .
وقد مات صباح الأحد عشر ذى الحجة سنة ١٣٠٧ هـ يوم عيد الأضحى (٢٧ من يولييه سنة ١٨٩٠) .

* * *

من هذا نرى أنه نشأ نشأة قومية وثقف ثقافة أساسها دراسة العلوم العربية الدينية ثم اللغة التركية التى كانت رمز الصلة بين مصر والدولة العثمانية وأداة اقتضتها أعمال الحكومة فى ذلك العصر .

وقد تدرج فى وظائف حكومية ذات صلة وثيقة بالكتابة العربية وبإصدار الرسائل فى الأعمال المختلفة للدولة وعلى لسان ولاية الأمور بها ، فكان ذلك من الفرص التى أتاحت له للنهوض باللغة وأسايلها والاتصال بالحياة التعليمية والثقافية والعمل على تهذيبها ووضع الأسس لصقلها وتصفيتها من الشوائب التى امتزجت بطرق تعليمها مما ينبو عن عقول المتعلمين . وقد اكتسبته المناصب التى تقلب فيها خبرة بالثقافة المصرية وبشئون المعارف ، فكان عضدا ومرجما لمن يتولون شئونها يستمدون منه رأى والمعونة .

وكانت له مكانة مستمدة من علمه وسعة اطلاعه ، وعفته ونزاهته ، وتمسكه بالحق ، ولين جانبه ، ولطف محاضرته . وقد عرفت له البلاد قدره ، وذاع شأنه فى الأقطار التى رحل إليها ، فكان يقابل فيها بالاعزاز والتمكريم والتقدير .
ومما يسترعى النظر أن الخاتم الذى كان يوقع به على الرسائل كتب عليه

ومما ينسب إليه أن الخاتم الذي كان يقع به على الرسائل كتب عليه قوله تعالى
(قال إني عبد الله آتاني الكتاب) وحروف الجمل لهذه الكلمات توافق تاريخ
ميلاده سنة ١٢٥٠ .

أثره في النهضة الحديثة :

يعد عبد الله باشا فكري ممن لهم شأن عظيم في بناء النهضة العلمية الحديثة :
فقد قام بنصيب مشكور في إصلاح المكتاب وشرع في إصلاح طرق التعليم ولا
سيما طرق تعليم اللغة العربية التي كانت مشوبة بالالتواء ، نابية عن عقول المتعلمين ،
إذ كان تعليمها يبدأ بإعراب البسملة وبشحن الأذهان بطائفة من القواعد النحوية
تعسر على التلاميذ إيساعها ويتعاصى الانتفاع بها ، فهد السبيل لتذليل ذلك
وتقريبه إلى الأفهام ، ووضع بعض كتب للمطالعة تعد أولى المراحل في الإصلاح
وباكورة للتجديد في ذلك العصر .

وقد كان من الأعوان في إنشاء دار الكتب وفي جمع ما كان منثراً من المؤلفات
والمطبوعات التي أخرجتها المطبعة الأهلية . فهو من أعلام النهضة التعليمية والثقافية
والمشركين في وضع أسسها الصالحة . ولعل الموازنة بين مانحن فيه الآن من رقي
علمي وثقافي وتعليمي ، وما كانت عليه الحال في مستهل هذه النهضة وفي مراحل
تدرجها توضح الجهود الموقفة لهؤلاء الأعلام الذين جاهدوا فحمدنا آثار سعيهم ،
واقدر كان لعبد الله باشا فكري من ذلك نصيب عظيم .

وكان له إلى جانب الإصلاح في التعليم وطرقه وكتبه شأن في إصلاح الكتابة
الديوانية وأساليبها والنهوض بها وتصفيتها من بعض ما شابها من العجمة والعامية
وتوجيهها إلى العربية الصحيحة بعد أن كانت الرسائل تكتب بالتركية أو بالعامية .
وإن نظرة في بعض هذه الرسائل وما يشوبها من ركاكة وهبوط ونحو عن اللغة
السليمة ، لتبين مدى ما نالت العربية من نهوض وتقدم على أيدي المصلحين الذين
جددوا ما خلق من ديباجتها .

مكاته الادبية :

خير مايلجأ اليه الباحث في تقدير الأدباء وتعرف قيمتهم وتبين مكانتهم وأثرهم أن يلم بالبيئة العلمية والأدبية التي غدتهم ونشئوا في أكتافها، وأن يحيط باتجاهات العصر الذي أظلمهم ، ويدرك مميزاته ليعلم مدى ما كان لهم من أثر في الابتكار والإصلاح ، وما سلكوا سبيله من إذعان لنزعات سادت ، أو سعى إلى التحكم فيها وتوجيهها وجهة جديدة .

وقد بدت في أوائل هذا العصر بعض الظواهر الأدبية واللغوية وكانت مسيطرة متغلغلة مستحكمة الأثر . ولعل أهم مانشير اليه من هـذا حقيقتان : (الأولى) أن الأدب كان قد أصابه التصدع والهبوط الشامل في العصر التركي، وظل كذلك في أوائل النهضة . وقد أوضحنا أسباب ذلك ومظاهره فيما أوردنا من خصائص هذا العصر . (الثانية) أن الصورة التي كانت قد رسخت في الأذهان عن الأدب وخصائصه أنه كلام يحجر وتغشاه موجة من الصناعة اللفظية وألوان البديع التي غالى القوم في التمسك بها وجاوزوا فيها حد الرصانة ، وأثقلوا كاهل الديباجة العربية حتى صدق أدباء ذلك العصر ما توهموه في هذه الصناعة من حسن وانسجام ، وصار هذا التكلف مبعث التسابق والتنافس . وتلك بقية مشوهة مما كان للقاضي الفاضل واضرابه من أساليب كانت تستمد قوتها من التحصيل والاطلاع وامتلاك زمام البيان ، فخلف من بعدهم خلف ممن ذهبوا في الشطط إلى حد بعيد ، ولم تسعفهم ثقافتهم ولا تحصيلهم فكان أدبهم مثالا للتكلف والانحراف عن الصراط السوي للبيان .

وهناك مظهر ثالث في أوائل النهضة وهو أن الحكام ومن ييدهم زمام الدولة وتصريف أعمالها وإدارة شئونها الكتابية لم يكن لهم من الثقافة اللغوية والأدبية ما يمكنهم من الاضطلاع بالكتابة العربية الصحيحة .

ولعلنا حين ننظر إلى أدب عبد الله باشا فكري من خلال هذه المظاهر نجد أن له في الإصلاح شأنًا ، وأنه كان ممن نهضوا بالديماجة العربية ، وأعادوا لأساليب اللغة بعض صفاتها وجدتها ونضارتها .

وإذا كان التزام السجع والميل إلى المحسنات البديعية مما لا نميل الآن إلى تشجيعه أو الاسراف فيه ، فقد كان في عصور سلفت مما يمدح عليه الأديب ويقابل بالإعجاب ، ويراه نقاد ذلك العصر محمداً ، ولونا من ألوان البراعة ، ومقياساً لسعة الإطلاع والأخذ من ألفاظ اللغة وعباراتها بنصيب .

على أننا لا نريد أن نقسو في الطعن على السجع ولا على أساليب الكتابة التي تتخذ منه حلية للتعبير ، فإن السجع على ما ينال من بعض النقاد من إعراض ، هو نوع من جمال القول يخف أحياناً على الأسماع . ولقد كان سجع عبد الله فكري باشا من النوع السهل البعيد عن التكلف .

هذا ولم يكن عبد الله فكري في عصره من أعلام الأدب فحسب ، بل كان ممتازاً بعلمه وسعة إطلاعه في العلوم الشرعية والعربية . وكان وزيراً وكاتباً وشاعراً وعالمًا ومتفقيًا ومصلحًا ، ودعامة من دعائم النهضة الحديثة . وهذه مزايا لم يظفر بها إلا القليل .

نثره :

أظهر النواحي الأدبية لعبد الله فكري هو نثره . ويجرى فيه على غرار أسلوب البديع الهمداني والخوارزمي والقاضي الفاضل ومن نهج نهجهم من التزام السجع القصير الفقرات القليل التكلف . وقد سلك ذلك المسلك في الرسائل الديوانية التي كان يصدرها وفي الرسائل الإخوانية ، وفي المقامات التي دمجها . وقد أشار صاحب الوسيلة الأدبية إلى مكانته وإلى أسلوبه في النثر الصناعي ، وجعله في منزلة البديع الهمداني في الكتابة الصناعية ^(١) .

(١) راجع الوسيلة الأدبية صفحة ٦٧٢

ومما يذكر لعبد الله باشا فكرى بالفضل ما أشرنا إليه من عظيم أثره في ترقية أسلوب الرسائل وصقل ديباجتها ، وطبعها بطابع من البلاغة ، بعد أن كانت تكتب بالتركية أو بالعامية . وإذا كان للبارودى أثر في إهراض الشعر والرجوع به إلى سابق روعته وصافي ديباجته ، فقد كان لعبد الله فكرى مثل ذلك في أساليب الرسائل الديوانية والرجوع بها إلى شىء من صفاتها السابق ، وإلى لون من ألوانها يشبه ما كان منتشرا في القرن الرابع أو نحوه .

ولا يقدر في بلاغة الأسلوب الذى نهجه في نثره أنه أسلوب مرتكز على السجع ، فإن السجع لون من الحسنات ونوع من الموسيقى اللغوية ، ولا يجعله نابيا نافرا إلا الإسراف والتكلف . أما إذا جاء سهلا هينا فإن القليل منه يكون زينة للبيان في بعض الأغراض الكتابية .

شعره :

ليس لشعر عبد الله فكرى المكانة التى لثمره ، فهو وسط في الجودة ، وتجد فيه أحيانا مظاهر الصنعية البديعة من جناس وتورية واستخدام ، وتجد أيضاً ذلك النوع الذى انتشر في العصر التركى وهو التاريخ الذى يوضع بحروف الجمل وقد أشرنا إلى ذلك .

وأغلب ما تجد من الاتجاهات الشعرية أحد نوعين : أولهما ذلك النوع الذى يقال في مناسبات خاصة كالمديح أو الشكر أو الاستعطاف . وثانيهما نوع يروض فيه بياانه على ألوان من الحسنات أو ضوابط علمية أو ألغاز أو نحو ذلك . أما الشعر الذى ينبعث عن النفس ويصور خلداتها وآمالها ، ويبرز ما تنطوى عليه القلوب أو ينبع من العواطف الشاعرة ، فلا نجد منه إلا قدرا ضئيلا ينزع فيه منزع التعبير الوجدانى عن خواطره النفسية . وله لون من الشعر الوعظى يسرد فيه الحكم بأسلوب ليس له من القوة الشعرية نصيب .

وشعره في جملة أقرب إلى ذلك النوع الذى يلجأ إليه من غزير اطلاعهم

الأدبي والعلمى ، وأنسوا من أنفسهم وفرة الذخيرة اللغوية وامتلاك زمام العبارة العربية ، فيقدمون على الترجم التقليدى وتدبيح الألفاظ جرياً على وتيرة الشعراء ومحاكاة لهم .

وإذا كانت ديباجته الشعرية لم تبلغ مبلغ فحول الشعراء فهو شاعر متوسط الديباجة وله بعض المحاسن . ولا ننسى أنه ظهر فى عصر لم يكن للأدب فيه دولة قائمة ، وأن ظهور أمثاله يعد خطوة من خطوات النهوض لها شأنها .

وتجد نماذج من شعره ونثره جمعها نجله أمين فسكرى باشا فى كتاب « الآثار الفكرية » ، وفى كتاب « الوسيلة الأدبية » . وهاك طائفة منها ترى فيها اتجاهه وخصائصه :

كتب إلى إمام مسقط من طرف الحضرة الخديوية :

ماروضة سحبت عليها السحاب ذبول مطارفها ، وخلعت عليها من خلع الربيع محاسن طرائفها ، فظلت تشى عليها أدواحها بما استودعته أرواح النسيم ، حين سرت بليلة الأذيال عطرة الشميم ، بأحسن ولا أبهى ، ولا ألطف ولا أشهى ، من تحية بهية تعلمت لطفها نسبات الشمائل ^(١) ، وأثنيه سنية استفادت من حسن تلك الشمائل ، وتسليمات زهية يتلألأ فى أرجاء المودة سناها ، ويتفياً ^(٢) فى انحاء الأفئدة ظلال معناها ، تقدم وتبدى ، وتنحف وتهدى ، إلى حضرة ذروة المجد الشامخ ، وتاج هامة السعد والشرف الباذخ ، حسنة الدنيا ، وحلية المجد والعليا ، بدر المفاخر الذى أضاءت به نواحيها ، ومنار المآثر الذى اهتدى به ساريها ، رب الهمم العوالى ، وسليل الأكارم الأعلى ، وبهجة الأيام والليالى ، وزينة المحامد والمعالي ، حرس الله مهجته ، وأدام بهجته ، وحى حماه ، ورعى رعاياه ، ولا

(١) الشمائل : جمع شمال بالفتح ريح تهب من جهة خاصة .

(٢) تقياآت الظلال : تقلبت .

زالت ثغور الآمال بوجوده بواسم ، ورياح الإقبال بوفوده نواسم ^(١) .

وبعد فقد وصل إلى كتابكم الكريم ، وتلقيته بما ينبغي له من التكريم ،
فلاً العين قرة ، والقلب مسرة ، والنفس ارتياحاً ، والصدر انشراحاً ، واجتليت
منه روضة بلاغة أزهرت نجومها ^(٢) ، وسما فصاحة أسفرت نجومها ، واغتمت
من براعات عباراته الفائقة مزيد المسرات ، بما ابتدتموه من حسن الميل إلى
وبديع الانتفات ، وشكرت المولى العظيم ، على صحة ذلك المزاج الكريم ، وهذا
الحب في صحة وعافية ، ونعمة من الله وافية ، فنسأله ونبتهل إليه سبحانه ، أن يديم
علينا وعليكم إحسانه ، آمين .

* * *

ومما كتبه صورة فرمان بتنصيب محافظ لمصوع :

صدر هذا فرمان المطاع ، الواجب له القبول والاتباع ، خطاباً إلى الحكام
والعلماء والقضاة والأعيان ، والوجوه والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالي
المتوطنين في محافظة مصوع بجهات السودان ، ليكون معلوما لديكم ، بوصول
هذا المنشور إليكم ، أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيب فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناه
فيه من الدراية والاستعداد ، والسلوك في طرق الرشاد ، وبذل المهمة في أمور
المصلحة ومزيد الاجتهاد ، فامثلوا وأمره التي تصدر في صالح المصلحة واجتنبوا
نواهيها ، واجتهدوا فيما يعود به عليكم مزيد العمارية ، لتنالوا حسن الرفاهية ،
واعملوا بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » لتغفروا
بزيادة التفاتنا إليكم ورضانا عنكم . وأنت أيها المحافظ قد علمت مالدينا من
الشغف باتساع دائرة المدنية ، وحصول الخير لجميع أهل هذه الديار الوطنية ، والميل

(١) نسيت الريح : تحركت وهبت .

(٢) جمع نجم : وهو ما لا ساق له من النبات .

إلى دوام راحة العباد ، وتأمين السبل وتمدين البلاد ، فعليك برعاية ما يلزم لذلك
 واسلك في إدارة أشغال هذه المحافظة أحسن المسالك ، ودم على العدل والإنصاف ،
 واحذر من الظلم والاجحاف ، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام لأمته : « كلكم
 راع وكل راع مسئول عن رعيته » . ولتمكن مهتما بتحصيل حقوق المصلحة في
 أوقاتها ، ورؤية جميع الأشغال على أحسن حالاتها ، ليدوم حسن أنظارنا عليك
 وتفوز بحسن التفاتنا إليك ، اعلم ذلك واعمل به ، واحذر من مخالفة موجهه .
 تحريرا في أوائل ذى الحجة سنة ١٢٨٢ .

ومما كتبه لبعضهم :

الشوق إلى لقاءكم ، واجتماع نور محياكم ، تضعف عن نقله حمائم الرسائل ،
 ولا يحتاج في إثباته للحجج والدلائل ، فالله يطوى شقة البين ، ويقر بكم العين ،
 ويمتحن ببقائكم وطيب لقاءكم ، وقد ورد خطابكم الكريم ، فسر أنفسنا
 تعرفه وتألفه ، وأقر أعيننا لا تزال تترقبه وتتشفوه ، وقد كان مر بخاطري وحضر
 لفكري أن أسابق سيدي ومولاي برسالة أشكو فيها لواعج البعاد ، وأقضى بها
 بعض الفروض الواجبة من حقوق الوداد ، ولكن أبى الله إلا أن يكون سيدي
 هو السابق لتلك الفضيلة ، والبادىء بهذه المكرمة الجميلة ، وأن أكون المقصر
 في جنب تطوله ، والمفرط في جانب تفضله ، على أنى لم أكن مقصراً في دعاء
 يصحبه الحب ويرافقه الإخلاص ، وثناء على محاسن تلك السمائل أوجبه مزيد
 الاختصاص ، وسؤال عن ذلك الخاطر الزاهر ، أستقبل به كل وارد وأشيع كل
 صادر ، والأمل اتصال ما يطمئن به الفؤاد ، من رسائل الوداد ، حتى ينقضى عهد
 أمد البعاد ، ذلك غاية المراد .

وكتب إلى الأستاذ الشيخ على الليثي :

السلام على سيدى الأستاذ أسعد الله شهوره وأيامه ، وتقبل فى شهر الصوم
الشرىف صيامه وقيامه ، وأحياء لكثير من أمثاله وأدامه ، ممتعا من الله تعالى
بكل ما رامه .

و بعد فقد جاءنى كتابه الآن فأقر عينا تتشوف إليه ، وسر نفسا تفرى عليه ،
وجلا على من بديع البيان ، ما أنسانى بديع الزمان ، ومن معانيه الحسان ، ما أعاد
إحسان حسان ، فلا عدمت من مولاي أخا وفيا ، وخلا حفيا ، وصديقا صفيا ،
وإن عندى من الشوق إليه ما يقصر لسانى عن صفته ، وحسبى استنارة ضميره
الكرىم فى معرفته ، فلم يترجم عنه إن شاء بنفسه لنفسه ، فليس لى براعة يراعتة
ولا جودة نفسه ، وعلمت ما عزم عليه سيدى من إحياء شهر رمضان ، بتلاوة
القرآن ، والدعاء للخلان والإخوان ، فالله يوفقه ويديم توفيقه ، ويجعل التقوى
سبيلا والقبول رفيقه ، وينفعنى بأسرار دعواته ، وآثار توجهاته ، فى خلواته وجلواته ،
وايم الله لقد نبه منى الكتاب قلبا غافلا ، واطلع عليه من نجم الانابة ما قد كان
آفلا ، والله سبحانه المرجو أن يوفق ويقبل ، وأن يشيع بالعفو كل شهر مضى
ويهل بالهدى كل شهر أقبل ، وأما ما أشار سيدى اليه فى خطابه الشرىف ، من
طلبى ما عساه يلزم داعيه من أمور الرىف ، فأنا لا يلزمنى الآن سوى أن يمدنى
ببركات دعواته الفاخرة ، ولا يقتصر فى الدعاء على هذه الدنيا الحاضرة ، بل يجمع
بين الدنيا والآخرة ، فإنما يطلب من كرىم لا يستنفد الطمع مالهيه ، ولا يرد عبده
المنيب اذا رفع نحو بابيه يديه ، فإن كان لا بد من اعانة لأخيك فهذه سبيلها ، والله
هادى كل نفس ودليلها ، وسلام لك من سيد على القدر مبارك الطلعة ، وماجد
محمود الطبع سامى الرفعة ، وأمين وأخوة يسلمان عليك ويقبلان يديك ، وسلام
الله تعالى ورحمته وبركاته عليك .

٢٨ من شعبان سنة ١٢٨٧

وله من مقامة في حسن الوفاء :

حدثني صاحب مبارك ، ليس في فضله يشارك ، قال : كان ببعض الأمصار فيما مضى من الأعصار رجل من التجار ذوشرف ونجار ، قد رزق سعة الغنى وجرى ثمرات المني ، وكان حسن المعاملة ، كثير الجمالة ، سليم الفؤاد حلو الوداد ، فطار صيته في الأقطار ، وسار في جميع الأمصار ، فانفسح نطاق تجارته ، واتسعت دائرة إدارته ، وكثرت أحبابه وأصحابه ، وغصت بإخوانه وخلانه رحابه ، ورزق بولد سرته سيرته ، وحسنت علانيته وسريته ، فكان له رفيقا وعلى أهله شفيقا .

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد وعاش الرجل مدة على هذه الحال ، رعى العيش ناعم البال ، قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال ، حتى قارب مدى العمر حده ، وبلغ ابنه المذكور أشده ، فلما أظله يومه الموعود ، وأحس بانقضاء أمده المحدود ، دعا بابنه في خلوة من الأغيار ، وأوصاه بوصايا البررة الأخيار ، وقال فيما أودعه سمعه ، وأراد به نفعه : يا بني إني أرى الشمس آذنت بالأفول ، وقد عزم الغريب على القفول ، واليوم قد أزف الرحيل ، والبقاء في هذه الدار مستحيل .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة جدباء محمول وأنا مكاشفك بخبيثة في الضمير ، ومخبرك بأمر خطير ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن عندي كنزا أدلك عليه ، لترجع بعدى عند الحاجة إليه ، فيكون لك ظهرا في شدائد الأيام ، وظهيرا في مكائد الأنام ، فافتح لما أقول أقفال لبك ، واحفظه كسواد عيمك وسويداء قلبك ، وما أردت كنز مال مدفون ، ولا نفيس جوهر مكنون ، فإن مالي لديك ، وتجارتي بين يديك ، والعقار كما علمت ، واليسار مثل ما فهمت ، والرزق متيسر وأمر التجارة غير متعسر ، ولكن قصدت ما هو أعلى وأغلى ، وأجدر بالرعاية والعناية وأولى ، وما هو إلا صاحب عرفته قديما ، وعكفت على وده مستديما ، قد هذبته الليالي بمرها ، وجرعته كؤوس حلوها ومرها ، وكنت

جربته في خيرها وشرها ، وبلوته في نفعها وضرها ، وكررت اختباره مرارا فزاده
اختباري اختيارا ، وطول تجربتي منزلة عندي ومقدارا ، وكان لي كما قيل :
إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك
وأنت ترى كثرة الأصحاب حولنا ، وإكثارهم من الزيارة لنا ، ولكن كل
ألف لا يعد بواحد .

وإذا صفالك من زمانك واحد فهو المراد وعش بذلك الواحد
وهذا الرجل الذي ذكرت لا يتردد كما يترددون ، ولا يبدي من ظاهر الحال
والتجمل بالمقال مثل ما يبديون ، وأنا أزوره المرة والمرة في الأسبوع ، والود فيما
بيننا غير مقطوع ولا ممنوع ، وإنما الحب في الصدور لافي الثغور ، وفي شفاف الجنان
لا في أطراف اللسان .

وليس أخى من ودنى بلسانه ولكن أخى ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى إذا كنت معدما ومالى له إن أعوزته النوائب
فهذا هو الكنز الذى قصدت ، والحرز الذى أردت ، فاشدد على صحبته
العُرى ، ولا تنبذ بمودته فى العرا وأتبع هذا القول بنصائح ارتضاها وأمور
أمضاها ، وكأنها حاجة فى نفس قعقوب قضاها ...

وله مقامة طريفة أسماها « المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية » ومقامة
أخرى عنوانها « العمال والبطال » فراجعها فى كتاب الآثار الفكرية .
ومن شعره :

قصيدة قالها عقب الإفراج عنه بعد اتهامه فى الثورة العراقية ، وقد توجه إلى
قصر عابدين فلم يحظ بلقاء الحضرة الخديوية التوفيقية . وهى عريضة استعطاف
واسترحام ، لولى الأمر والانعام .

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى
وكبر إذ وافيت واجتنب الكبرى
وقف خاضعا واستوهب الإذن والتمس

قبولا وقبل سدة الباب لى عشرة

وبلغ لى الباب الخديوى حاجة
لدى باب سمح الراحقين مؤمل
كريم تود السحب فيض بنانه
ويستصبح البدر التمام بوجهه
وينجبل ضوء الصبح وضاح رأيه
تموء الجبال الراسيات بحلمه
عزيز أعز الله آية ملكه
يراقب رحمن السموات قلبه
ومنها :

أجمل فى دين المروءة أننى
وأحرم من تقبيل كفك بعدما
ولى فيك آمال ضمني بنجحها
وقد مر لى فوق الثلاثين حجة
أرى الصديق فضلا والعفاف عزيمة
وجاوزتها لالى عقار يفيدنى
ولو شئت كانت لى زروع وأنعم

أكابد فى أيامك البؤس والعسرا
ترامت بى الآمال مستأنسا برا
وقاؤك لا أرجو سواك له ذخرا
بخدمة هذا الملك لم آله صبرا^(١)
ونصح الورى دينا وغشهمو كفرا
كفافا ولا فى الكف قدأبتغى وفرا
ومال به الآمال اقتادها قسرا

(١) قوله صبرا ضمير الفائبة مفعول أول وصبرا مفعول ثان كما فى قوله تعالى « لا يألونكم خبالا » قال البيضاوى (أى لا يقصرون لكم فى الفساد والألؤ التقصير وأصله أن يعدى بالحرف ثم عدى إلى مفعولين كقولك لا آلوك نصحا على تضمين معنى المنع أو النقص) .

واكنها نفس فدتك أئمة
فمن فقد ألفت موضع منة
فلا زلت مأمولا مرجى منها
تعا ف الدنيا أن تمر بها مرا
وربك لا ينسى لذي منة أجرا
بما ترتجيه العام والشهر والدهرا

✱ ✱ ✱

وقال يعارض لامية ابن مطروح .
غزال حلا لى فيه الغزل
رنا وانتى فرمى أسهما
ورام يحاكى ريم الفلا
ومال فكم لام فى حبه
فلما تأمل فى حسنه
فيا عجبنا لجنون مراض
ذوابل بالسحر مكحولة
ويا طيب يوم به جاد لى
فقلت له يا بديع اللقا
ويا فاتننا بالجمال العقول
فضحت الغزال وفقت الهلال

حرم قربى وفى القلب حل
من اللحط تبطل عزم البطل
فقلت هل الكحل مثل الكحل
عذول عن الحق ظلما عدل
تلظى بنار الهوى واشتعل
وسيف لواظها قد قتل
ببابل هاروت عنها نقل
وداحى الهموم أمحى واضحل
ومزرى غصن النقا والأسل
ويا سالب الظبي سحر المقل
وأخجلت شمس الضحى فى الحمل

ومن قصيدة أنشدها يوم افتتاح مؤتمر المستشرقين الذى انعقد باستكهلم عاصمة
السويد سنة ١٨٨٩ بحضرة ملك تلك البلاد « اسكار الثانى » وأعضاء المؤتمر
المذكور :

اليوم أسفر للعلوم نهار
وزهت فنون العلم وازدهرت بها
وغدت لأرباب المعارف دولة
اسكار الثانى الذى اعترفت له
وبدت لشمس سمائها أنوار
أفنانها وتناسقت أنوار
غراء صاحب ملكها اسكار
أقطار وارتفعت به الأقدار

ولما عاد من المؤتمر السابق المذكور قدم إلى الحضرة الخديوية التوفيقية قصيدة ضمنها
ها تم في المؤتمر ، استهلها بقوله :

دنت الديار ودانت الأوطار هذا المنار وهذه الأنوار
هذا المنار يلوح نجم هداية للناظرين تؤمه الأنظار
والثغر وضاح ^(١) المباسم باسم للبشر في قسماته ^(٢) آثار
وفي ختامها :

فاسلم لمصر واهلها ليرى بها لئلا غرس يمينك استثمار
واسلم لأحمال وآل كلهم خير وآل الخيرين خيـار
وإليكم مولاي صنعة ليلة لحق العشاء بوشيا الاسحار
حتى كساها الصبح رونق وجهه حسنا وألبسها الضياء نهار

* * *

ونجد آثاره الشعرية والنثرية في كتاب « الآثار الفكرية » وكتاب « الوسيلة
الأدبية » وفي ثنايا كتاب « ارشاد الالباء الى محاسن أوربا » .

* * *

ولعلك ترى في أدب عبد الله فكبرى وفي آثاره صفحة من الجهود المحمودة
في اصلاح اللغة وأساليبها ، وفي إنهاض الثقافة في عصر كان الأدب فيه مرتطما
في حمأة ما تركت عصور الانحطاط ، فكان ممن لهم أثر في النهضة الحديثة .
هذا ما وفقني الله لتسليطه ، واني أرجو أن يكون مقدمة لبحث شامل في الاتجاهات
الحديثة للأدب وفي أصول الفن الأدبي وموازينه .
سدد الله خطانا وقوى عزائمنا وهدانا سبيل الرشاد .

(١) الوضاح أبيض اللون حسنه . (٢) القسمات : جمع قسمة : كسر السين وفنحها
ما بين الوجدتين والأنف

(٣) لف الشيء بالشيء ضمه إليه ووصله به .

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢	الأدب في عصر الأيوبيين	٣٨
(الدولة الفاطمية)	٥	الشعر	٣٩
التشيع ونشأته	٦	الكتابة	٣٩
حضارة الفاطميين في مصر	٧	القاضي الفاضل	٤١
الثقافة والنشاط العالمي في عصر الفاطميين	٨	طريقة الكتابة	٤٣
الأدب في العصر الفاطميين	١١	مصطلحات الكتابة وأساليب المكاتبات	٤٤
الشعر	١١	× العمد الأصفهاني	٤٥
الكتابة	١٣	× البهاء زهير	٤٦
ديوان الإنشاء	١٤	× ابن مطروح	٤٧
تميم بن المعز	١٦	× ابن النبيه	٤٧
× عمارة اليمنى	١٧	× علم الدين أيدمر	٤٧
× الصالح طلائع بن رزيك	١٧	× ابن الساعاني	٤٨
× القاضي المهذب	١٨	× ابن سناء الملك	٤٨
× أبو حامد الأنطاكي	١٩	× ابن الفارض	٤٨
× ابن الصيرفي	١٩	× ابن التعاويذي	٤٨
× علي بن خلف	٢٠	(عصر الماليك)	٦٩
× ابن قادوس	٢٠	التأليف وأشهر المؤلفين	٧٠
(الدولة الأيوبية)	٣٣	الشعر	٧٧
الثقافة في عصر الأيوبيين	٣٦	منزلة الشعر وحفظ الشعراء	٩٣

صفحة	مؤلف	صفحة	مؤلف
١٥١	التأليف والمؤلفون	٩٤	أغراض الشعر
١٥٥	الترجمة والعلوم الحديثة	٩٥	معانيه
١٦٠	الأدب في عصر النهضة الحديثة	٩٥	ألفاظه وأساليبه
١٦٦	المشعر في عصر النهضة الحديثة	٩٨	الأزجال
١٨٦	النثر في عصر النهضة الحديثة	١٠٠	الكتابة في عصر المماليك
١٨٦	حالة النثر في أول هذا العهد	١٢٠	كتابة الرسائل
١٨٧	عوامل نهوضه	١٢٠	خصائص الكتابة
١٩٠	اتجاه النثر ومظاهر رقيه	١٢٢	كتابة التدوين والتأليف
١٩٣	(البارودي)	١٢٥	(العصر العثماني)
١٩٣	نسبه ونشأته	١٢٦	الحالة العلمية والأدبية
١٩٤	ثقافته	١٢٦	الثقافة والتأليف في العصر العثماني
١٩٥	حياته وصفاته	١٣١	المشعر في العصر العثماني
١٩٦	شعره	١٣٤	النثر في العصر العثماني
١٩٨	معانيه	١٤٧	(عصر النهضة الحديثة)
١٩٩	أسلوبه	١٣٨	الحملة الفرنسية
٢٠٠	أثره ومكانته الشعرية	١٤١	محمد علي باشا
٢٠٧	(عبد الله باشا فكري)	١٤٢	الثقافة
٢٠٧	نشأته وثقافته	١٤٥	الثقافة في عصر إسماعيل
٢٠٩	أثره في النهضة الحديثة	١٤٦	الثقافة في عصر الاحتلال الإنجليزي
٢١٠	مكانته الادبية	١٤٧	المطابع
٢١١	نثره	١٤٨	دار الكتب المصرية
٢١٢	شعره	١٤٨	الصحافة



892.709:H34sA:c.1

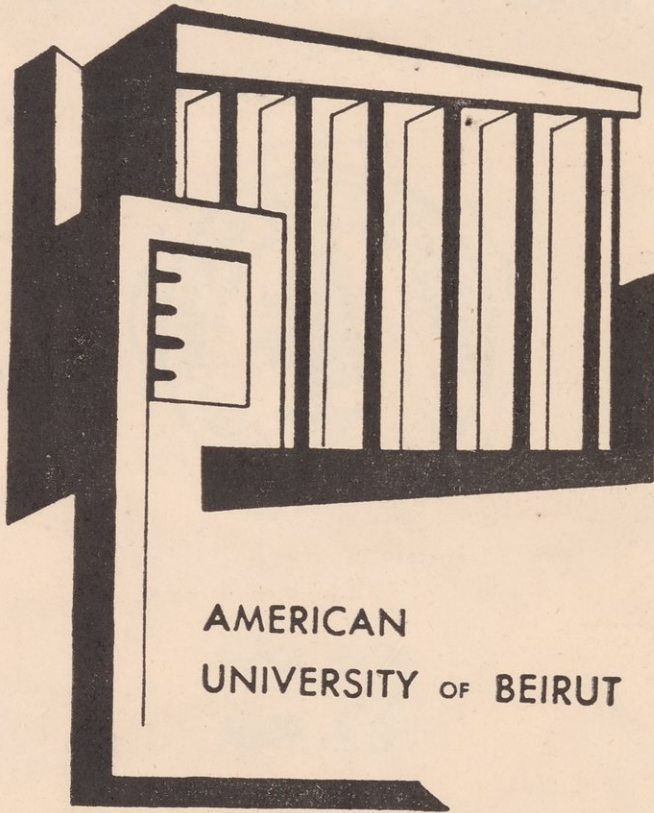
حسن، عبد الحميد

صفحات من الادب المصري من العصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033423



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709
Ha377sA